المجمع العلمي العربي بدمشق

هذه خلاصة جد موجزة في تأسيس المجمع العلمي العربي ، وفي أهم الأعمال التي اضطلع بها[1] . ومن أراد زيادة في ذلك ، حتى سنة ١٩٥٦ ، عليه بمراجعة الكتاب الذي أصدره المجمع في السنة المذكورة بعنوان « تاريخ المجمع العلمي العربي » لمؤلفه الأستاذ أحمد الفتيح .

نبذة تاريخية . — قلت في كتاب القومية العربية (ص ٢٩٦) :

« . . . أما عهد الأتراك العثمانيين ، منذ احتلالهم للديار العربية في القرن العاشر للهجرة حتى خروجهم منها عقب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ للميلاد ، فقد كان في الجملة أسوأ عهد مرّ على العربية وآدابها ؛ ذلك بأن المماليك من أتراك وشراكسة كانوا قبل الأتراك العثمانيين يسكنون مصر والشام ، ويتعلمون العربية ، وكانت لغتنا في أيامهم هي لغة الحكومة الرسمية . أما الأتراك العثمانيون فقد اتخذوا اسطنبول عاصمة لهم ، وجعلوا التركية وحدها لغة حكومتهم الرسمية حتى في بلادنا العربية . وكان ذلك ضربة أصابت لغة القرآن في الصميم . ولم تشف لغتنا الضادية من تأثير هذه

(١) عندما توحدت مصر وسورية في أول شباط « يونية » سنة ١٩٥٨ وجد المجمع العلمي العربي في دمشق ومجمع اللغة العربية في القاهرة فائدة في دمج المجمعين في مجمع واحد على أن يكون له فرعان فرع في دمشق وفرع في القاهرة ، وعلى أن تظل أعمال كل من الفرعين تسير كما كانت تسير عليه في السابق . وبذلك أوجد تعاون وثيق بينهما واختصاص في بعض الأعمال . وصار اسم مجمعنا مجمع اللغة العربية بدمشق . ولكن مجلته ظلت محتفظة باسمها السابق لشهرته .

الضربة إلا بعد أن انفصلت مصر عن الدولة العثمانية في القرن الماضي ، وانفصلت عنها الشام والعراق واليمن وأجزاء المملكة العربية السعودية عقب الحرب العالمية الأولى » .

ولم يكن من المعقول أن تهتم حكومات الدولة العثمانية باللغة العربية إلا بمقدار ما كانت تحتاج اليه منها في تعليم لغتها التركية العثمانية . فقد كانت ألوف من ألفاظ الحضارة ولا سيما من المصطلحات العلمية العربية قد أدخلت في اللغة التركيه . ولكن علماء الترك ما كانوا حريصين على صحة الألفاظ العربية التي ينقلونها الى لسانهم ، وكانوا يحورون بعض تلك الألفاظ على هواهم أحياناً .

ويتضح من ذلك أنه عندما ظهرت طلائع النهضة الحديثة في الشام في القرن الماضي ، وأخذت تمتد وترسخ في أوائل القرن الحاضر ، لم يكن لتعليم العربية حظ يذكر إلا في المدارس الأهلية والمدارس الأجنبية التابعة للإرساليات الدينية . وكانت مغبة اتخاذ اللغة التركية لغة رسمية في دوائر الحكومة وفي المحاكم والمدارس الحكومية أن صار معظم موظفي الحكومة ضعافاً في العربية ، وصار كتاب الصحف العربية القليلة يكثرون من استعمال الكلمات المغلوط فيها .

ولذلك عندما انفصلت ديار الشام وغيرها عن الدولة العثمانية في خريف سنة ١٩١٨ ، وقامت في سورية الحكومة العربية السورية ، برزت فيها حركة قومية قوية ترمي الى نقل سجلات الحكومة وقوانينها وأنظمتها الى العربية ، والى نشر التعليم بلساننا ، والى تأليف كتب مدرسية عربية لتدريس مختلف العلوم العصرية في مدارس الحكومة ، وفي الجيش العربي الذي كان نشأ قسم منه في الثورة العربية في الحجاز ، ونشأ القسم الثاني بعد دخول القسم الأول الشام في الطليعة مع سائر جيوش الحلفاء سنة ١٩١٨ للميلاد .

وكانت الحكومة العربية السورية في تلك السنة حكومة عسكرية سرعان ما أدركت أن الحاجة ماسة الى رهط من الأدباء والعلماء واللغويين العرب يعملون على تصحيح لغة الموظفين في الحكومة ، ويشرفون على لغة الكتب المدرسية في المدارس العسكرية والمدنية ، ويضعون المصطلحات العلمية العربية أو يحققونها ، فألفت في جملة ما ألفته شعبة حكومية سمتها « شعبة الترجمة والتأليف » أخذت على عاتقها تحقيق هذه الأغراض ، مستعينةً بمن كان لهم نصيب من إتقان اللغة العربية ، ولهم معرفة بالمصطلحات العربية لكتب التدريس التي كان يجب أن تُنقل من التركية الى العربية .

ولم يدم استقلال هذه الشعبة إلا بضعة أشهر [1] فقد رأت الحكومة العسكرية أن تجمع شؤون التعليم والتربية والثقافة واللغة والآثار والمكتبات العامة في ديوان واحد سمته « ديوان المعارف » . ولذلك أدمجت الشعبة فيه [2] . ولكن الحكومة عادت ففصلتها عن ديوان المعارف ، بأمر من حاكم سورية العسكري العام [3] عندما ازدادت أعمال التربية والتعليم من جهة ، وأعمال اللغة والمكتبات والترجمات والآثار من جهة ثانية .

والأمر المذكور مؤرخ في الثامن من حزيران سنة ١٩١٩ ، وهو يقضي بقيام المجمع العلمي ، ولهذا يُعتبر تاريخ الأمر تاريخ تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق . وقد جاء في الأمر الى جانب « المجمع العلمي » كلمة (أقاده مي) كذا بين قوسين ؛ ويتبين من ذلك أن المجمع ليس مجمعاً للعلوم [4]

---

(١) من الثامن والعشرين من تشرين الثاني « نوفبر » سنة ١٩١٨ م حتى الثاني عشر من شباط « فبراير » سنة ١٩١٩ .

(٢) ظلت مندمجة فيه من الثاني عشر من شباط « فبراير سنة ١٩١٩ حتى الثامن من حزيران « يونية » سنة ١٩١٩ .

(٣) وكان الفريق علي رضا الركابي .

(٤) Académie des sciences

على حسب الاصطلاح الأوربي الحديث ، بل هو مجمع للعلوم اللغوية والأدبية خاصة ، على حسب ما كان مألوفاً عند العرب في مثل هذه التسمية . أما كلمة العربي التي أضيفت الى « المجمع العلمي » فقد كانت صفة له ، لأن الدولة العربية التي قامت بدمشق في ذلك الزمن كانت تعتبر نفسها دولة جميع العرب المنفصلين عن الدولة العثمانية ، وكانت تنعت مؤسساتها الحديثة بهذا النعت في مثل قولها دار الآثار العربية ودار الكتب العربية وهكذا .

وتولى الأستاذ محمد كرد علي رئاسة المجمع ، وهو يعد صاحب الفضل في تأسيسه . وكان أعضاؤه في سنة ١٩١٩ فريقين : أعضاء عاملين ، وأعضاء شرف مؤازرين . فأما العاملون فكانوا الأساتذه سعيد الكرمي ، وأمين سويد ، وأنيس سلوم ، وعبد القادر المغربي ، وعيسى اسكندر المعلوف ، ومتري قندلفت ، وعز الدين علم الدين التنوخي . ثم انضم اليهم الشيخ طاهر الجزائري بعد أن عاد من مصر في تشرين الأول « أكتوبر » سنة ١٩١٩م .

وأما أعضاء الشرف المؤازرون الذين انتخبهم الأعضاء العاملون في أول جلسة عقدوها في ٣٠ من تموز « يوليو » سنة ١٩١٩ فهم : المطران ميخائيل بخاش (مطران السريان الكاثوليك) ، وعبد القادر المبارك ، ورشيد بقدونس ، ومحمد الخضر التونسي ، ومحسن الأمين العاملي ، وسليم العنحوري ، وفارس الخوري ، والطبيب عبد الرحمن الشهبندر ، والطبيب مرشد خاطر وحسين عوني القضماني (١) .

وفي العشرين من ايلول « سبتمبر » سنة ١٩١٩ أذاع رئيس المجمع بالعربية والفرنسية بياناً وجهه إلى المجامع والمجلات المشهورة أنبأهم فيه بتأليف المجمع العلمي العربي ، وبالمهام التي سيضطلع بها ، وخلاصتها على ما جاء في ذلك البيان :

---

(١) لم يبق على قيد الحياة ، من جميع الأعضاء الأولين المار ذكرهم ، سوى زميلنا اللغوي عز الدين التنوخي ، مد الله في عمره ، وكان في سنة ١٩١٩ أصغر الأعضاء سنا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١ ـ النظر في اللغة العربية وأوضاعها العصرية ، ونشر آدابها ، وإحياء مخطوطاتها ، وتعريب ما ينقص فيها من كتب العلوم والصناعات والفنون عن اللغات الأوربية ، وتأليف ما تحتاج إليه من الكتب ، في موضوعات مختلفة ، وعلى أساليب حديثة .

٢ ـ جمع الآثار القديمة من تماثيل وأدوات وأوانٍ ونقود وكتابات وما شاكل ذلك ، ولا سيما ما كان منها عربياً ، على أن يؤسس متحف يشتمل عليها .

٣ ـ جمع المخطوطات القديمة الشرقية والمطبوعات العربية والإفرنجية على اختلاف موضوعاتها ، وتأسيس مكتبة عامة وغرف للمطالعة .

٤ ـ إصدار مجلة اسمها « مجلة المجمع العلمي العربي » تنشر فيها أعمال المجمع وأفكاره ، وتكون رابطة بينه وبين الجامع العلمية ، والجامعات ، ودور الآثار ، ودور الكتب ، وأمهات المجلات في الغرب والشرق .

ARCHIVE

واتخذ المجمع مقره في المدرسة العادلية بعد أن أصلحها . وهي تقع على مقربة من الجامع الأموي الكبير . وتعد من أشهر مدارس دمشق القديمة . بناها الملك العادل ودفن فيها سنة ٦١٥ هـ في قبة كبيرة . والملك العادل هو شقيق الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي . وما برح المجمع مقيماً في بناء هذه المدرسة حتى يومنا هذا .

وأمام بناء المدرسة العادلية يقوم بناء أثري كان شيده الملك الظاهر بيبرس البندقداري واتخذه مدرسة . وبعد وفاته سنة ٦٧٦ هـ دفن فيه في قبة جدرانها محلاة بالفسيفساء والنقوش العربية الجميلة . وقد أصلح المجمع هذا البناء ، واتخذه مكتبة عامة وغرفاً للمطالعة . وظل اسمه المكتبة الظاهرية على ما كان معروفاً منذ زمن الشيخ طاهر الجزائري .

نشاط المجمع وأهم أعماله . — من أهم أعمال المجمع أولاً السهر على صحة اللغة وعلى نموها ، ثانياً جمع الآثار القديمة في متحف . ثالثاً بث الثقافة العربية والثقافة العامة ، وذلك بإلقاء محاضرات عامة في ردهة المجمع ، وبتحقيق المخطوطات العربية وطبعها ، وإدارة مكتبة المجمع والمكتبة الظاهرية ، وإقامة الحفلات والمهرجانات والمؤتمرات اللغوية والأدبية والعلمية ، واصدار مجلة المجمع .

وها كم كلمات موجزات في أهم الأعمال التي اضطلع بها المجمع في الماضي والتي ما برح يضطلع بها في الحاضر .

موضوع اللغة والمصطلحات . — لم يكد المجمع يباشر عمله في خريف سنة ١٩١٨ باسم « شعبة الترجمة والتأليف » حتى شرع في وضع جملة من المصطلحات العربية للجيش العربي في سورية . وكان لهذه المصطلحات تأثيرها الفعال في نقل التعليم في الجيش وفي المدارس العسكرية من التركية إلى العربية . ولما احتل الجيش الفرنسي سورية في صيف سنة ١٩٢٠ ، نُقلت هذه المصطلحات إلى العراق ، فكانت نواة للقاموس العسكري الذي وُضع بعدئذ للجيش العراقي .

وعندما أخذت دوائر الحكومة العربية السورية تنقل القوانين والأنظمة والتعليمات من التركية إلى العربية ، بين أواخر سنة ١٩١٨ وأواسط سنة ١٩٢٠ ، كانت تبعث إلى المجمع بقوائم من الألفاظ التركية ، والألفاظ العربية المحرفة والمغلوط فيها ، فيضع الألفاظ العربية المقابلة للألفاظ التركية ، ويصحح الألفاظ العربية غير الصحيحة ، ويعيدها جميعاً إلى مرسليها . فمن الأمثلة على ذلك أن معظم الموظفين العرب في الدولة العثمانية كانوا يجهلون استعمال ألفاظ الشرطة والدرك والمفوض والآذن والتمليك والطابع والفراش والخزانة والحاشية والإحصاء والتقرير والإضبارة والتقويم الخ . ويستعملون بدلاً منها الألفاظ

المتداولة في التركية العثمانية وهي على التتابع : البوليس والجندرمة والكوميسير والنوبتجي والطابو والبول والأوطهجي والقاصة والدركنار والإستانستيق والرابور والدوسية والروزنامة وهكذا .

وعاشت الألفاظ التي وضعها أو حققها المجمع ، وتغلبت على ألفاظ الدولة العثمانية إلا قليلا ، مثل كلمة الدورية القديمة فلم تزحزحها كلمة العسس التي وضعها المجمع ، ومثل قوائم المزاد فلم تحل محلها جرائد المزاد .

وقد ارتقت لغة دوائر الحكومة السورية منذ ذلك الزمن ، وعُدت في الجملة أصلح من أشباهها في سائر الدول العربية .

ولم يقتصر المجمع على النهوض بلغة الدواوين والموظفين بل تجاوز ذلك ، في أول حياته ، إلى مراقبة لغة الكتب المدرسية ، فما كان يُطبع منها كتاب ما لم يوافق المجمع على لغته وعلى موضوعه . وقد صحح المجمع لغة بعض القوانين كقانون التعليم الابتدائي وقانون الصحة العامة وقانون الحجر الصحي وعدد من القوانين المالية .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولعل أهم عمل أتاه المجمع في خدمة اللغة العربية إصداره مجلته هذه ، لما اشتملت عليه من البحوث في فقه اللغة ، وعثرات الكتاب ، وشؤون المصطلحات وغير ذلك مما سيجيء ذكره .

تأسيس متحف الآثار . — كانت آثار الشام في زمن الدولة العثمانية نهباً مقسماً بينها وبين بعثات التنقيب والتجار واللصوص . ولم تفكر تلك الدولة قط في تأسيس متحف واحد في ديار الشام كلها . وكانت البعثات الأجنبية للآثار والعاديات تنقب عنها في أنحاء مختلفة من بلادنا ، فتبعث بقسم مما تعثر عليه منها الى متحف إسطنبول ، وتبعث بقسم آخر أي بحصتها الى متاحف بلادها . وكانت تجارة الآثار رائجة في ذلك الزمن ، ولذلك غصت متاحف أوربة بآثار الشام .

فلما قام المجمع العلمي العربي سنة ١٩١٩ اهتم بموضوع الآثار ، وهاله انتقالها بشتى الوسائل الى البلاد الأجنبية ، فراجع الحكومة العربية السورية في أمرها ، واستصدر منها قراراً يقضي بانشاء متحف في دمشق تابع للمجمع ، فأنشأه المجمع في السنة المذكورة وراح يجمع فيه مختلف الآثار الحجرية والخشبية والزجاجية والنقدية والأسلحة والقاشاني وغيرها ، إما شراءً ، أو استهداءً ، أو مصادرةً ، أو اتفاقاً مع بعثات التنقيب .

وظل المجمع يجد في عمله هذا إلى أن كبر المتحف ، فاستقل عن المجمع في سنة ١٩٢٨ م ومع هذا ظلت الآثار في غرف المجمع ، وظل رئيس المجمع رئيساً لمجلس إدارة دار الآثار أي المتحف حتى سنة ١٩٣٧ ، وهي السنة التي شُيِّد فيها بناء المتحف الحالي ، واستقلت فيها مديرية الآثار العامة ماليًا وإداريا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بث الثقافة العربية والثقافة العامة

(١) المحاضرات العامة . ــ بدأ أعضاء المجمع وغيرهم ، في ربيع سنة ١٩٢١ ، يلقون محاضرات عامة على الجمهور ، في قاعة المجمع للمحاضرات . ودام عملهم هــذا حتى ربيع سنة ١٩٤٦ ، مع انقطاع دام تسع سنوات لأسباب شتى ، فبلغ مجموع تلك المحاضرات قرابة أربعمائة محاضرة في مختلف الموضوعات الثقافية .

وقد كف المجمع عن هذا العمل التثقيفي المفيد بعد أن كثرت الأندية والجمعيات الأدبية في دمشق ، وأصبحت المحاضرات العامة تُلقى فيها وفي قاعة المحاضرات التابعة للجامعة السورية ، وعندئذ رأى المجمع أن يقصر نشاطه على عمله الأساسي وهو خدمة اللغة وآدابها ونشر تراث الأجداد .

وكانت محاضرات المجمع تلقى على الجمهور مرة في كل أسبوعين . ولما ازداد الإقبال عليها صارت تلقى مرة في كل أسبوع .

وكان معظم المحاضرين من أعضاء المجمع . ولكنه لم يكن محظوراً على المعروفين من غير أعضائه أن يلقوا محاضرات في ردهته سواء على الرجال أو على النساء . ومن الطبيعي أن تكون درجات المحاضرين والمحاضرات متفاوتة في ذلك الزمن . ومع هذا استطاع المجمع أن يصدر ثلاث مجلدات من المحاضرات في كل مجلدة بحوث ثمينة لعلماء وأدباء مشهورين ، منهم المتوفون مثل الرئيس محمد كرد علي ، والشيخ عبد القادر المغربي وعيسى اسكندر المعلوف والأمير شكيب أرسلان وخليل مطران وأحمد أمين والدكتور مرشد خاطر ومحمد اسعاف النشاشيبي وغيرهم ، ومنهم الأحياء من أعضاء المجمع وغير الأعضاء ولهم جميعاً في المجلدات الثلاث المذكورة محاضرات كثيرة في الأدب واللغة والفلسفة والتاريخ والرحلات وغيرها .

وكانت المحاضرات كافة تعرض قبل إلقائها على لجنة تنظر في موضوعاتها ، وكانت هذه اللجنة تتألف من الأساتذة فارس الخوري ومسعود الكواكبي وعارف النكدي وكاتب هذه السطور . أما لغة المحاضرات فكان ينظر فيها الأساتذة عبد القادر المبارك وسليم الجندي وخليل مردم بك .

ومن الأمور المعروفة أنه كان لمحاضرات المجمع ، على اختلاف موضوعاتها ، تأثير ثقافي يذكر ، في زمن كانت قاعة المجمع المكان الوحيد الذي تلقى فيه أمثال تلك المحاضرات .

(٢) تحقيق المخطوطات العربية وطبعها . — كلنا نعرف أن تراث الأجداد من المخطوطات يعد كنزاً ثميناً ، وأن في جملة هذه المخطوطات ، التي فقدنا الكثير منها ، نفائس يجب العمل على تحقيقها ونشرها . فالمجمع لم يتمكن ، في بدء حياته ، من القيام بهذه المهمة لصغر ميزانيته

ولضرورة إنفاق المال على الشؤون التأسيسية كترميم الأبنية الأثرية ، وشراء الكتب والمخطوطات والآثار ، واصدار المجلة ؛ ولذلك اقتصر عمله ، في هذه الناحية ، حتى سنة ١٩٤٤ ، على طبع رسائل مستلة من المجلة أو طبع كتب صغيرة . ومنذ السنة المذكورة أخذ نشر المخطوطات يزداد فاستطاع المجمع أن ينشر حتى سنة ١٩٥٦ نحو ثلاثين كتاباً منها ديوان الوليد بن يزيد ، ورسالة الملائكة للمعري ، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي ، والمستجاد من فعلات الأجواد للمُحَسِّن ابن علي التنوخي ، وكتاب الأشربة لابن قُتَيبة ، والدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ، وديوان علي بن الجهم ، وديوان الوأواء الدمشقي ، وديوان ابن حَيُّوس ، وديوان ابن أبي حصينة ، ومجلدتان من تاريخ ابن عساكر ، والرسالة الجامعة للمجريطي ، والجزء الثاني والثامن من كتاب جامع التواريخ المسمى بكتاب « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » للقاضي المُحَسِّن بن علي التنوخي ، وكتاب بحر العوّام فيما أصاب فيه العَوام لابن الحنبلي الحلبي ، وفضائل الشام ودمشق لعلي بن محمد الربعي المالكي ، وجزء من خريدة القصر وجريدة العصر لعماد الدين القرشي الأصفهاني ، وهو في شعراء الشام ، وتكملة إصلاح ما تغلط به العامة للجواليقي الخ .

وفي بضع السنوات الأخيرة أي بعد سنة ١٩٥٦ ازداد تحقيق المخطوطات ونشرها حتى أربى عددها فيها على خمسين كتاباً ورسالة . ومن أهمها كتاب الإبدال في جزءين ، وكتاب الإتباع ، وكتاب الأضداد في جزءين ، وكتاب المثنى وكلها لأبي الطيب اللغوي . ومنهـــا كتاب النوادر لأبي مسحل عبد الوهاب بن حريش الأعرابي وهو جزءان . ومنها إعتاب الكتّاب لابن الأبّار ، وأخبار البحتري لأبي بكر الصولي ، وأسرار العربية لأبي البركات الأنباري ، وصفة الغيث والسحاب لابن دريد ، وجزءان من تراجم الأعيان من أبناء الزمان للبوريني ، وجزءان من خريدة القصر للعماد الأصفهاني

(أحدهما في فضلاء الحجاز واليمن) ، ومجلدة من تاريخ دمشق لابن عساكر ، وكتاب الإبدال والمعاقبة والنظائر للزجاجي ، وكتاب الحيدة لعبد العزيز الكناني الخ .

ومن الكتب الحديثة التي نشرها المجمع في السنوات الأخيرة : حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر للشيخ عبد الرزاق البيطار ، وهو في ثلاثة أجزاء كبار ، ومنها الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره لسليم الجندي وهو أيضاً في ثلاثة أجزاء كبار يوشك طبع الثالث منها أن ينتهي ، ومنهـا معجم المصطلحات الحراجية (بالإنكليزية والفرنسية والعربية) لكاتب هذه السطور ، وفيه نحو ألف مصطلح عُرِّفت بالعربية تعريفاً علمياً موجزاً . ومنها ثلاثة أجزاء كبار لفهارس مجلة المجمع جاءت في ٢٤٠ صفحة .

(٣) المكتبة الظاهرية ومكتبة المجمع . ـــ من أهم الأعمال التي يقوم بها المجمع إدارة شؤون المكتبة الظاهرية في دمشق ويعود الفضل الأكبر في تأسيس هذه المكتبة إلى الشيخ طاهر الجزائري . فقد استطاع أن يجمع فيها ، في سنة ١٢٩٨ للهجرة ، ٢٤٥٣ كتاباً في علوم مختلفة ، معظمها مخطوطات كانت مبعثرة في المدارس القديمة التابعة للأوقاف كالعمرية وغيرها ، أما اليوم ففي المكتبة الظاهرية ٩٥٠٠ من المخطوطات و ٧٨٩٢١ من الكتب المطبوعة والمجلات العربية والأعجمية .

أما غرف المطالعة في المكتبة فقد بلغ معدل القراء فيها مائة قارىء في كل يوم وذلك في موسم الشتاء الماضي . أما في موسم الصيف فلم يزد معدلهم على ثلاثين قارئا .

وأنشأ المجمع لأعضائه وللأساتذة مكتبة كبيرة فيها كثير من المراجع التي يحتاجون اليها في تهيئة بحوثهم ودراساتهم .

(٤) الحفلات والمهرجانات والمؤتمرات . — من تقاليد المجمع أن يقيم بين حين وآخر حفلة أو مهرجاناً أو مؤتمراً لغوياً او أدبياً أو علمياً . فمن كرمهم المجمع مثلاً أحمد شوقي وحافظ ابراهيم . ومن أبنهم الشيخ طاهر الجزائري ، وأحمد كمال باشا الأثري ، ومحمود شكري الآلوسي ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، وأحمد شوقي ، وحافظ ابراهيم ، ومحمد رشيد رضا، وجميعهم من أعضائه المشهورين .

وأقام المجمع مهرجاناً كبيراً لمرور ألف سنة هجرية على وفاة المتنبي ، ومهرجاناً كبيراً أيضاً لمرور ألف سنة على مولد أبي العلاء المعري . وألقيت في المهرجانين محاضرات وبحوث وقصائد كثيرة .

وفي خريف سنة ١٩٥٦ أقيم في المجمع مؤتمر ضم ممثلين عن المجمع العلمي العربي والمجمع العلمي العراقي ومجمع اللغة العربية في القاهرة ، وممثلين عن بعض الدول العربية التي ليس فيها مجامع . وأصدر مجمعنا عدداً خاصاً من مجلته (الجزء الأول من المجلد الثاني والثلاثين) يشتمل على برنامج المؤتمر وبحوثه وقراراته .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٥) مجلة المجمع . — لعل من أكثر أعمال المجمع فائدةً إصدار مجلته هذه . فقد ظهرت للملأ في أول سنة ١٩٢١ للميلاد الموافق للواحد والعشرين من ربيع الثاني سنة ١٣٣٩ للهجرة . وكان المجمع يصدر جزءاً منها في كل شهر . ومنذ سنة ١٩٣١ صار يصدر جزءاً كبيراً في كل شهرين ، ثم منذ سنة ١٩٤٨ أخذ يصدر جزءاً أكبر في كل ثلاثة أشهر ، وصار المجلد السنوي مؤلفاً من أربعة أجزاء تصدر في انتظام بدءاً من أول السنة الميلادية .

ولم تتوقف المجلة عن الصدور منذ إنشائها الى اليوم إلا مرتين مرةً من ربيع سنة ١٩٣٣ الى ربيع سنة ١٩٣٥ ، وذلك لأسباب إدارية ومالية ، ومرةً من بدء سنة ١٩٣٨ الى بدء سنة ١٩٤١ ، وذلك لأسباب شتى منها قيام الحرب العالمية الثانية .

وجملة ما صدر منها حتى الآن تسع وثلاثون مجلدة ، وهذه هي المجلدة الأربعون التي قرر مجلس المجمع أن يكون جزؤها الأول هذا ذكرى لصدور ذلك العدد الكبير من المجلدات .

وتشتمل المجلة على بحوث ودراسات كثيرة في اللغة العربية وآدابها ومصطلحاتها العلمية ، وعثرات الأقلام ، والأخطاء الشائعة ، وفي تاريخ العرب وتراث الأجداد من المخطوطات ومن المخلفات الأثرية ، الى غير ذلك مما له صلة بلساننا وحضارتنا وثقافتنا في القديم والحديث . ومعظم كتّاب المجلة من أعضاء المجمع المشهورين عرباً كانوا أو مستشرقين . ولغير الأعضاء أيضاً بحوث كثيرة مفيدة .

ومن خطط المجمع نشر محاضرات الأعضاء النفيسة في مجلته ، والتعريف بالكتب الثمينة التي تهدى الى مكتبته ، ومبادلة مجلة المجمع بمجلات المجامع والجامعات العربية والأعجمية .

وقد أصدر المجمع لمجلدات المجلة فهرساً في ثلاثة أجزاء كل جزء منها لعشر سنين من حياة المجلة ، ويصدر الجزء الرابع من الفهرس في انتهاء هذه السنة .

الخاتمة — المجمع العلمي العربي بدمشق هو أقدم المجامع الحديثة في البلاد العربية . أعضاؤه العاملون عشرون . وأعضاؤه المراسلون من عرب ومستشرقين لا حد لعددهم . وللمجمع شخصية معنوية واستقلال مالي وإداري . وهو منذ سنة ١٩١٩ الى اليوم يعالج علوم لغتنا العربية ، ويحرص على سلامة هذه اللغة ، وعلى جعلها تتسع للعلوم والفنون والمخترعات الحديثة . وهو أيضاً يتناول بالبحث تاريخ العرب ومدنيتهم وتراثهم العلمي والأدبي وثقافتهم في القديم والحديث وصلة هذه الثقافة بالثقافات العالمية .

مصطفى الشهابي

لغة العلم

أداة البحث ، ووسيلة الشرح ، ولا حياة لعلم بدونها . يلتقي عندها العلماء ، ويعول عليها الطلاب ، وعلى أساسها يقوم التأليف والنشر . تسير بسير العلم ، وتقف بوقوفه . وهي لغة الوضوح والدقة ، والبيان والسرعة . يصطلح عليها العلماء ، فتصبح لغتهم الخاصة . ولكل علم مصطلحاته ، وكلما تقدم البحث فيه نمت وتباينت وتحددت . يبدأ المصطلح هزيلا متردداً ، ثم لا يلبث أن يقوى ويستقر ، وتاريخ العلوم إلى حد ما تاريخ لمصطلحاتها .

* * *

ولو رجعنا إلى تاريخ العلم اليوناني لوجدنا أن لغته بدأت تتكون معه منذ القرن السادس قبل الميلاد ، ثم أخذت تنمو وتتضح في القرنين الخامس والرابع . فغذاها فيثاغورس برياضياته ، وأمدها أبقراط بطبه ، وأقام أرسطو دعائم لغة العلوم الطبيعية . وللعلوم الفلسفية والإنسانية لغتها ومصطلحاتها التي ساهم فيها أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو وزينون وأبيقور . وقد انتقل قدر غير قليل من لغة العلم اليونانية إلى الثقافات اللاتينية والسريانية والعربية ، ولا تزال بعض آثارها باقية إلى اليوم في اللغات الأوربية الحديثة .

ولم تنشأ لغة العلم في الإسلام دفعة واحدة ، بل نمت وتنوعت بنمو العلوم وتقدمها . فبدأت العلوم الدينية منذ القرن الأول للهجرة في تكوين لغتها ، وظهرت مصطلحات في الفقه والتفسير والكلام ، وتلتها أخرى في الأخلاق والسياسة ، والطب والكيمياء ، والفلك والطبيعة . وخضع المصطلح العربي القديم لسنة النشوء والارتقاء ، فنما وتطور على مر الزمن . وعوّل

واضعوه على النقل والاشتقاق ، ولم يبالوا بأن يكون عربياً أصيلا أو معرباً دخيلا ، وربما آثروا المعرب إذا كان أدخل في المعنى وأكمل في الأداء . وكثيراً ما يحمل التعريب شارة الأصل الذي نُقل عنه ، فتلحظ الألفاظ الفارسية في مستحدثات الإدارة والحضارة ، واليونانية والسريانية في العلوم الفلسفية والطبيعية . وإذا ما لوحظ أن مصطلحاً لا يؤدي معناه أداء كاملا عُدل عنه إلى ما هو ادق وأضبط .

وما ان حل القرن الرابع الهجرى حتى اكتملت لغة العلوم في الإسلام ، واستقرت مصطلحاتها ، بحيث تنومي معناها الأول ، ولا يكاد يُفهم منها إلا مدلولها العلمي الخاص . وتداولها الباحثون في المشرق والمغرب ، ولم تختلف من قطر إلى قطر ، فكانت لغة العلم واحدة في قرطبة والقيروان . والفسطاط ودمشق ، وبغداد وأصفهان . وبدىء بتسجيلها في معجمات خاصة تحت اسم « مفردات » أو « تعريفات » ، ومن أوائلها « مفاتيح العلوم » للخوارزمي الذي ظهر في النصف الثاني من القرن الرابع . ومن المصطلحات العربية ما انتقل إلى الفارسية والتركية ، ومنها ما مرى إلى اللاتينية بل وإلى بعض اللغات الأوربية الحديثة كالإنجليزية والفرنسية .

ويوم أن ركد البحث العلمي في الإسلام ، ركدت لغته معه فجمدت المصطلحات ، وأضحت ولا تجديد فيها ولا ابتكار ، وكان هم الخلف أن يردد ألفاظاً وصيغاً قال بها السلف ، وأصبحت اللغة العلمية ركيكة معقدة . ثم جاءت النهضة العلمية العربية الحديثة في القرن الماضي على فترة من البحث والدرس ، وحاولت أن تتدارك بعض ما فات . ولكن رجالها الأُوَل — فيما يظهر — لم يكونوا على علم بماضيهم ولا على صلة وثيقة بعلومهم ومصطلحاتهم القديمة . فلم يفيدوا كثيراً من هذا التراث ، وأخذوا يؤدون الحقائق العلمية أداء لا يخلو من تعجل أو خطأ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قديماً الجبرية والقدرية . ولنا أن نقيس فيما لم يقل بالقياس فيه لأداء دلالات خاصة ، فنستحدث أوزاناً جديدة لاسم الآلة ، أو للدلالة على الحرفة أو الداء . ونجيز النسب إلى جمع التكسير كأحياني ، وكان يقصر في الماضي على المفرد . وكل تلك أمور أقرها مجمع اللغة العربية منذ ربع قرن أو يزيد . وان لغة تيسر القياس والاشتقاق على نحو العربية ، لايعز عليها أن تجد من الألفاظ كل ماتدعو الحاجة إليه .

وفي العامية قدر غير قليل يرجع إلى أصل فصيح ، وفي وسع العالم أن يفيد منه لوضع مصطلحه ، وبذا يرد إلى الفصحى ما أخذ عنها . فان لم تسد العامية ولا الفصحى حاجته ، فله أن يلجأ إلى التعريب . وقد عرب العرب قديماً فأخذوا عن اليونانية والهندية ، والسريانية والعبرية ، والفارسية والتركية . وعرب المحدثون عن الاسبانية والإيطالية ، والإنجليزية والفرنسية . غير أنه يجدر بنا أن نقف بالتعريب عند أضيق الحدود الممكنة ، فيعرب خاصة مايدل على أسماء الأعيان وأعلام الجنس كأكسيجين وهدروجين ، أو مايدل على تصنيف عام من أجناس وأنواع في النبات والحيوان[1] ، أو على سلسلة مواد متشابهة في الكيمياء ، أو ماينسب إلى علم من اسم شخص أو اسم مكان . أما ماوراء ذلك من الألفاظ المأخوذة من اللغة الدارجة فالأولى به أن يترجم . ويحتفظ في التعريب بالأصل مع تقريبه من النطق العربي ما أمكن ، ويحسن أن يضبط المصطلح المعرّب تيسيراً لنطقه ، إلى أن يدخل صلب اللغة ويصبح جزءاً منها .

(١) لقد أوضح الأمير مصطفى الشهابي « مدى التعريب في ألفاظ تصنيف المواليد » في بحثه الذي ألقاه بمجمع القاهرة ونشره في مجموعة البحوث والمحاضرات لدورة مؤتمر المجمع السادسة والعشرين ص ١٣١ ثم ص ١٤٣ . ونشر أيضاً في المجلد ٣٥ من هذه المجلة . (لجنة المجلة)

وقيمة المصطلح في انتشاره والأخذ به ، وبذا يصبح جزءاً من اللغة العلمية . أما أن يختلف من باحث إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر ، فإنه يبقى عملة غير متداولة ، ولا يجدي في تعاون العلماء وتفاهمهم ، وكم من مصطلحات ولدت ، ثم لم تلبث أن ماتت . وتوحيد المصطلح العلمي ليس مما يلزم به قانون ، أو تفرضه سلطة قاهرة . وسبيله الطبيعي إنما هو الكتابة والتأليف ، ونشر المصطلحات لكي تذاع وتعرف . وينبغي أن يلتقي العلماء من حين لآخر في مؤتمرات منظمة ، أو في لجان أو مجالس ليتبادلوا الرأي في لغتهم ، ويتداركوا مافيها من قصور أو خلل .

ولقد كان لليونان لغة علمية مسلّمة ، ومن بعدهم الرومان ، وبقيت اللاتينية لغة العلم وحدهـا في أوربا طوال القرون الوسطى . وأشرنا من قبل إلى أنه كانت هناك لغة موحدة للعلم في العالم العربي شرقاً وغرباً . ويوم أن اضطربت الألسن في أوربا ، وأحس ليبنتز في القرن السابع عشر بانكماش اللاتينية ، شاء أن يحل محلها لغة علمية عالمية ، وأساسها حصر الأفكار الإنسانية ووضع رمز لكل واحدة منهـا . وإذا كان لم ينجح في محاولته ، فإنه وجه النظر إلى اللغة العالمية التي لاتزال مطمح كثيرين . وفي وسع العربية على كل حال أن تكون اليوم ، كما كوّنت بالأمس ، لغة علمية مشتركة بين أبناء العرب على السواء ، مهما تباعدت أوطـانهم وتنوعت لهجاتهم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

ولغة العلم وثيقة الصلة بلغة الأدب ، تتعاونان وتتفاعلان ، ولا تكاد توجد نهضة أدبية إلا وتصاحبها نهضة علمية ، وكم من علماء وفلاسفة هم في الوقت نفسه أدباء . ويوم أن ازدهر العلم اليوناني ، ازدهر معه الأدب ، ووجدنا

في أثينا إبان القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد حركة علمية وأدبية زاهرة ، وأفلاطون بين اليونان رمز للأدب الرفيع وصاحب الأكاديمية . وفي القرن التاسع والعاشر الميلادي ، اقترنت في بغداد النهضة الأدبية بالنهضة العلمية ، ورأينا أئمة في العلم والأدب معاً ، مثال النظام والجاحظ . وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وصل الأدب الفرنسي الى قمته ، واتسعت آفاق البحث والدراسة العلمية ، وبسكال مثلا رياضي وأديب في آن واحد . وأدب اليوم ذو طابع علمي واضح ، ويحرص العلم بدوره على أن يعرض في ثوب أدبي قشيب ، ويكفي أن نشير الى برجسون شيخ الفلسفة الفرنسية المعاصرة الذي يعد بين كبار الأدباء .

وفي العالم العربي نهضة أدبية وعلمية لا شك فيها ، وقد بدأت تؤتي أكلها . وسيؤدي العلم فيها رسالته ، ويساهم في كشف المجهول إلى جانب الجهود التي تبذل شرقاً وغرباً . وعلينا أن نوفر له كل وسائله ، وفي مقدمتها لغة دقيقة واضحة حية متحركة .

الدكتور ابراهيم مدكور

لم ينصفوا صاحب الأغاني

أهدى اليّ من سنين السيد « بلاشير » الأستاذ في كلية « باريز » كتابه : تاريخ الأدب العربي ، ولم أتمكن من تصفح هذا التاريخ الا" في الصيف الماضي . ليس غرضي في هذا المقام الكلام على كتاب الأستاذ « بلاشير » وانما كنت أطرح فيه بصري من هنا ومن هنا فوقعت عرضاً على فصل يتعلق بكتاب الأغاني لصاحبه أبي الفرج الأصبهاني . لا يتسع المجال لتلخيص هذا الفصل بحذافيره ، وحسبنا أن نعرف ان « بلاشير » يرى أن كتاب الأغاني قد غطّى على كل ما تقدّمه من تراجم الشعراء ، فهو في نظره من الطراز الأول تكلّم المؤلف على شخصية صاحب الأغاني المزدوجة فقال في جملة ما قال : انه ينتخب موادّه انتخاباً حتّى لا يُدخل التعب على القارىء ، انه ينتخل هذه المواد فيصطفي منها ما يُثير التطلع في ذهن القارىء ، فقد يحذف من بعض منتخباته الشعرية فلا يذكر قصيدة بأجمعها ، وما هذا إلاّ لرغبته في الإيجاز من جهة وفي تقديم الأفضل من جهة ثانية ، فلم يكن أبو الفرج صاحب ذوق ليس غير ، وانما كان عمله عمل الرجل العالم لا عمل الرجل المسلّي .

كل هذا لا نخالف فيه الأستاذ « بلاشير » ، على أننا نشكر له كلّ الشكر فضله في التنويه بكتاب الأغاني الذي نُنزله منا بمنزلة كتبنا الادبية الفريدة ، فقد يكون أضخم ميراث في أدبنا ، وانما الذي أدهشنا في قول « بلاشير » في خلال كلامه على كتاب الأغاني أن أبا الفرج الأصبهاني لا أسلوب له في

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا الكتاب لأنه جمعه جمعاً ، أدهشنا قوله : لقد تكلّموا أحياناً على أسلوب أبي الفرج ، وهذا من باب الهزل ... فالأستاذ « بلاشير » يعتقد أن الذين يرون لأبي الفرج الأصبهاني أسلوباً في كتاب الأغاني إنما هم يهزلون ولا يجدّون ، لأن كلّ ما عمله أبو الفرج في كتابه الضخم إنما هو في رأيه جمع روايات مختلفة ، ثم المطابقة بينها وقد تكون له أشباه لمحات في أضعاف ما يوجزه من الكلام ، نتيجة هذا كله أن الأصبهاني ليس له أسلوب في كتابه العظيم ، هذا هو الموضوع الذي يعنينا أمره .

انّ لفظة الأسلوب في الأدب الفرنسي مشتقة من لفظة لاتينية معناها ريشة من معدن كان المتقدمون يستخدمونها في النقش على ألواح من خشب مشمّعة ، أمّا الأسلوب في مصطلح الأدب في عصرنا هذا فانه يطلق على مذهب الرجل في الإفصاح عن أفكاره وعواطفه بالكلام ، ولا حاجة بنا إلى التبسط في وصف الأسلوب والخوض في محاسنه وعيوبه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أصحيح أن أبا الفرج الأصبهاني ليس له مذهب خاص في كتابه الأغاني يعبّر به عمّا يزدحم في صدره من الأفكار ويختلج في قلبه من العواطف ؟

لقد ظلموا أبا الفرج الأصبهاني في القديم فقال فيه النوبختيّ إنه أكذب الناس لأنه كان يدخل سوق الورّاقين وهي عامرة ، والدكاكين مملوءة بالكتب فيشتري شيئاً كثيراً من الصحف ويحملها إلى بيته ثم تكون رواياته كلها منه .

وما كانوا أهون ظلماً له في الحديث لمّا قالوا إن من باب الهزل أن يكون له أسلوب في كتاب الأغاني .

لقد غرّنا ما قاله أبو الفرج في صدر مقدمته : هذا كتاب ألّفه علي ابن الحسين بن محمد القرشي الكاتب المعروف بالأصبهاني وجمع فيه ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية ، قديمها وحديثها ... غرّنا هذا الجمع فمال بنا الى الاعتقاد أن كتاب الأغاني كلّه جمع ، فليس لصاحبه فيه إلاّ جمع

الروايات المختلفة والمطابقة بينها ، أو ليس له فيه إلا بعض لمحات في أثناء كلامه الوجيز ، فصاحبه لا أسلوب له .

أمّا الذين ظلموه في القديم فنسبوه الى الكذب بعد أن سلخ خمسين سنةً في تأليف كتابه الفريد فأرجو أن أكون قد أرشدني الله تعالى إلى تخطئة رأيهم بتوضيح صدقه وشدّة توقّيه في كتابي « دراسة الأغاني » ، فلا أرى بي حاجة إلى إعادة ما قلته في هذا الباب .

وأمّا الذين يرون ان كتاب الأغاني انما هو جمع وأن صاحبه لا أسلوب له فيه فإني أحاول أن أبيّن في هذا المقام أن الذين يرون لأبي الفرج أسلوباً في كتابه انما هم يجدّون ولا يهزلون .

يلزمنا قبل كل شيء أن نعرف كيف ألّف أبو الفرج الأصبهاني كتابه الأغاني . إنّا نمرّ في تضاعيف كتابه بطوائف كثيرة من العبارات تدلّنا على هذا التأليف ، فقد يقول : أخبرني فلان وروى فلان وحدثني فلان ، وقد يقول : نسخت من بعض الكتب أو جمعت منها ...

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فإذا قال : نسخت من كتاب كذا أو جمعت من كتاب كذا فلا يبقى لنا مجال في الشكّ في طريقة التأليف ، ولا يبقى لنا مجال في المجادلة في هذا الباب .

وإنما مجالنا يتّسع إذا قال : أخبرني فلان أو روى فلان أو حدّثني فلان ، فإنّا كثيراً مانجد بعد هذه الأخبار والروايات والأحاديث العبارات الآتية : كذا أكبر حفظي ، ان فلاناً حدّثني به فإني كتبته عن حفظي . . . أو قوله : هذا حفظته عن فلان وأنا حديث السنّ ، فكتبته من حفظي ، واللفظ يزيد وينقص ، وهذا معناه ... أو قوله : وقد سمعت خبره من جهات عدّة ، إلاّ أنه لم يحضرني وقت كتبت هذا الخبر غيره ، وهو وإن لم يكن من أقواها على مذهب أهل الحديث

اسناداً فهو من أتمها ... أو قوله : فإن الحكاية تزيد أو تنقص ... أو قوله : وقد جمعت أخبارهم على اختلاف ألفاظهم ... أو فجمعت معاني ماذكروه في ذلك كراهة الإطالة ... أو : فجمعت من رواياتهم مااحتيج إلى ذكره ، مختصر اللفظ ، كامل المعنى ...

هذه نماذج مختلفة من طريقة أخباره ورواياته وأحاديثه ، على أي شيء تدلنا هذه النماذج ، أفلا تدلنا دلالة قاطعة على أن صاحبها قد تصرّف في مواطن من أخباره ورواياته وأحاديثه بعض التصرف في الألفاظ وانصرف إلى المعاني وحدها ؟ فإذا كان قد اهتم في معظم ما سمعه بالمعاني وحدها وقلّ اهتمامه بألفاظها أفلا نستطيع أن نستخرج من ذلك أنه عبّر عن هذه المعاني بألفاظه ، أي أنه لجأ في الإفصاح عنها إلى طريقته الخاصة ، إلى أسلوبه ، فكيف يجوز لنا بعد ذلك أن نجرّده من الأسلوب في كتاب الأغاني ؟ كيف يجوز لنا أن نقطع أنه جمع كل كتابه جمعاً أو نسخه نسخاً دون أن يكون له باع طويل أو قصير في التعبير عمّا اتصل بسمعه من الأخبار والروايات والأحاديث ؟

كثيراً مانسمع في حياتنا خبراً من الأخبار أو حديثاً من الأحاديث أو رواية من الروايات ، ثم نحاول أن ننقل إلى مجالسنا ما اتصل بنا سمعه منها ، أفلا نلحظ أنّا في نقل ماسمعناه قد نزيد في الألفاظ أو قد ننقص منها ، أفلا نلحظ أنّا نروي المسموعات بمذهب خاص يختلف كل الاختلاف عن المذهب الذي رويت لنا به ، أفلا نلحظ أن كلّ واحد منّا يروي ماسمعه بأسلوبه الخاص ، مهتماً بالمعاني وحدها ، بروحها ، دون الانصراف إلى ألفاظها ، لأن هذه الألفاظ قد ينساها الذهن في بعض الأوقات ، فيستعين على المعاني بألفاظ من أشكالها وأنواعها ، وهذا ما أشار إليه أبو الفرج في بعض أماكن من كلامه لمّا قال : فكتبته من حفظي ، واللفظ

يزيد أو ينقص ، وهذا معناه ، فأبو الفرج الأصبهاني في قوله هـذا مثله كمثل بعض الناس الذين يعيدون ماسمعوه من الأخبار والروايات والأحاديث بألفاظها ذاتها ، فلا مندوحة لهم عن التصرف في هذه الألفاظ إمّا ببعض الزيادة وإمّا ببعض النقصان ، فالأخبار والروايات والاحاديث في كتاب الأغاني معظمها شفهيّ وقد اعترف « بلاشير » نفسه بهذا الأمر ، ولا شك في أن الروايات الشفهية إذا انتقلت من شخص إلى شخص فلا بدّ فيها من بعض الزيادة أو النقصان ، لابدّ فيهـا في هذا الانتقال من أسلوب خاص ، ان صاحب كتاب الأغاني لم يجمع كتابه كلّه جمعاً ولا نسخه كلّه نسخاً ، وإنما كان يخلو إلى نفسه بعد أن تتصل بسمعه الأخبار والروايات والأحاديث فينشىء ما سمعه من هذا القبيل بأسلوب خاص ، لو كان كتاب الأغاني كلّه جمعاً أو كلّه نسخاً لما احتاج صاحبه على ما نظن الى سلخ خمسين سنة في تأليفه . اني أعتقد بعد هذا كله أن الذين جرّدوا أبا الفرج من الأسلوب لم يتعمقوا كل التعمق في كتاب الأغاني ، وانما اكتفوا بظاهر الكلام دون باطنه ، اكتفوا بقول صاحبه : أخبرني فلان أو روى لي فلان أو حدّثني فلان دون التفكير في الكشف عمّا وراء هذا الخبر أو هذه الرواية أو هذا الحديث من صيغة خاصة بأبي الفرج الأصبهاني ، من أسلوب ممتزج بلحمه ودمه وروحه . وما أظن بي حاجة الى التوسع في هذا الباب ، ما أظن بي حاجة الى زيادة الإيمان بأسلوب أبي الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني . وأرجو أن لا يكون في هذا الإيمان شيء من الهزل ، أرجو أن يكون فيه جدّ كلّ الجدّ .

بقي عليّ بعد كل ما تقدّم أن أدلّ على خصائص يسيرة من هذا الأسلوب . لو لم يكن لأبي الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني إلاّ المقدمة لكان لنا في هذه المقدمة وحدها دليل واضح على أسلوبه ، فانّ فيهـا

خصائص كثيرة من تنسيق الألفاظ ومن التعبير عن الأفكار من وراء هذا التنسيق ؛ ولكني لن ألجأ الى المقدمة في المجيء بالبرهان على أسلوب أبي الفرج فان لي في كتاب الأغاني الضخم مجالاً ذا سعة في الدلالة على هذا الأسلوب ، من هذا النحو مثلاً دفاعه البليغ عن ابن المعتز ، ولولا اني وضّحت في كتابي « دراسة الأغاني » خصائص صاحبه في فنه ولغته لأفضت في هذا المقام في اليسير من هذه الخصائص ، على أني إذا أعفيت نفسي في مقالي الوجيز من تكرار ما قلته في الكتاب المذكور فلا أعفيها من إعادة ما اختتمت به هذا الكتاب ، فقد قلت :

اذا خلد كاتب لفطنته الى روح الألفاظ وأسرارها ، وإصابته هذه الألفاظ في قوالبها ، ولخفّة لغته على القلوب والأفهام ، ولإرسال قلمه على سجيته وطبعه دون شيء من التصنع ، واصفاً ما يذكره من الأشخاص والأشياء بحقائق الصفات ، وازناً كل صفة من هذه الصفات بموازينها دون شطط ولا سرف ، اذا خلد كاتب لهذه الخصائص كلها فأبو الفرج الأصبهاني على رأس الخالدين .

شفيق جبري

اختلاف المبرد مع سيبويه

لم يستهل القرن الثالث حتى كان كتاب سيبويه موضوع درس وبحث ، ومحل نقد وتمحيص ، بما تلاحق عليه طيلة القرن الثاني من عناية علماء العربية : البصريين والكوفيين ، على السواء . ففي حين اتخذه البصريون اماماً لهم وحجة ، يتعصبون له ، وينصرونه ، ويستدلون لقواعده ، ويفصلون علله ، فعل الأخفش الأوسط والجرمي والمازني ،[١] كان الكوفيون محتفلين بالكتاب ، يدرسونه ، ويستكشفون مذاهبه ، ويقلبون مناحي أدلته ، ليتبينوا — في تعصبهم عليه — ما اختلف فيه طريقه عن طريقهم : صوغاً للقواعد ، وتحريراً للأدلة ، حتى يمهدوا بذلك مسلك الانتصار لمذهبهم بالرد على سيبويه ، ومعارضته ، فعل الكسائي والفراء وثعلب[٢] . فتكونت لكتاب سيبويه ، من صنيع هؤلاء وهؤلاء ، هالة من التعاليق والشروح والبحوث والردود ، كانت ثروة للدارسين ، ومادة للمصنفين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعلى تكامل هذه الثروة ، وتوافر تلك المادة ، نشأ أبو العباس المبرد ، أوائل القرن الثالث بالبصرة ، ثم دخل الى بغداد . فكانت نشأته بالبصرة على كتاب سيبويه ، وصلته بالبصريين أنصار سيبويه ورواة كتابه : من الزيادي والرياشي[٣] واضرابهما ، ثم رحلته الى بغداد ، وصلته بالبصريين من رواة كتاب سيبويه أيضاً ودارسيه ، مثل الجرمي والمازني ، وبالكوفيين

(١) كتاب أخبار النحويين للسيرافي ص ٥٠ و ٧٢ و ١٠١ ط كرنكو .

(٢) ص ٥١ سيرافي وبغية الوعاة (ترجمة الفراء يحيى) والتعريف بكتاب سيبويه في نسخة الرباحي ص XXIV ٢٤ الطبعة الباريسية .

(٣) ص ١٩ وما بعدها سيرافي .

المتتبعين لأخطائه المتعصبين عليه ، مثل ثعلب[١] ، قد مكنت له أسباب الإحاطة بما كان حول « الكتاب » من تعاليق مفصلة ، من كلام المادحين والقادحين .

فكان المبرد ، من جهة ، عظيم الإكبار لسيبويه وكتابه ، تام القيام عليه ، حريصاً على روايته وضبطه ، وكان ، من جهة أخرى ، مدركاً مآخذ فيه ومغامز ، بدا بعضها من ردود كوفية لم يجد لها مدافع ، مثل ردود الفراء ، وبعضها من نقود بصرية وجد من نفسه اقتناعاً باتجاهها ، مثل نكت كانت للزيادي[٢] ، ومخالفات المازني ، أو للجرمي ، أو للأخفش نفسه ، وهو راوي الكتاب ومبلغه للأجيال[٣] ، وفيه يقول الكسائي مستخفاً بالبصريين : إن الأخفش نبههم على عوار الكتاب وتركهم[٤] . من هذا يتبين أن ما كان مجتمعاً في نفس المبرد : من اكبار لكتاب سيبويه ، واقتناع بنقود ومخالفات معلقة عليه ، من شأنه أن يجعله شديد الاحتفال بتلك النقود ، عظيم الحرص على تتبعها ، وعلى استنباط نقود مثلها ، ليقينه بأن ادراك غور سيبويه ، والتمكن من الانتقاد عليه أمر لا يتاح الا لعظيم .

بهذا برز أبو العباس المبرد بين علماء العربية في بغداد ، فكان بصرياً متعصباً للبصريين ، معدوداً عليهم ، خصماً للكوفيين ، مبغوضاً منهم ، يتمثل النزاع المستحكم بين البصريين والكوفيين في ما بينه وبين أبي العباس ثعلب من تنافس وشنآن[٥] .

---

(١) ١٠٢ سيرافي .

(٢) ٨٨ سيرافي .

(٣) يوجد كثير من هذه المخالفات في كتاب الإنصاف لابن الأنباري وفي الطرر التي على النسخ القديمة من كتاب سيبويه ، مثل النسخة الزيتونية التي يأتي الكلام عليها .

(٤) مراتب النحويين لأبي الطيب ط ابو الفضل .

(٥) ١٠٢ سيرافي .

على أنه كان ينتهج نهج الزيادي والرياشي والجرمي والمازني ، في الانفراد عن جمهور البصريين بمقالات في مسائل ، لم تكن لتخرجه عن بصريته ، ولا لترفع ما بينه وبين الكوفيين من إحن ، كما لم يخرج أبو يوسف ولا ابن القاسم ولا المزني عن كونه حنفياً أو مالكياً أو شافعياً لمقالات خالف فيها جمهور أهل مذهبه .

فالمنهج النحوي الذي تكون في بغداد ، في القرن الثالث ، هو منهج لم يمتزج فيه المذهبان : الكوفي والبصري ، ولا تكوّن منه مذهب جديد مستقل ، بل لم يكن إلا اتصالاً وتلاقياً بين الواجهتين : الكوفية والبصرية ، عرف به أهل كل من المذهبين مقالات المذهب الآخر بصورة أتم وأوضح ، واقترن ذلك بانفراد رجال من الكوفيين أو من البصريين بمقالات خالفوا بها أئمة مصرهم ، ووافقت أقوالاً لأئمة المصر الآخر ، بدون أن تخرج واحداً منهم عن عصبية مصره ، وتلحقه بالعصبية الأخرى ، وإننا لنجد برهان ذلك جلياً في مسائل الخلاف التي أوردها أبو البركات الأنباري في كتابه « الإنصاف » حيث يذكر مذهب الكوفيين ويقول : ووافقهم المازني أو المبرد من البصريين ، ويذكر البصريين ويقول : ووافقهم الفراء أو ثعلب من الكوفيين .

كذلك كان وضع علم النحو في بغداد في القرن الثالث : مذهبان يتناظران ويتجادلان وينفرد عن كل من المذهبين أحد أتباعه في مسائل بدون أن يخرج عن أصول مذهبه . وكذلك نرى أن أثر هذا في القرن الرابع ، الموالي ، يؤيد ما يذهب اليه صديقنا العزيز الدكتور مازن المبارك (١) من أن علماء بغداد بسطوا المذهبين ، واختاروا منهما ، وأنه إذا كان لبعض هؤلاء العلماء أقوال تفردوا بها من دون المذهبين ، فإن ذلك لا يعني قيام مذهب

---

(١) ص ٣٤ كتاب الرماني النحوي ط الجامعة دمشق .

جديد ، ولا يعني نشوء مدرسة بغدادية . وإذا كنا نذهب مع الدكتور الصديق مذهبه في عدم اندماج المدرستين البصرية والكوفية ، حتى في القرن الرابع ، قرن ابن كيسان ومن بعده ممن قال فيهم السيرافي انهم يخلطون المذهبين ، فإن القول الثالث ، الذي هو موضوعنا ، أجدر بذلك المعنى من القرن الذي والاه ، ما دامت العصبيتان : البصرية والكوفية ، جليتين في مثل المبرد وثعلب ، وان خالف كل منهما مقالات للبصريين أو للكوفيين . وعلى ذلك نتصور أن أبا العباس المبرد قد كان ، في نظر طلاب العربية وعلمائها في بغداد ، بصرياً ، له على مذهب أسلافه ، وعلى كتاب إمامهم : سيبويه انتقادات ومآخذ لا تخرجه عن كونه بصريا ، ولا تبعد به عن أن يكون كتاب سيبويه عنده هو « الكتاب » كما هو عند البصريين جميعهم ، أو هو « البحر » كما كان يقول ابو العباس لمن يريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه[١] .

كان أبو العباس يتيه بكتاب سيبويه ، وبضبطه له ، وقيامه عليه . قرأه على الجرمي والمازني[٢] وقرأه المازني على الأخفش وهو الذي رواه عن سيبويه[٣] .

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

وكان المبرد قد كتب الكتاب بخط يده وضبطه[٤] فكان يعتز بذلك الأصل الذي كتبه ولا يمكن منه أحدا ، ويضن به ضنة شديدة . وان جميع النسخ المعتمدة ، المنسوبة ، التي تعرف اليوم من كتاب سيبويه ، راجعة الى نسخة المبرد (في الزيتونة وباريس والاسكوريال والروسيا) .

ومن شديد اعتنائه بكتاب سيبويه : أنه خدمه بكتب كثيرة ، ذكرها ياقوت في المعجم ، منها : المدخل لكتاب سيبويه ، ومنها شرح شواهده ،

---

(١) سيرافي ص ٥٠ .
(٢) ١٠١ سيرافي وارشاد الأريب لياقوت (ترجمة محمد بن يزيد المبرد) .
(٣) ٥٠ سيرافي .
(٤) ياقوت ومقدمة الطبعة البارسية XXVI,V .

ومنها كتاب الزيادة المنتزعة من كتاب سيبويه ، ومنها معنى كتاب سيبويه ، مما يوجب أن يكون معدوداً في شراح الكتاب في القرن الثالث ، ويقتضي ادماجه في الجريدة التي رتبها الدكتور مازن المبارك[1] بعد المازني وقبل الأخفش الأصغر .

وإلى ذلك كله كان المبرد مشهوراً بالاختلاف عن سيبويه : في مسائل كثيرة ، قرعت لها الظنابيب منذ القرن الثالث . فالسيرافي ، في شرحه على كتاب سيبويه ، ذكر مسائل عديدة ، خالف فيها المبرد سيبويه وخطأه تخطئة : منها قوله أن علامات الاضمار كلها مبهمة ، خلافاً لسيبويه إذ قسم الأسماء المضمرة إلى مبهمة وغير مبهمة (ص ٢٥٦ ج ١ هامش الكتاب ط بولاق) ومنها تخطئته سيبويه في اعراب « خزا » حالا من « هذه جبتك خزا » وقوله إنما هو تمييز (٢٧٤ ، ١) ومنها اختياره النصب في مثل « يا زيد والرجل » خلافاً لاختيار سيبويه - تبعاً للخليل - الرفع (٣٠٥ ج ١) ومنها جعله « سراويل » جمعاً خلافاً لسيبويه في اعتباره مفرداً (١٦ ، ٢) ومنها ادعاؤه أن سدوس اسم امرأة و « تغليطه » سيبويه في جعله اسم رجل (٢٦ ، ٢) ومنها « تخطئة » سيبويه في عدل قرقار وعرعار واعتبارهما حكاية صوت (٤٠ ، ٢) ومنها اعتباره التنوين في « جوار » اسم رجل تنوين عوض لا كما اعتبره سيبويه - تبعاً للخليل - تنوين تمكن (٥٧ ، ٢) ومنها قوله ان تصغير ابراهيم واسماعيل : ابيريه واسيميع ورده على سيبويه في القول بتصغيرهما على بريهيم وسميعيل (١٢٠ ، ٢) .

وأبو البركات ابن الأنباري في كتاب « الانصاف » أورد مسائل كثيرة خالف فيها المبرد اجماع البصريين أو قول جمهورهم ، موافقاً الكوفيين[2]

---

(١) الرماني ١٣٤ .

(٢) كتاب الإنصاف لابن الأنباري ط ليدن المسألة ٦٤ .

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

أو متوسطاً بين الطائفتين[١] أو منفرداً بقول دون الطائفتين معاً[٢].

وأبو الفتح ابن جني، في الخصائص[٣] أشار إلى ما كان أبو العباس يتتبع به كلام سيبويه، وسماه «مسائل الغلط» وحدث عن أبي علي الفارسي عن أبي بكر ابن السراج أن المبرد رجع فيه وكان يعتذر عنه.

والمبرد نفسه، في كتاب الكامل - على قلة ما يهتم بمسائل النحو - أورد كلام سيبويه في معرض الرد والتغليط غير مرة: فمن ذلك قوله في تفسير أبيات وردت أثناء أخبار الخوارج: «سيبويه يزعم أن لولا تخفض المضمر ويرتفع بعدها الظاهر بالابتداء .... فيقال له الضمير في موضع ظاهره فكيف يكون مختلفاً .... قال أبو العباس والذي أقوله ان هذا خطأ»[٤].

وفي قول زهير:

وإن أتاه خليل يوم مسغبة يقول لا غائب مالي ولا حرم

قال: «فسيبويه يذهب إلى أنه على التقديم والتأخير وهو عندي على إرادة الفاء»[٥] كما شاع، في كتب النحو المتداولة، ذكر خلاف المبرد لسيبويه بموافقة الكوفيين أحياناً: كما في مسألة تقديم خبر ليس[٦] أو خلافاً للجميع: كما في مسألة بدل الغلط[٧].

---

(١) المسألة ٣٧.
(٢) المسألة ٢٤
(٣) ص ٢١٣ ج ١ ط الهلال.
(٤) الكامل ج ١ ص ٢٠٨ ط الخيرية بمصر.
(٥) ص ١٧٨ ج ١.
(٦) الأشموني ج ١ ص ٣٣٩ هامش الصبان ط الوهبية.
(٧) الأشموني ص ٢٠٩ ج ٣.

فإذا بان أن المبرد كثير الخلاف لسيبويه ، شديد الاحتفال بإيراد مخالفاته له في القواعد وفي التخاريج ، وأن شراح الكتاب ، ومصنفي الخلاف ، وعلماء النحو ، أوردوا من ذلك كثيراً ، فهل لهذا الخلاف مادة يغترف منها ، ونصاب يرجع إليه ؟ إن ياقوتاً ، في معجم الأدباء ، عند ترجمة المبرد ، هو الذي يفيدنا أن مادة خاصة بهذا الاختلاف هي المصدر الأصلي لما ينقل المؤلفون منه . وهي كتاب من وضع المبرد سماه « كتاب الرد على سيبويه » ، وإن كان السيرافي لم يذكر هذا الكتاب في ترجمة المبرد ، مع أنه نقل في شرحه لكتاب سيبويه كثيراً من تلك الاختلافات . واطرد ذكر هذا الكتاب ، بعد ياقوت عند الذين ذكروا كتب المبرد

ويتصل خبر هذا الكتاب بأخبار صلة المبرد بابن ولاد .

وذلك ان بيت علم ، في مصر ، كانت سلسلة مجده تنتظم أربعة رجال هم :

ولاد أبو الوليد بن محمد التميمي المتوفى سنة ٢٣٠ }
ابنه ابو الحسين محمد المتوفى سنة ٢٩٨ } ترجم ثلاثتهم في معجم ياقوت وفي بغية الوعاة
ابن الابن أبو العباس احمد المتوفى سنة ٣٠٢ }

ابن الابن أيضاً أبو القاسم ابن ابي الحسين لم نقف على ترجمته ، وورد ذكره في سند رواية كتاب سيبويه عن والده عن المبرد من طريق محمد بن يحيى الرباحي الأندلسي .

فكان ثاني الثلاثة : أبو الحسين محمد ابن ولاد ، رحل من مصر الى العراق وأخذ عن المبرد[1] . وكان المبرد لا يمكن أحداً من نسخ كتاب سيبويه من عنده فكلم ابن ولاد المبرد في نسخه على شيء سماه له ، فأجابه ، فأكمل نسخه ، وأبى أن يعطيه شيئاً حتى يقرأه ، فغضب المبرد ، وسعى به الى بعض خدم السلطان ليعاقبه على ذلك ، فالتجأ ابن ولاد

(١) ياقوت ج ١٩ ص ١٠٦ ط دار المأمون ،قدمة الطبعة البارينية XXVI (٢٦) .

الى صاحب الخراج ببغداد ، وكان يؤدب ولده ، فأجابه ، ثم ألح على المبرد حتى أقرأه الكتاب . »[١]

وبرواية محمد بن ولاد عن المبرد نقل كتاب سيبويه ، من بعد ، في مصر : من طريقَيِ نقل : ١) طريق ابن النحاس عن أبي اسحاق الزجاج عن المبرد ، ٢) طريق أبي القاسم ابن ولاد عن أبيه أبي الحسين عن المبرد ، وجمع الطريقين بالرواية عنهما محمد بن يحيى الرباحي[٢] الذي ترجع اليه روايات الكتاب بالأندلس ، حسب النسخ الأندلسية الأصلية من كتاب سيبويه التي بالزيتونة ، وهي عن نسخة ابن خروف عن أصل الرباحي ، والتي بالاسكوريال ، وهي نسخة حسن بن أحمد بن علي بن يبقى عن نسخة أبي نصر هارون بن موسى المقروءة على الرباحي[٣] .

فيكون الثاني من الأربعة ، محمد بن ولاد ، هو الذي قرأ الكتاب على المبرد وقابله بأصله ، ويكون الرابع ، أبو القاسم ، هو الذي قرىء عليه الكتاب بمصر على نحو ما قرأه هو على أبيه .

ويبقى لنا مع الثالث ، وهو أبو العباس شأن في ما يرجع الى رد المبرد على سيبويه : فقد ذكر الذين ترجموا لأبي العباس أحمد بن ولاد أنه تلميذ أبي اسحق الزجاج ، سافر للطلب عليه في بغداد ونوهوا ببراعته في النحو — على عكس ما غضوا من منزلة أبيه — ولم يذكروا له قراءة ولا رواية[٤] ، فيظهر انه كان بالنظر والدراية أشد اعتناء ، بخلاف أخيه أبي القاسم ، وذكروا له من تآليفه « كتاب الانتصار لسيبويه في ما ذكره المبرد » أو « انتصار سيبويه على المبرد » .

---

(١) ياقوت ومقدمة الطبعة البارِيسية وبينهما اختلاف في تفصيل القصة .

(٢) انظر ترجمته في بغية الوعاة .

(٣) مقدمة الطبعة البارِيسية .

(٤) ياقوت وبغية الوعاة .

ولم نقف على عين ولا أثر للكتابين : كتاب المبرد في الرد على سيبويه ، وكتاب ابن ولاد في الانتصار لسيبويه ، الا في ما ظفرنا من كنز خفي في النسخة الزيتونية من كتاب سيبويه . وهي أصل عظيم من أصول نسخ الكتاب ، فاتت الأستاذ المستشرق درنبرغ الذي نشر كتاب سيبويه ، لذلك نرى أن نقدمها في جملتها قبل أن نذكر محل الحاجة منها لموضوعنا .

هي نسخة أندلسية بديعة الخط ، أصيلة التحقيق والضبط ، مكتوبة بخط عالم من أعيان علماء العربية ، هو ابن الحاج الأزدي الاشبيلي ثم التونسي ، وهو : أحمد بن محمد بن أحمد ابن الحاج ، من أصحاب أبي علي الشاوبين والدباج ، انتقل الى تونس ومات بها سنة ٦٤٧ أو سنة ٦٥١ ترجمه السيوطي في بغية الوعاة ، نقلا عن البلغة للفيروزابادي ، وترجمه ابن رشيد في رحلته ملء العيبة [١] وكان صاحب تصانيف في النحو منها املاء على كتاب سيبويه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهذه النسخة كتبت سنة ٦٢٣ وتمت مقابلتها سنة ٦٢٤ وتمتاز بأمور ـ زيادة على صحتها وضبطها وبديع خطها واتقان مقابلتها ـ : فهي مكتوبة ومقابلة على نسخة أبي الحسن ابن خروف الاشبيلي شارح كتاب سيبويه المتوفى سنة ٦٠٦ [٢] التي كانت لشيخه أبي بكر محمد بن أحمد بن طاهر الخِدَبّ [٣] ثم آلت الى أبي علي الشاوبين ومن عنده نقل عنها صاحبنا ابن الحاج ، وقابل بها .

وقد اهتم ابن الحاج بتلخيص شرح شواهد الكتاب للاعلم [٤] وكتب

(١) مخطوط الأسكوريال .
(٢) البغية .
(٣) البغية .
(٤) طبع بذيل الكتاب ببولاق .

ذلك في مقابلة كل شاهد : على الهوامش وبين السطور وقال في آخرها : « قال ناسخ هذا الكتاب لنفسه أحمد بن الحاج كتبت في حواشي كتابي هذا تأليف أبي الحاج يوسف بن سليمان الشنتمري المشهور بالاعلم على الأبيات ، وهو الذي سماه تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب ، وتحريت في ذلك حذف ما لا يخل حذفه من تفسير لا يضطر اليه ولا يقف تفهم البيت عليه أو كلام في وجه الاستشهاد بالبيت هو باد من كلام سيبويه غير محتاج الى بسط ولا زيادة بيان ، وما عدا ذلك نقلته على حسب ما وجدته في النسخة التى نقلت من أصل المؤلف وقوبلت بحضرته وهي التي أقامها هو لأبي بكر بن زيدون رحمهما الله ، فربما نقلت كلامه نقلاً فأثبت لفظه وربما حذفت التطويل وآثرت الإيجاز فنقلته بلفظي على حسب فهمي ؛ وكل ذلك بحسب ضيق هذه الحواشي في بعض المواضع وبحسب السآمة والنشاط ، فإن وقع الناظر فيها على سهو وغلط فلا ينسبنه لأبي الحجاج رحمة الله عليه حتى يتبين أن ذلك لفظه ويحقق أنه قاله أو ما في معناه ، وعلى الجملة فانما عملته لنفسي وبقصد أن يحضرني مع كتابي هذا والله المسدد سبحانه لا رب غيره .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد ألصقت فوق ظهر الورقة الأولى من هذه النسخة ورقة حديثة : كتب بها وقف الكتاب على حزانة جامع الزيتونة الأعظم من المشير أحمد باشا الحسيني سنة ١٢٥٦ ، وكان والدي - حفظه الله وأبقاه - قد اهتم بقراءة ما يبدو تحت الورقة الملصقة ، فتبين أنها تبتديء بأربعة أسطر فيها حديث أخذ ابن ولاد الكتاب عن المبرد ، على ما مر عن ياقوت وكما هو مثبت في نسخة الاسكوريال .

وأعجب من ذلك كله أن سياق كلام سيبويه ، في العشرين ورقة الأولى من الكتاب ، التي تقابل الثمانية والثمانين صفحة الأولى من الكتاب في طبعة

باريس ، تتخلله تعاليق بالرد والاستظهار وتأويل التخريج معزوة الى شراح الكتاب : الأخفش والمازني والجرمي والمبرد والزجاج ، يعقب بحكاية قول القائل على كلام سيبويه ثم يكتب « رجع » ويعاود كلام سيبويه .

وقد انقطع هذا من الورقة العشرين فأصبح الكلام بعدها خالصاً لكتاب سيبويه مطابقاً لعموم نسخ الكتاب بدون زيادة ، كما هو في الطبعة الباريسية والطبعة البولاقية ، إلا كلمة واحدة هي تفسير وجيز عن أبي الحسن في باب ما ينصرف وما لا ينصرف . فالأظهر أن هذه المدرجات كانت حواشي في بعض الأصول فأدرجت عن قصد بدليل ابتدائها بمثل « قال أبو الحسن » وانتهائها بكلمة « رجع » ؛ ويقرب هذا ما أفاده درنبرغ في مقدمة الطبعة الباريسية : من أن النسخة الغزنوية التي كانت بين يديه ، وهي نسخة سان بطرسبُرغ من البلاد الروسية . تشتمل أحياناً على كلام شراح الكتاب مدرج في الصلب ، وعلى ابتدائه علامة « لا » وعلى انتهائه علامة « الى » وقد أورد درنبرغ نصوص تلك الزيادات في تعليقه على نص الكتاب في الطبعة الباريسية ، فاذا هي التي في النسخة الزيتونية ، مطابقة لبعضها مطابقة تامة ، الا ان زيادات النسخة الغزنوية تستمر ، الفينة بعد الفينة ، الى آخر الكتاب ، ولا تنقطع كما تنقطع زيادات النسخة الزيتونية ، ولعل ذلك راجع الى أن النسخة التي نقلت النسخة الزيتونية عنها كانت مؤلفة من أجزاء كما أفاد ذلك ناسخها ابن الحاج ، عند ذكر المقابلة في آخر النسخة ، فيكون بعض الأجزاء أدرجت فيه الشروح فأدرجها ، والبعض بقيت فيه على الهوامش فتركها لأن هوامش نسخته كانت مشغولة بشرح الشواهد ، وإن كانت النفس لا تطمئن إلى هذا الفرض تمام الاطمئنان .

والأمر الأعظم من كل ما تقدم في شأن هذه النسخة العجيبة أنها مذيلة بتلخيص لردود المبرد على سيبويه ، وانتصار ابن ولاد لسيبويه على المبرد .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهذا التلخيص مكتوب بخط ابن الحاج ناسخ الكتاب ، كتابة دقيقة جدا ، ضيقة ، متراكمة ، ليست كالتي نسخ بها الكتاب ، تملأ فيها الكتابة كامل الورقة ، من الطرف إلى الطرف فلا تبقي لها هوامش أصلا ، وتستغرق على هذا الضيق ، سبع صفحات أي ثلاث ورقات ونصف ورقة تقريباً . يضع في ابتداء الكلام علامة (مـ) ويذكر انتقاد المبرد ، ثم يضع علامة (و) فيذكر رد ابن ولاد ، ويختصر اسم سيبويه في كلام المبرد بعلامة (سـ) .

فكانت جملة ما أورده من المباحث مائة وخمسة عشر مبحثاً ، في كل واحد منها كلام المبرد وكلام ابن ولاد في رده ؛ ويطول الكلام ويقصر باختلاف المسائل ، على أن الأطول باطراد انما هو كلام ابن ولاد . وقد تبرأ الكاتب من عهدة النقل ، فبين في آخر كلامه أنه لم يتحر النقل باللفظ ، ولا التزم الاستيعاب ، اذ ختم تلخيصه بهذه الجملة : « كمل الغرض من تلخيص رد المبرد على سيبويه وانتصار ابن ولاد له كتبه لنفسه وعلى قدر فهمه احمد بن الحاج وفقه الله » . فهو يصرح بأنه تلخيص ، وان ما أورده فيه هو ما تعلق فرضه بايراده ، بحيث ان لغرضه دخلا في الإثبات والحذف ، والنقل والترك ، وانه صاغ العبارات على مقتضى مقام « التلخيص » و « بحسب فهمه » غير منقح للعبارة ، ولا مراع للاحتياط في الايضاح ، أو في التحرير ، لأنه « كتبه لنفسه » .

ولا ندري هل هذا التلخيص ، الذي هو غرضه ، قد كان مشتملا على جميع البحوث وردودها ، بحيث لخص كل بحث باختصار عبارته وتحصيل معناه ، وذلك ما يتبادر من كلمة « التلخيص » أو انه ترك بعض البحوث التي لم يتعلق غرضه بتلخيصها فيصير التلخيص مراداً به معنى الاختصار تقريبا ؟

وأياً ما كان فان الذي أسداه الينا ابن الحاج يعطينا صورة من الكتابين

المفقودين ، كيفما تكون وافية ، فلن تكون كافية ، لأنها إن فُرض أنها لم تترك بحثاً دار بين الكتابين فانها لا محالة لم تورد الكلام بنصوصه التي ورد بها في أصل الكتابين .

على أن الذي لا يتتبع نص كلام سيبويه ، المعلق عليه ، حتى يُرجع كل فقرة إلى المحل المعلقة به ، لا يستطيع أن يبلغ من الفائدة في مطالعة الكلام مبلغاً ذا بال . لذلك أصبح العمل في استخراج هذه النقود والردود عملاً شاقاً ، لصعوبة قراءة النص ، بما في خطه من دقة وخفاء ، وفي مداده من انطماس ، وعلى ما أصابه في مواضع من محو أو بتر ، ثم للزوم العود بكل بحث إلى محله من كلام سيبويه في الكتاب ، أو ما نقل عن المبرد ، في الشروح أو غيرها من الكتب ، ليتبين بذلك من المعنى ما يعين على فك الخط الحائل أو المطموس ، وذلك ما أنا بصدد معاناته ، الآن ، حتى أتوصل بحول الله ، إلى تحقيق نسخة من هذا التلخيص ونشرها .

ولذلك يلوح باديء ذي بدء أن ردود المبرد غير مستوفاة ، بدليل أن كل رد من ردوده معقب برد ابن ولاد عليه ، حتى أن الملخص ، ابن الحاج ، لما ذكر اعتراض المبرد على سيبويه ادخال حذف تاء التأنيث في مبحث الترخيم لأنه كله نكرة قال : « وفساد قوله هذا واضح لا يحتاج فيه إلى ما ذكره ابن ولاد » ولما أورد اعتراض المبرد على سيبويه في استشهاده على أن « يهود » مؤنث ولذلك منع من الصرف ، قال عقبه : « ولم يردَّ عليه وَ (ابن ولاد) بأكثر من أن بين أنه لا أثر للعلة الثالثة وقد استقلت الاثنتان » . والأقرب ان ابن ولاد لم يتناول جميع الردود ، وانما أخذ ما وجد له مدفعاً منها ، أو وجد فيه مساغاً لنكتة ، كقوله مرة بعد الزام

المبرد سيبويه في لبيك أن يقال لباك لأنه قرنها بسلام عليك (١) : « لا يليق مثل هذا بمنصب أبي العباس » .

والذي يؤيد هـذا الاستظهار أن كثيراً من النقود التي هي تخطئة صريحة لسيبويه ، ورد منقولاً في بعض شروح الكتاب ، أو كتاب الكامل للمبرد ، أو كتب أخرى ، ومع ذلك فإنه لا يوجد في التلخيص الذي بين أيدينا ، من ذلك ما نقل في تفسير القرطبي (٢) عن ابن النحاس من اعتراض المبرد على قول سيبويه في قوله تعالى « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » أنه بمعنى تسلماً منكم لا خير ولا شر بيننا وبينكم : « أخطأ سيبويه في هذا وأساء العبارة » .

هذا مع أن المفروض أن المبرد لما انتصب بضـع كتاباً في الرد على سيبويه قد استقصى كل ما له من خلاف وتخطئة ، وتتبع كتاب سيبويه تتبع استيفاء ، وهو الذي كان تم القيام عليه فلا يصح أن يكون المبرد اعتراض على سيبويه ذكره هو بنفسه في الكامل ، أو نقل عنه في الكتب ، غير مدرج في كتابه المصنف لجمع تلك الردود .

فالذي نستخلصه من هذا هو ان الذي كان بين يدي ابن الحاج يلخص منه ، انما هو كتاب ابن ولاد ، ولم يكن لديه كتاب المبرد ، فلم يكن ينظر إلا إلى ما أورده ابن ولاد في معرض رد الرد ، وانه كان ينقل كل مبحث نقلا بالمعنى لا باللفظ ، يلخص ما فيه من النقد والدفع بحسب ما يبدو له من أهمية ، وبحسب ما يكون له بالموضوع من اعتناء ، كما قال هو بنفسه في تلخيص شرح الشواهد « بحسب السآمة والنشاط » فالذي يكون عندنا ،

(١) ص ١٤٧ ج ١ باريسية .
(٢) ج ١٣ ص ٧٠ دار الكتب .

حينئذ ، من كتاب المبرد هو تلخيص من تلخيص واختصار ، والذي عندنا من كتاب ابن ولاد : هو تلخيص مباشر بدون اختصار .

وهذا يفيدنا ، على كل حال ، نوع المسائل التي دار البحث حولها ، حتى ننتهي من ذلك الى تصور موقف المبرد مع سيبويه : هل كان موقف اختلاف في المذهب والأصول ، أو موقف اختلاف في البحث والتخريج ؟

فاذا صنفنا المائة وخمسة عشر مبحثاً التي اشتمل عليها الكتاب ، نجد منها أربعة وثلاثين مبحثاً متعلقاً بالقدح في الأمثلة والشواهد أو ابداء أوجه في تخريجها غير الذي خرج عليه سيبويه .

وتسعة وثلاثين مبحثاً متعلقاً بالتوجيه والتعليل والاحتجاج وما يلزم أدلة سيبويه من لوازم غير صحيحة .

وخمسة عشر مبحثاً متعلقاً بانتقاد التعبير أو فساد الترتيب أو تناقض الكلام وثمانية مباحث تتعلق بالقدح في قياس أو فساد تنظير .

وأربعة مباحث تتعلق بالمخالفة في اختيار وجه من وجهين أو وجوه جائزة .

وخمسة عشر مبحثاً تتعلق بالأحكام النحوية بما يشمل الخلاف في الجواز والمنع ، والخلاف في اثبات لغة وإنكارها ، والخلاف في العرف والمنع .

وهذا يوضح لنا أن نسبة الخلاف في الأحكام النحوية من جملة ما ذكر لنا من خلاف المبرد مع سيبويه ، نسبة ضئيلة جداً ، لأنها خمسة عشر في مقابلة مائة ، زيادة على أن منها التافه الجزئي الذي لايكاد يؤبه للخلاف فيه ، ومنها ماكان اختلاف المبرد مع سيبويه فيه تبعاً لاختلاف غيره ، من قبل ، من أئمة البصريين مع سيبويه ، مثل الصور التي يرجع فيها المبرد ماقاله الأخفش أو الجرمي أو المازني .

وهذا ينتهي بنا إلى نتيجة موضوعية وهي أن أكثر مخالفات أبي العباس

المبرد لسيبويه إنما هي من باب الأبحاث الجدلية ، والمراجعات ، والتحقيقات التفصيلية الجزئية ، التي يسلكها مقتدٍ مع مقتدى به ، وليست من المخالفات الأصلية ، والمناظرات المذهبية ، التي يسلكها ذو مذهب مع ذي مذهب مباين له . فلا يصح أن يقال في المبرد : إنه ذو مذهب نحوي ، وإنما هو أحد أعلام البصرة ، القائمين بدراسة المذهب وبحثه ، وتحقيق كتابه الذي هو كتاب سيبويه . ولم يفتح المبرد بذلك طريقاً جديداً في النحو البصري لأنه درج على مسالك مشى فيه من قبله المتقدمون من أتباع سيبويه وشراح كتابه .

محمد الفاضل ابن عاشور

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أبو الطيب يعثر على موضوعه

كل كاتب ممتاز أو شاعر أو قصصي ، بل كل فنان أياً كان فنه لا يستطيع أن يبدع إلا إذا كان ينطلق في إنتاجه عما نسميه (الإلهام) . قد يكون كل من هؤلاء مالكاً ناصية صناعته متحكماً في أدواتها ـ سواء أكانت أدواته لفظية أو لونية أو تصويرية ـ . وقد يستطيع أن يبلغ ذروة البراعة في صناعته ، ولكن الإبداع مرتبة أعلى من ذلك علواً كبيرا . إنه لا يستطيع أن يبلغ مرتبة الإبداع إلا إذا كان إنتاجه نابضاً بالحياة والصدق وكان موحياً مشعاً بالمشاعر القوية . إنه يكون في هذه الحالة جامعاً بين التحكم في أساليب الصناعة وشحن إنتاجه بالقوة الحيوية التي تحمل الى الناس حرارة نفسه وقوة شعوره فيجعلهم يشاركونه في شعوره العميق . وهذا هو السر في اننا نصطدم في بعض الأحيان ـ أو في كثير من الاحيان ـ بإنتاج تافه لأديب مشهور معروف بالإبداع . فالأديب أو الفنان قد يكون صادراً في بعض حالاته عن إلهام قوي غامر ، وقد يكون في حالات أخرى صادراً عن تكلف وتعمد . قد نجد الشاعر في بعض حالاته مليئاً بالمعنى متدفقاً في البيان تدفقاً طبيعياً مشبعاً بالحرارة موحياً بالحياة والجمال ؛ وقد نجده في حالات أخرى باهتاً لا نكاد نعرفه . وفحول شعرائنا العرب من الأمثلة الدالة على ذلك ، فهم يختلفون في الإجادة اختلافاً كبيراً بين الإبداع الذي يبلغ بهم الذروة ، وبين الهبوط والجمود والآلية التي قد تنزل بهم الى مستوى (السخف) . ومن أمثلة هؤلاء الفحول من اعتدنا ان نحلهم بأعلى مراتب الإبداع مثل أبي تمام والبحتري والمتنبي ، فكل منهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يسمو حتى يحلق في أعلى الآفاق ، وقد يسف حتى يوقع في النفوس الاشمئزاز والأسف . وليس شعراء العربية هم الوحيدين في ذلك الاختلاف . فالشاعر الانجليزي (شكسبير) الذي اعتبره الانجليز يوماً من الأيام نبي شعرهم وعبقري زمانه ، هبط في بعض إنتاجه حتى بلغ عندهم مبلغ السماجة والجفاف . والقصصي (هنري جيمس) قد وصل إلى ذروة الإبداع في قصصه حتى اعتبره قومه معبود الأدب ، وهبط أحياناً حتى ان النقاد لم يجدوا سبيلاً الى تعليل هبوطه إلا بأن قالوا إنه قد خلا من الإلهام . فما السر في هذا الإلهام الذي يشبه في الأدب سر الحياة عند الأحياء في غموضه وخفائه ؟ فلنقتبس بعض ما قيل في محاولة تفسير ذلك السر الخفي : (١)

« إن كلاً منا يشتمل في نفسه على شيء من الشاعر وشيء من المثال وشيء من الموسيقي ومن المصور والكاتب . ولكن الذي نشتمل عليه من هؤلاء جميعاً قليل جداً بالقياس إلى ماعند الفنانين الموهوبين . فإن هؤلاء الموهوبين يملكون من المقدرات البشرية مايسمو بهم إلى درجات العلا . فليس لنا نحن إلا المقدرات التي يمكن أن نسميها انطباعات أو مشاعر مما لايصل إلى مرتبة (الإدراك الكلي الشامل) أو الإدراك (الذوقي الإلهامي) ، وهي المرتبة التي تجعل الأديب أو الفنان يستوعب الصورة النفسية الشاملة للموضوع الذي يعالجه . وذلك على شرط أن يتوفر له (الموضوع) الذي يجعله يتوفر على استيعاب صورته النفسية الشاملة .

إن المصور إنما هو مصور مبدع لأنه يرى موضوعه فيرى فيه مايحسه الآخرون أو يلمحونه وإن كانوا لايرونه ولا يستوعبون صورته النفسية الشاملة . إننا نظن أننا نرى ابتسامة على وجه ولكننا لانرى في الحقيقة سوى أثر مبهم من الابتسامة . نحن لاندرك كل خصائص تلك الابتسامة

(١) خلاصة من أقوال فيلسوف الجمال (بنديتو كروتشي) .

كما يدركها المصور المبدع بعد أن يستوعبها بروحه ويكون قادراً على إثبات خصائصها على لوحته . إننا لاندرك من الناس ـ حتى من أقرب الناس الينا ـ أكثر من ملامحهم الجسمانية الظاهرة على أكثر تقدير حتى ولو كان ذلك الصديق ممن يكون معنا في كل يوم وكل ساعة . وأما الجوهر الذي يكمن في هذه الملامح الجسمانية فهو الذي يمكننا من تمييزه عن سواه فالمعرفة الإلهامية التي ندركها بالروح هي المعرفة الشاملة الحقيقية .

وهذه المعرفة أثر روحاني لايحدث عند الفنان إلا إذا استغرق استغراقاً كاملا صادقاً في الموضوع الذي يختاره وينصرف إليه انصرافاً تاماً فيهب له كل قوى روحه .

فإذا ماتحقق ذلك للفنان وأخذ في التعبير عن موضوعه بطريقته المادية التي اعتادها وبأسلوبه الذي تمكن منه في صناعته ـ سواء أكانت لفظية أو غير لفظية ـ أمكنه أن ينقل إلى الناس صورة صادقة طبيعية تمثل كل الخصائص الروحية التي شحن بها نفسه ، فيمكنه أن يطلع الناس على ما استوعبه في روحه من نافذته السحرية .

والأديب أو الفنان لايتعمد اختيار الموضوع الذي يمكن أن يملأ روحه فإن ذلك الاختيار لايتأتى له بالبحث عنه بالعقل بحثاً مقصوداً . فالأديب مثلا لايقدر أن يختار لنفسه موضوعاً ليستغرق فيه بروحه بأن يجلس إلى مكتبه ويستعرض الموضوعات أو الأشخاص الذين يريد أن يتخذ منهم موضوعات للتعبير عنها بفنه ، ثم يختار بعقله ما يظن أنه يستطيع أن يستغرق بروحه فيه من هذه الموضوعات .

الاختيار الموفق إنما يحدث بالطبع من غير تعمد . التجربة وحدها هي التي تستطيع أن تتيح للفنان أو الأديب فرصة الاختيار الموفق الذي يصادف هوى في نفسه . التجربة وحدها هي التي تعرض على الأديب أو الفنان

ما يستطيع أن يقتنيه حين يندفع نحوه بروحه من تلقاء نفسه . ان الإنسان لا يمكن أن يشعر بالحب نحو شخص إذا بحث عن صورة يحبها بعقله . ولا يمكنه أن يشعر بالحب نحوه وإن رأى صورته الفوتوغرافية . ليس غير التجربة ما يتيح للإنسان أن يهتدي إلى الشخص الجدير بحبه . التجربة وحدها هي التي تحرك الروح وتجعلها تتأثر فتحب أو تكره وتشعر بالاعجاب أو النفور . وهكذا تكون الحال في اختيار الأديب أو الفنان الموضوع الذي يحرك نفسه ويجعله يستغرق فيه ويستوعبه بكل خصائصه في روحه . ومن هنا يحدث الإلهام وتحدث قدرة الفنـــان على الإبداع والتصرف فيما لديه من أساليب الصناعة . فما الإبداع والجمال وحسن التصرف الموفق في أساليب الصناعة الا نتائج للإلهام الذي يقع في روحه من الموضوع الذي اهتدى اليه فيمكنه ابلاغ ما في نفسه من المشاعر إلى الناس بطريقة بسيطة سهلة متدفقة تحمل كل ما في روحه من المشاعر الصادقة الموحية ـ وهنا سر الإبداع والجمال في الإنتاج الأدبي أو الفني .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونكتفي في هـذه الكلمة الموجزة بالحديث عن الشاعر العربي الكبير أبي الطيب المتنبي وكيف قضى شطراً من حياته هائماً مضطرباً ضالاً كأنه يبحث عن موضوع جدير بأن يستغرق فيه ويستوعبه بروحه كي يبلغ ذروة الإبداع في فنه ، وكيف استمر هائماً ضالاً مجدباً بائساً حتى اهتدى آخر الأمر إلى الموضوع الذي يستطيع أن يبدع فيه .

بدأ المتنبي حياته كما هو معروف ـ في عصر مجدب ليس فيه الكثير مما يحرك الروح من جلال أو بطولة أو من عدالة ترتاح اليهـــا النفوس في الحياة السياسية أو الاجتماعية . لم يكن في ذلك العصر ما يحرك الشعور سوى مواطن محدودة شخصية كانت قد تشعر بحركة محدودة من حب أو كره ومن اعجاب أو نفور لا يبلغ مبلغ العمق المبدع الذي يحرك الروح .

كان الأديب قد يشعر بدافع جنسي نحو امرأة لا يرى منها سوى جسمها وهي في العادة جارية تحترف الحب . ولم يكن في مجال الحياة الاجتماعية مجال لبطولة تدفع الى الإعجاب أو عدالة اجتماعية تدفع الى الارتياح والسعادة . كان العصر مجدباً اجداباً محزناً . فنشأ أبو الطيب في البادية ، ولسنا نلمح في حياته ما يدل على أن البـادية أشعرته بشيء من تلك الحركة الشعورية المحدودة التي ذكرناها . ولم يجد أبو الطيب في الحياة الاجتماعية في البادية فرصة تتيح له أن يجد لنفسه مكانة اجتماعية يرضاها . فحزن وسخط وقلق وهجر البادية الى الحضر لعله يجد فيه مكاناً يرضاه لنفسه في مجتمع أو في كنف أمير سياسي أو عظيم سري يستطيع أن يلجأ اليه ويستند عليه في محاولة بلوغ المكانة التي يتوق اليها ، ولكنه كان حيث يذهب لا يجد إلا خيبة وراء خيبة تصدمه . وحاول أن يصل الى المكانة التي يطمح اليها عن طريق الشعر ولكنه خاب أيضاً في ذلك كان يشعر في نفسه بكبرياء واعتزاز فضاق بما يتطلبه التقرب الى الأمراء والرؤساء من المدح والتزلف لأنه كان يشعر بالجدب من الدافع النفسي إلى الإبداع الذي يطمح اليـه ليصل إلى مكانة الشاعر الذي تلتفت اليه الأنظار وتُعلي مكانته .

فهو في هذه الفترة من حياته لا يعبر في شعره ـ وهو صادق ـ إلا عن شعور وحيد أجاد في التعبير عنه وهو الشعور بالخيبة والضيق بالحياة واليأس منها . وكان أحياناً يندفع في تعبيره مع حلم من أحلام اليقظة ، فيعبر عن رغبته في التحطيم والثورة وخوض الدماء في سبيل طموحه .

فيقول حانقاً قصيدته المعروفة التي مطلعها :

ما مقامي بأرض نخلة إلا   كمقـام المسيح بين اليهود

وفيها يتحدث عن شعوره بفضل نفسه ويلوم نفسه قائلاً :

أين فضلي إذا قنعت من الدهـــــر بعيش معجل التنكيـــد
ضاق صدري وطال في طلب الرز ق قيامي وقل عنه قعودي
أبداً أقطع البلاد ونجمي في نحوس وهمتي في ســـعود

فهو في هذه القصيدة وأمثالها يعبر تعبيراً صادقا عن ضيقه بالبلاد وما فيها ومن فيها ، ويعبر عن طموحه أو غروره بنفسه التي ضاقت بالحيـــاة وضاقت بها الحياة .

وكان يندفع أحياناً كما قلت مع أحلام يقظته إلى ثورة دموية لا يستطيعها في اليقظة فيخاطب نفسه قائلا :

عش عزيزاً أو مت وانت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فرؤوس الرماح أذهب للغيـــــظ وأشفى لغل صدر الحقود

ولكن تلك الثورة لم تكن إلا في الخيال مع أحد الأحلام التي كان لا يلبث أن يراها بعيدة عن الواقع ، فلو كان يريد أن يجد له مكاناً في عالم القنا والبنود لوجد ذلك المكان ، لو كانت له موهبة الطعن والضرب . ولكنه لم يكن سوى شاعر موهوب لم يجد بعد فرصة في اظهار موهبته الحقيقية لأنه لم يجد وسيلة بعد إلى الإلهام .

كانت الحروب في ذلك العصر جديرة بأن تبلغ المتنبي ما يصبو اليه لو كانت موهبته الحربية تؤهله إلى التبرز في ميادينها ، ولكنه كان ثائراً غاضباً ولم يكن محاربا . لم يكن سوى شاعر موهوب ولكنه مغرور بقدراته التي لم يهبها الله له .

ومع هذا فهو يقول مدعياً :

إن أكن معجباً فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد

وهذه نظرة المعجب بنفسه لا نظرة من كانوا يرونه في زمانه .

وأما سبيله إلى المكانة الاجتماعية عن طريق التقرب إلى الرؤساء والأمراء

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

في عصره فقد كانت مغلقة أمامه لأنه كان يشعر في أعماقه باحتقار هؤلاء جميعاً . وكان احتقاره لهم يحول بينه وبين الإبداع فالشاعر لا يبدع إلا إذا كان ممتلئاً بموضوع شعره مؤمناً به مستغرقاً فيه بروحه كي يواتيه الإلهام والإبداع .

فكان لا يجد ما يملأ به فراغ مدائحه الزائفة التي كان يشعر في أعماقه بخلوها من الصدق إلا بأن يخلع عليها لوناً من البريق الزائف ، ببلاغيات متكلفة من صناعة الأسلوب الشعري المعروف في زمانه ، وبعبارات لفظية متأنقة وان كانت خالية من الروح . ونشير هنا إلى أمثلة من تلك الألفاظ الجوفاء :

فيقول في أحد ممدوحيه :

لو كان فيض يديه ماء غادية — عز القطا في الفيافي موضع اليبس

ويقول في ممدوح آخر :

لم يخلق الرحمن مثل محمد — أحداً وظني أنه لا يخلق

أمطر عليّ سحاب جودك ثرّة — وانظر اليّ برحمة لا أغرق

كذب ابن فاعلة يقول بجهله — «مات الكرام» وأنت حي ترزق

ويقول في آخر من ممدوحيه :

فتىً الف جزء رأيه في زمانه — أقل جُزَيْء بعضه الرأي أجمع

وقد يغلو في المبالغة الجوفاء كما قال في أحد ممدوحيه :

إذا خلت منك حمص ـ لا خلت أبداً ـ — فلا سقاها من الوسمي باكره

من قال « لست بخير الناس كلهم » — فجهله بك عند الناس عاذره

أو شكّ أنك فرد في زمانهم — بلا نظير ففي روحي أخاطره

وقد يهبط في مبالغاته إلى الحط من كرامة نفسه مع كبريائه ، والزراية بالكرامة الإنسانية نفسها في مثل قوله :

الى سيد لو بشر الله أمة بغير نبي بشرتنا به الرسل
الى القابض الأرواح والضيغم الذي تحدث عن وقعاته الخيل والرجل
وما تنقم الأيام ممن وجوهها لأخمصه في كل نائبة نعل
وما عنده فيها مراد أراده وإن عز ، إلا أن يكون له مثل

وقد تلجئه هذه المبالغات الخابية إلى وصف فاتر لا تخلع على قوله جمالاً صناعياً بل تخلع عليه قبحاً ممجوجاً ، مثل قوله :

بشر تصور غاية في آية تنفي الظنون وتفسد التقييسا
وبه يُضن على البرية ـ لا بها ـ وعليه منها ـ لا عليها ـ يوسى

ومثل قوله :

متى ما يشر نحو السماء بوجهه تخر له الشعرى وينكسف البدر
ترى القمر الأرضي والملك الذي له الملك بعد الله والمجد والذكر

هذه أمثلة من شعره الفاتر في أول حياته من قصائده التي تسمى « الشامية الأولى » والعراقية الأولى وهي جميعاً لا تتجاوز معنى واحداً مكرراً في صور شتى من العبارات المتأنقة وهو قوله : « إنك أيها الممدوح السيد الواحد الذي يفوق الناس جميعاً ، والناس جميعاً فداء لك وهم لا يستحقون أن يكونوا فداء لك . »

والسر في هذا الإجداب الأدبي في الشعر عامة وفي شعر أبي الطيب أيضاً هو الإجداب الشامل من سياسي واجتماعي في العصر كله . كان العالم العربي في ذلك الوقت مجدباً الى حد اليأس من كل ما يحرك النفوس من مثال بطولة أو مثال أمل . الأمراء أو أكثرهم الأكثر طائفة من الأنانيين مع كل منهم طائفة من السادة المزيفين الذين لا هم لهم الا الابتزاز من الشعوب التي يسيطرون عليها . الأمراء لا هم لأكثرهم إلا النظر إلى مصالحهم الخاصة في أفق ضيق ، يتنازعون ويتنافسون ويتحاربون حروباً صغيرة ،

وكل منهم يريد أن ينفذ سياسة موضوعة له من الدولتين الكبيرتين المحيطتين بهم . فبعض الأمراء يشترك في مؤامرة يديرها لهم المسيطرون على سياسة الدولة العباسية بالعراق ، وبعضهم يشترك في مؤامرة أخرى يديرها لهم المسيطرون على سياسة الدولة الفاطمية بمصر . امارات كلها قصيرة النظر ضحلة الهمة يدفعها دافع الجشع الشخصي والمطمح المادي . والسادة المتصلون بالأمراء ينسجون على منوال أمرائهم ، فكل منهم يشترك في حزب مناصر لإحدى الدولتين الكبيرتين . فكانت الأحوال السياسية والاجتماعية مصطبغة بألوان الجشع الشخصي والمطامع المادية الخسيسة . وهذه الحالة العامة هي مقدمة محتومة للنتائج المحتومة التي ترتبت عليها فيما بعد حين أغار الصليبيون على الحدود الشمالية في حملاتهم المعروفة في أواخر القرن الحادي عشر بعد الميلاد . مجتمع متفكك وفي داخله السوس وعوامل الفناء تعمل فيه من أعلاه في الطبقة المسيطرة سواء كانت سياسية أو اجتماعية . فاذا أراد أديب في ذلك العصر أن يكون صادقاً في تعبيره عن شعوره فلا مجال له في الصدق إلا أن يندب حظه وحظ قومه العرب لما آلت اليه أمور العرب من الفساد والاضمحلال . واذا أراد أحدهم أن يمدح أميراً أو سيداً من السادة ذوي السيطرة في المجتمع فليس له من وسيلة الى مدحه إلا أن يكذب وأن يعزز أكاذيبه بأسلوب لفظي أو وسيلة بلاغية براقة تخدع الناس عن الحقيقة البشعة الماثلة في حياتهم ، وتحاول ان تخلع على المرح الأجوف غشاء من التمويه يستثير فيهم الإعجاب بالعبارات الجوفاء . لهذا كان كل ما قيل في النقد الأدبي في ذلك العصر لا يزيد على نقد الأساليب البلاغية اللفظية البعيدة عن المعنى وعن الروح الأدبي نفسه .

ولكن من حسن حظ الأدب العربي أن كانت في ذلك العصر فلتة من الفلتات بين أمراء ذلك الوقت المجدب وهو الفارس الحقيقي والبطل العربي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سيف الدولة – أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان الذي وقف حياته لتحقيق غاية جليلة بالتصدي للدفاع عن الحدود العربية برغم ما كان يسود أمراء العصر والسادة في الأمة العربية من أنانية وتحاسد وتناحر في سبيل مصالحهم الخاصة . فحين رأى أبو الطيب ذلك الفارس البطل – وأغلب الظن انه رآه بغتة عن غير انتظار – أدرك بفطرته أنه حيال أمير فارس من نوع آخر غير الأمراء الذين اتصل بهم . فتعلق قلب أبي الطيب بذلك الفارس تعلقاً تلقائياً يشبه تعلق المحب بمحبوبه من أول نظرة . وكان بغير شك قد سمع عن بطولته وحروبه مع الدولة البيزنطية التي كانت منذ ابتداء تكوين الدولة العربية هي العدو والمنافس الخطير لها . وكان سيف الدولة في زيارة لأنطاكية بعد انصرافه منتصراً عن حصن برزونة وهو أحد الثغور الأمامية بين العرب والروم . فلما رآه المتنبي عائداً بالنصر والفتح أحس بهزة دفعته تلقائياً الى التعبير عن إعجابه فأنشد قصيدته التي قال في مطلعها :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

فهذا المطلع على ما فيه من غموض وتعقيد وتكلف يتصدر قصيدة فيها تعبير صادق عن إعجابه بالبطل العربي إذ يقول مستمراً بعد المطلع :

وما أنا إلا عاشق – كل عاشق أعق خليليه الصفيين لائمه

وقد يتزيا بالهوى غير أهله ويستصحب الانسان من لايلائمه

وفي هذين البيتين يقول أبو الطيب في صراحة بأن كثيراً من المدح يصدر عن شعراء يقولون الشعر فيمن لا يستحق المدح وان البطل الحقيقي قد يتصل بشاعر يمدحه وهو شاعر مزيف لا يلائم مجده .

ومضى في مدح سيف الدولة قائلا :

سلكت صروف الدهر حتى لقيته على ظهر عزم مؤيدات قوائمه

فأبصرت بدراً لا يرى البدر مثله وخاطبت بحراً لا يرى العبر عائمه
غضبت له لما رأيت صفاته بلا واصف والشعر تهذي طماطمه

ففي هـذه الأبيات يعلن المتنبي في صراحة أنه سلك صروف الدهر حتى اهتدى الى البطل الجدير بشعره والى الموضوع الجدير بأن يهب له عبقريته في فنه ، ويعلن أيضاً أنه قد وجد البطل الذي يملأ قلبه وبصره ، ذلك البطل الذي جعله يغضب حين رأى صفاته الجليلة تخفى عن الإعلان بين الناس لأنها لا تجد واصفاً جديراً بالإعلان عنها على أن الشعر الزائف تهذي طماطمه في مدح أمراء لا يصدق فيهم المدح ولا يصدر عن الشعراء فيه الا هذيان من ألفاظ طنانة جوفاء لا تنطوي على روح أو صدق .

لقد أحس أبو الطيب في ذلك الموقف أنه قد اهتدى الى البطل الذي يصلح أن يكون موضوعاً لشعره ، وأنه يستطيع أن يبدع في وصف هذا الفارس وفي تخليد فضله ، وإعلانه بين الناس ، لأنه سيجد الإلهام القوي الصادق في فروسيته وكرم خلاله . وقد صدقت فراسة أبي الطيب في ذلك الموقف فان شعره في الفارس الحمداني هو الذي خلده على صفحات التاريخ وهو الذي أعلن عن فضله وأغنى اللغة العربية بمدحه الصادق الملهم الموحي بالحياة والجمال .

وحين أراد سيف الدولة أن يغادر أنطاكية أحس أبو الطيب بانزعاج أشد من انزعاج المحب حين يؤذن محبوبه بفراقه . فهو يقول له عند ذلك :

أين أزمعت أيـهـذا الهمام نحن نبت الربى وأنت الغمام
نحن من ضايق الزمان له فيـــك وخانتــه قربك الأيام

فهي صيحة عالية تعبر عن مدى فزع الشاعر وانزعاجه لأن البطل الذي اهتدى اليه بعد طول اضطرابه في الأرض فاهتدى الى الموضوع الذي يلهمه فجأة ، وعلى غير قصد يزمع ان يفارقه فيدعه يعود الى حيرته واضطرابه

وإجدابه . إنه كان يبحث عن موضوع يتيح له الإلهام ويمكنه من الإبداع في فنه ؛ وما كان أشد فجيعته حين أزمع هذا البطل أن يفارقه فيحرمه من الفرصة التي تتيح له الإلهام . انها فجيعة تشبه إلى حد بعيد ما يشعر به الموحى إليه حين يوشك الوحي أن ينقطع عنه . فأبو الطيب يخاطب سيف الدولة قائلا :

« أين تريد الذهاب بعيداً عنا مع أنك قد بعثت إلى قلوبنا من الحماسة لبطولتك والاعجاب بشخصك النبيل ما بدأ يحرك فينا نشوة الشعور الصادق الذي يحرك إلى الإبداع . اننا قد وجدنا فيك ما يروي في قلوبنا ما فيها من التعطش إلى البطولة في عصر قد عرفناه وجربنا إجدابه وحاجته إلى بطولتك وعلو نفسك . لقد كنا مجدبين فأدركنا بلقائك من كان بالنسبة إلينا صوب الغمام فصرنا به نبتاً فوق الربى » .

لم يكن سيف الدولة محارباً فارساً فحسب ، بل كان مع شجاعته يمثل معنى آخر لم يشاركه فيه غيره من الفرسان . كان يحارب من أجل غاية سامية ومقصد عال ، أعلى جلالاً من الانتصار في الحرب . فيقول أبو الطيب لسيف الدولة :

في سبيل العلى قتالك والسلـــــم وهذا المقام والإجذام
ليت أنّا إذا ارتحلت لك الخيـــــل وأنّا إذا نزلت الخيام
كل يوم لك احتمال جديد ومسير للمجد فيه مقام

فهو بذلك يخاطب الأمير العربي الذي وقف حياته على الدفاع عن الحدود العربية في وجه الدولة البيزنطية التي استمرت في حربها منذ قبيل الإسلام إلى العصر الذي عاش فيه ابو الطيب . فكان مثالاً عالياً لسلسلة من أبطال العرب الذين جمعوا بين الشجاعة في الحرب والتمسك بالمثل العليا في الشهامة التي صارت تقليداً للفارس النبيل منذ أيام خالد بن الوليد وسار على مثاله

مسلمة بن عبد الملك فالمعتصم العباسي . كان أبو الطيب يراه في هالة من البطولة العربية في عصر طالما ضاق به الشاعر إذ كانت السيادة فيه وقفاً على الأمراء غير العرب الذين كانوا يبيعون سيوفهم لسادة العرب لقاء اخضاع شعوبهم لسيطرتهم واذلالهم لها

ففي هذا الموقف يعلن أبو الطيب أنه قد اهتدى الى ضالته ويجهر بشعور الفزع الذي اعتراه حين رأى ان ضالته توشك أن تفارقه . فقد وجد في هذا الأمير الشاب والفارس العربي النبيل موضوعاً يستطيع أن يلهمه بكل معنى جليل صادق يغنيه عن التماس الجمال في أسلوب التعبير الصناعي والعبارات البلاغية اللفظية التي يملأ بها فراغ شعره من الصدق والعاطفة . وكان أبو الطيب منذ بدء حياته يحاول أن يجد لنفسه مكاناً في الحيـاة بالتقرب إلى أمير أو إلى سري من ذوي الجاه والسطوة يستند إليه ويقيم في ظله . ولكنه كان كلما وجد ما ظنه ظلا وارفاً لا يزيد في حقيقته على ظل باهت خادع يكلفه أن يكون مرتزقاً بشعره لا شريكاً في انشودة مجيدة ؛ فيبدأ قصائده بقطع من الغزل الكاذب ، وقد يدخل فيها بعض الشعر الصادق في شكوى زمانه ووصف بؤسه وشقائه في الحياة وثورته عليها . فحين خيل إليه أنه قد وجد موضوعه في الفارس النبيل الذي يستطيع أن ينصرف بغتة إليه والتغني ببطولته أخذ يتجه بفنه إلى أسلوبه الجديد فيما نسميه « السيفيات » التي يمتاز شعره فيها بالصدق والسهولة والبساطة الطبيعية في تصويره .

فيقول في أسلوبه الجديد يخاطب سيف الدولة خطاباً مباشرا .

كلما قيل قد تناهى أرانا ... كرماً ما اهتدت إليه الكرام
وكفاحاً تكع عنه الأعادي ... وارتياحاً يحار فيـه الأنام
انما هيبة المؤمَّل سيف الدو ... لة الملك في القلوب ، حسام
فكثير من الشجاع التوقي ... وكثير من البليغ السلام

http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالصدق وحده كفيل بتصوير البطولة والشهامة لأن الشاعر كان ينبعث فيه عن مثال حي صادق أمامه .

ويعترف بهذا في انشاده حين يقول :

فلو قَدَّر السنان على لسان لقال لك السنان كما أقول

فيعترف بأن الشعر الذي يقوله في مدح سيف الدولة لا يزيد على حكاية ما يقوله السنان عنه ولا يزيد عليه شيئاً من مخترعات القول المنمقة الزائفة .

وحسبنا في الإشارة إلى طريقة المتنبي الجديدة في شعره أن نذكر قصيدته التي يقول في مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

فهو لم يقدم لقصيدته بمدخل متكلف يفضي به الى انشاده بل ابتدأ الابتداء الطبيعي الذي يدل على ما امتلأ به قلبه من شعور الإكبار نحو سيف الدولة ، ثم مضى يتدفق بما يوحيه ذلك الإكبار ، فلا نجد في قصيدته بيتاً متكلفاً ، ولا نلمح في بيت من أبياتها تعمد تجميل الأسلوب برصيعة براقة مصطنعة . وفيها يصور منظر البطل وهو في ساحة القتال كأنما هو مصور بارع يلتقط منظراً يعبر فيه بريشته عن الروح الذي يسري في المنظر كله ولا يزيد على تسجيل الحقيقة شيئاً إلا بمقدار ما يشحنها بشعوره :

وقفتَ وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى الى حد قول أنت بالغيب عالم

وقد أقام المتنبي مع سيف الدولة ما أقام فكان في كل قصيدة ينشدها له يتدفق مع شعوره الصادق ويعبر فيها عن إعجابه واستغراقه في موضوعه ، وقد يصف في ثنايا شعره ما يخامره من الألم اذا شعر بألم من إغفاءة غير

مقصودة من الأمير أو من لفتة غاضبة غير مقصودة أيضاً . فهو في ذلك كله يعبر عن أعمق وجدانه صادقاً بليغاً متدفقاً مبدعاً .

ولم يكن شعور أبي الطيب نحو سيف الدولة مقتصراً على بعث الحياة في أشعاره السيفية وحدها ، فان صورة الفارس البطل وشعور الإعجاب به والمحبة له لم يفارقه حين غضب غضبته من الأمير وفارقه وذهب ينشد شعره الى آخرين من الأمراء والملوك الذين كانوا يتنافسون على الاستئثار بفنه ، فكانت صورة سيف الدولة تبدو له كلما وقف ينشد بين يدي أمير أو ملك آخر . وكانت الصورة تهمس له وتثير نفسه برغمه فيأخذ في مناجاتها والانشاد لها . فهو في انشاده لكافور في مصر ينسى أنه يخاطب ذلك الملك ويبدأ قصيدته بالتعبير عن حزنه لفراق صديقه وبطله . فيخاطب قلبه قائلاً :

أقِلْ اشتياقاً أيها القلب ربما رأيتك تصفي الود من ليس جازيا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم ينتقل بعد حين الى مدح كافور فيغير أسلوبه من الصدق الطبيعي المملوء حرارة الى أسلوبه القديم المتكلف الذي يتصيد فيه المعاني الخاوية ليملأ بها فراغ معانيه بالعبارات البلاغية الكاذبة فيقول :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا انسان عين زمانه وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

ويخاطب الملك الأسود ـ انسان عين زمانه ـ قائلاً :

أبا المسك ذا الوجهُ الذي كنت تائقاً اليه وذا الوجه الذي كنت راجيا
أبا كل طيب لا أبا المسك وحده وكل سحاب لا أخص الغواديا
يدل بمعنى واحد كل فاخر وقد جمع الرحمن فيك المعانيا

فلما نزح الشاعر عن مصر كارهاً بعد أن أمضه فيها ألم الجسم والروح معاً وذهب الى العراق لم تفارقه صورة سيف الدولة ولازمه أسفه على فراقه

فيكون في انشاده لعضد الدولة معبراً عن شدة حزنه لفقد صداقة بطله الكريم لا مادحاً للأمير الذي وقف بين يديه فيقول :

أوه بديل من قولتي واهـا لمن نأت والبديل ذكراهـا
أوه من ألا أرى محاسنهـا وأصل واهاً وأوه مرآهـا
شامية طالما خلوت بهـا تبصر في ناظري محياهـا
فقبلت ناظري تغـالطني وإنما قبلت به فاهـا

ولولا خوف الإطالة لأفضت في بيان ما تدل عليه هذه الصورة من الشعور القوي نحو سيف الدولة الذي فارقه الشاعر مع كل إعجابه به وحبه له .

لقد كانت صورة البطل لا تفارق الشاعر وهو بعيد عنه ، وكانت تملي عليه الشعر في كل موقف وقفه بعد فراقه له . فلا يبدو الصدق في شعر المتنبي بعد فراق سيف الدولة إلا حين كان يعبر عن أسفه لذلك الفراق أو كان يعبر عن مقته لأصحاب السلطان الآخرين في الأمة العربية الذين كان أبو الطيب يؤمن بأنهم قد اختلسوا السيادة في هذه الامه وهم غير جديرين بهـا .

محمد فريد أبو حديد

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

مخطوطة معاني الشعر للاشنانداني

كانت جمعية الرابطة الأدبية [1] في السنة التي عاشتها مجلتها التي كنت مديراً لها ، ونشرت من تراث السلف كتاب معاني الشعر للاشنانداني من مخطوطة صحيحة نفيسة من مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، وقد نشرت الجمعية من هذه المخطوطة ما أملاه الأشنانداني ، وبقي في المخطوطة مما رواه أبو بكر ابن دريد وأبو حاتم السجستاني وغيرهما من أئمة اللغة كثير من أبيات المعاني لم تنشر ، وقد نفدت النسخ التي طبعتها جمعية الرابطة الأدبية ، وظلت الحاجة الى هذا الكتاب حاقة لفهم أبيات المعاني ، وسألني كثير من الاخوان عن المانع للمجمع الذي يعمل على احياء تراث السلف من اعادة نشر الجزء الأول النافد مع الجزء الثاني الباقي ومن هؤلاء العلماء والأدباء الراغبين في هذا العمل العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي وقد عزم المجمع على نشر معاني الشعر نشرة صحيحة كاملة بعد استحضار نسخ أخرى .

وجاء في آخر المخطوطة الدمشقية لمعـاني الشعر العنوان التالي (في كتاب الترجمان المفجّع في باب أنواع من الاعراب) وبعد هذا الباب (أبيات معانٍ مما غلّط الأعراب فيها الأصمعي) ثم (أبيات خطّأ فيها

---

(١) اول جمعية أدبية عربية بدمشق تألفت سنة ١٩٢١ من الأدباء المعروفين وأنشأت مجلة أدبية لها ، وكانت الجمعية والمجلة طليعة النهضة الأدبية الحية بروحها القومية ، وقد قاومتها القوة الفرنسية المحتلة ، فحلت الجمعية ومنعت إصدار المجلة ، ولو بقيت لأنتجت ما أنتجه أدباء الرابطة القلمية في المهجر من روائع الأدب العربي الحديث .

أبو نصر صاحب الأصمعي ابن الأعرابي) فوجدت من خدمة الأدب ولغة العرب نشر هذه الصحائف المفيدة مع التعليق عليها :

أما كتاب الترجمان الذي ألفه المفجّع فهو في معاني الشعر ولم نعثر له على أثر ، وهو شبيه بكتاب معاني الشعر للاشنانداني ، وقد ذكر صاحب الفهرست ابن النديم (المفجّع) بأنه أبو عبد الله المفجّع محمد بن عبد الله الكاتب البصري[1] وانه لقي ثعلباً وأخذ عنه وعن غيره ، وكان بينه وبين أبي بكر ابن دريد مهاجاة وذكر له كتباً كثيرة أولها كتاب (الترجمان) في معاني الشعر ومن كتبه حدّ الإعراب ، وحدّ المديح ، وحدّ البخل ، والرأي ، والهجاء ، والمطايا ، والشجر والنبات ، والأعراب ، واللغز ، والمنقذ في الإيمان وأشعار الحروب ، وعرائس المجالس ، وكتاب غريب شعر زيد الخيل .

وهذه الصفحات التي ننشرها ، ولعلها من كتاب الترجمان هذا المفقود ، تدلنا على مسائل هذا الكتاب ونمط تأليفه ، وعسى أن نظفر به وننشره ، وما أكثر الكنوز العلمية الضائعة من الكتب التي ذكرها في الفهرست محمد بن اسحق النديم .

التنوخي

* * *

(١) وفي الأعلام للزركلي : هو محمد بن أحمد بن عبيد الله البصري أبو عبد الله وله ترجمة في بغية الوعاة ١٣ وارشاد الأريب ٣١٤/٦ ويتيمة الدهر ١٢٩/٢ ، وعرفه بأبي عبد الله الكاتب ، والمرزباني ٤٦٤ والوافي بالوفيات ١٢٩/١ وهو فيه محمد ابن محمد ، وهو في الفهرست لابن النديم في الفن الثالث من المقالة الثانية .

في كتاب الترجمان للمفجّع

في باب أنواع من الإعراب

وحكى أبو العباس أحمد بن يحيى قال قال الأصمعيّ في قول الفرزدق :

إلى ملكٍ ما أُمهُ من مُحاربٍ أبوهُ ولا كانت كليبٌ تصاهِرُهْ(١)

قال : معناه ابوه ما أُمه من محارب فأخّره ، وقال الفرزدق أيضاً :

وما مثلُه في الناس إلا مملكاً أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربُهْ (٢)

مدح هشام بن اسماعيل (٣) بن هشام بن الوليد أبا أم هشام

---

(١) من البحر الطويل .

(٢) من الطويل أيضاً .

(٣) في الإيضاح للجلال القزوينيّ الذي هذّبناه ما نصه : كان حقه أن يقول : وما مثله في الناس حي يقاربه إلا (مملّكا) ابو امه ابوه ، فانه مدح ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومي خال هشام بن عبد الملك ، (وما مثله) يعني ابراهيم الممدوح في الناس (حي يقاربه) أي أحد يشبهه في الفضائل (الا مملّكا) يعني هشاما (أبو امه) أي أبو أم هشام ابوه أي أبو الممدوح ، فالضمير في (امّه) للملك وفي (أبوه) للممدوح .

قلت فهذا التقديم والتأخير والفصل والإضمار قد أدّى الى التعقيد اللفظي وهو مما يخل بفصاحة الكلام لمخالفته للقانون النحوي المعروف .

ابن عبد الملك فقال : ما مثله (إلا مملكاً) يعني هشام بن عبد الملك ، أبو أم هشام بن عبد الملك حيّ أبو الممدوح يقاربه ، يعني إنّ بني أمية وبني مخزوم جميعاً من قريش .

وقال الأخفش ابو الحسن سعيد بن مسعدة نصب (مملكاً) لأنه استثناء عنده (1) : ما مثله في الناس حيّ يقاربه إلاّ مملكاً أبو أمه أبوه ، يعني خال هشام والمملّك هشام بن عبد الملك .

هذه أبيات معانٍ

ممّا غلّط الأعراب فيها الأصمعي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أملاها أبو العبّاس أحمد بن يحيى ثعلب رحمه الله رواها أبو بكر ابن الخيّاط ، وجدتها في كتب ابي سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان السّيرافي .

قال الاصمعيّ في قول الرّاعي :

(1) (الا مملكا) مستثنى من (حيّ) تقدم على المستثنى منه فانتصب ، ولو كان مؤخّراً عنه لكان المختار فيه الرفع على البدلية من (حيّ) وهو المستثنى منه .

إذا ما دعت شِيباً بجَنبيْ عُنيزةٍ   مشافِرُها في ماء مُزْنٍ وباقل[1]

قال: حكى أصوات مشافرها بقوله (شيبا) كقوله: (والبحر يدعو هَيقَما وهَيقما) حكى صوت البحر، قال: و (باقل) يريد البقل، قال الصقيل: أخطأ، حَرَبه الله! إذا أكل البقلَ ما يصنَعُ بالماء، يا سُبحان الله! أما يَعلم الجاهل أنها إذا أكلت البقلَ لم تطعم الماء، ولكن (باقل) الرِّمث والغَضا والإخريط من الحمض إذا أكلته أحرق أجوافها فشربت الماء شرباً شديداً وأنشد:

حَرَّقها الحمضُ فما تَقيلُ   وما يَقيلُ تحتَها فَصيلُ
إلا فصيلٌ راسه مأكولُ

وأنشد   (حرَّقها من النَّجيل أشهبُهْ).

وقال أيضاً في قول الرّاعي:

يَظلُّ يغنّيهنَّ حَمْشٌ أُنوفُهُ   وهنَّ قِيامٌ ما يُحرِّكْنَ إصْبَعَا[2]

---

(١) من البحر الطويل. وجاء في لسان العرب (شيب): والشيب بالكسر حكاية صوت مشافر الإبل عند الشرب، قال ذوالرمة ووصف ابلا تشرب في حوض متثلّم وأصوات مشافرها (شيبْ شيبْ):

تداعين باسم الشيب في متثلّم   جوانبه من بصرة وسِلام

(٢) من البحر الطويل.

يعني أنه حَمِش القوائم ، وأنه يتألَّف بهنّ المَرعى .

قال أبو الخضر وغيره من الأعراب : هذا باطل إنما يَعني ذبابَ الرّوض ، وقوله (أنوفه) لأنه يأكل من كلّ أنواره يتأنّفُها[1] : يأكل أنفها وأنشد[2] :

كأنّ الذّبابَ الأزرقَ الحمشَ وَسطها إذا ما تغنّى بالعَشيّات شاربُ[3]

عُقاراً سبتها التَّجْر من خَمر عانةٍ لها سَوْرةٌ في رأسهِ ذاتُ صالبِ[4]

وأنشد آخر :

حَريقاً زَهاه النّبتُ حتى ذُبابُه ومُكّاؤه عند الضُّحى غَردانِ

كأنهما من قَرقفٍ أزرعيّةٍ سَباها قِطارُ الشّام، مُنتَشِيانِ[5]

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) الأنوف والمتأنّف الذي لايرعى إلا أنف المرعى الذي لم يرعه أحد ، والمؤتنفة والمؤنّفة من الإبل التي يُتبع بها أنف المرعى أي أوله .

(٢) أنشده اللحيانيّ أيضاً .

(٣) الحَمْش والحَماشة والحُمُوشـة : الدقّة ، وهو حَمْش السـاقين والذراعين بالتسكين وحميشهما وأحمشهما دقيقهما وحمش القوائم دقيقها ، وكان عبد الله بن مسعود حَمش السّاقين ، وقال الشاعر يصف براغيث :

وحُمش القوائم حُدب الظهور طرقنَ بليـــل فأرّقنني

وذُباب الروض كالبراغيث حُمش القوائم .

(٤) (عقاراً) مفعول به لشارب ، والتّجر التّجـار ، ويقال : سار الشراب في رأسه إذا وثب وهاج وله سورة (ذات صالب) أي حمى صالب يقال أخذته الصّالب .

(٥) أي كأن الذباب وطير المكاء منتشيان وثملان من خمرة إزرع الشامية .

وأنشد لحاجب بن ذبيان المازنيّ يصف راعياً :

إذا توجّسَ لم ترجعْ مسامعُهُ   من صوتِ عُجمٍ ولا فُصْحٍ تؤدّيها
إلا مقامَ طَلًى أو صوتَ ذي هَزَجٍ   حَمْشِ القوائمِ في روضٍ يُغنّيها

ومنه قول عنترة :

هَزِجاً كصوت الشارب المترنّمِ

هَزِجاً يحكُّ ذراعَه بذراعِهِ   قدحَ المُكبِّ على الزنادِ الأجذمِ

وقال في قول ذي الرمّة :

يجلو بها الليلُ عنّا في مُلمّعةٍ   مثلِ الأديمِ لهامن هَبْوِهِ نيمُ(١)

قال : النّيم : الفرو القصير(٢) ، وإنما هو بالفارسية للنّصف قال أبو الخضر : أخطأ ، إنما أراد بقوله (نيم) كسوة من

(١) من البحر البسيط .
ورواية الصحاح (حتى انجلى الليل ...) وفي التكملة (يجلى بها الليل عنا ...) وقوله (في ملمّعة) قال ابن برّي : من فتح الميم أراد يلمع فيها السرابُ ، ومن كسر أراد تلمع بالسراب قال : وفُسر النيم في هذا البيت بالفرو (كما قال الأصمعيّ) وأنشد ابن برّي للمرّار بن سعيد :

في ليلة من ليالي القُرّ شاتيةٍ   لا يُدفىء الشيخَ من صُرّادها النيمُ

(٢) وفي اللسان (نوم) الفرو القصير إلى الصدر ، وقيل له نيم أي نصف فرو بالفارسية .

الهبوة[١] لينة ، وكلّ ليّن من الثياب وغيرها نيم وأنشد :

وقد كانت الدنيا على عهد رابعٍ تلين لنا من قرّة العين نيمها

أي من عيش ليّن ، وأنشدته قول العجّاج[٢] :

(يُكسَينَ من لين الشباب نيما)

قال : هذا مما قلتُ لك .

وقال في قول أبي النجم :

تَرين لَحييَ لاهجٍ مخلّلٍ[٣]

عن ذي قراميصَ لها مُحجّلِ

(القراميض) مَفحص الناقة في الرّمل لئلا يَثقل عليها

---

(١) الهَبوة : النّعامة ، فكأنها من ريش النّعام على المجاز ، ولذلك فسر بعضهم (النيم) بفرو يسوّى من جلود الأرانب ، وهو غـالي الثمن ، وبالقطيفة .

(٢) ونسب ابن برّي هـذا الرجز لأبي النجم ، وقبله (وقد أرى ذاك فلن يدوما) .

(٣) من الرجز و (اللاهج) الفصيلُ يمتصّ ضرع أمه ، و (المخلّل) الذي يُجعل في فيه خِلالاً فشدّه لكيلا يرضع .

َضرعها فتخضده (١) فتدخله في الرّمل فتجعله كالقُرموص، وإنما أراد بهذا ِضخَمَ الضّرع وثِقَله لأنها لاتقدر أن تتجافى عنه ولا بُدّ لها من أن َتحفر له .

قال الصّقيل : كذب الأصمعيّ ، إنّما القراميصُ قراميصُ الضّرّة (٢) التي يجعل الله فيها اللبن وهي أفن في جوف الضّرّة وأبينُ ما تكون القراميص إذا دَفَعت وضخُمت قُبيل الولد أو بعده ، وكيف يفحص بضرعها الرمل (٣) .

وقال في قوله :

لا تَرِدُ الماء بعَظمٍ تكدِمُهْ تُجارفُ الحوضَ ولا تَشَمْمَهْ (٤)

---

(١) تخضده : تثنيه وتكسره ، قال أبو الهيثم بعد أن أنشد الرجز : قراميص ضرعها بواطن أفخاذها ، وإنما أراد أنها تؤثر لعظم ضرعها إذا بركت مثل قرموص القطاة إذا جثت .

(٢) الضرة : أصل الضرع الذي لايخلو من اللبن .

(٣) قوله (وكيف يفحص بضرعها الرمل ؟) إذا بركت الناقة بعد أن تكون دفعت وضخمت ضرعها بغزارة اللبن فيه ، أثرت بثقل ضرعها في الرمل وتركت تحته حفرة كالقرموص ، والرمل سريع التأثر والانهيار بالثقل يوضع عليه ، وهذا شرح كلام أبي الهيثم الذي يؤيّد كلام الأصمعيّ .

(٤) من الرجز .

يريد أن الإبل إذا وردت الماء أُلقيت لها العظام النَّخِرة لتشرب الماء وتلوكها لتملّحَ بها ليكون أكثر لشربها وأحرصَ لها على الماء ، وهذه تشرب شُرباً لاتحتاج معه إلى العظام ؛

فقال بهدَل الأسديّ وعُجرمة وغيره من الفُصَحاء : ليس كما قال ، الإبل إذا لم ترعَ الحمض وفقـدته اختلّت إليه [1] واعتلّت فتمرّ بالديران فتكدم ما وجدت من عظم وتعجمه ، والكدم بمقدّم الفم . والعَجم بالأضراس والفم كله ، يقول : فهي لاتحتاج إلى ذلك لإصبعه [2] عليها ، والحسن قيامه عليها ، ورعيته إيّاها ، وإمكانه إياها من الحمض . وتقول إذا اشتقتَ إلى صاحبكَ : قد اختللتُ إلى فلان وإلى لقائه فأنا مختلّ إليه فأما أن يحمل الراعي العظام إلى الماء فلم نَرَ ذلك ولا سمعنا به . وإنّما برتمٌ من الإبل ماكان في العَذاة [3] كلّ أرضٍ ليس

---

(١) احتاجت واشتاقت إليه و (الديران) الديار جمع دار .

(٢) أي لحسن رعيته وقيامه عليها كقول الراعي :

ضعيفُ العصا بادي العُروق تَرى له   عليها إذا ما أجدَبَ الناس إصبَعا

(٣) العَذاة الأرض الطيّبة البعيدة من الماء والوخم ، و (ترتَمّ) تأكل وتقضم الرمم .

فيها حمض فتتبع العظام وترتمُّ بها : أي تقضم الرِّممَ ، فإذا كانت في حمض لم تفعل ذلك .

وقال في قول حُميد :

وخاضت بأيديها النِّطافَ وذَعذعت بأقيادها إلاّ وَظيفاً مُخَدَّما (١)

خضخضت بأيديها ماء السَّماء من الخِصب وقطعت أقيادها عنها من السِّمن والمرَح إلا أن يبقى على الوظيف خَدَمَةٌ (٢) والوظيفُ مابين الرُّسغ والرُّكبة ، وما بين الرّسغ وعُرقوب الرجل ، وهي أيضاً في اليد ، والقُيون واحدهـــا قَين قال ذو الرُّمة (٣) :

(قينيه وانحسرت عنه الأناعيمُ)

قالت الأعراب : كيف تُخضخض بأيديها النِّطاف ، وقد

---

(١) من البحر الطويل .

(٢) الخَدَمة : السَّير الغليظ المحكم مثل الحلقة تشدّ في رسغ البعير فيشدّ إليها سرائح نعلها ، والخلخال أيضا .

(٣) من البسيط وصدره :

(دانَى له القيدُ في دَيْمومه قُذُفٍ قَينيه وانحسرت عنه الأناعيم)

جمع انعام .

وصف قبل هذا أنه قد تجرّم [١] الربيعُ وسَمِن [٢] حتى عاد مُدَّماها كُميتاً، إنما أراد أنه نَشَت [٣] الغُدران فلم يبقَ من الماء إلا ما تخوضه بأيديها كما قال ذو الرّمة :

وخاضَ القَطامن مَكرعِ الحيّ باللوى نِطافاً بقاياهُنّ مَطروقةٌ كُدْرُ

أي نشّتِ الغُدْران والمواضعُ التي يكرع فيها القومُ حتى خاضها القَطا .

وقال في قول عمرو بن قعاس المرادي :

وصَادرة معاً والوردُ شتّى على أدبارها أُصُلاً حدوتُ [٤]

قال : يعني قصيدة من الشعر ، واحتجّ بقول الحطيئة حيث سُئل عن أشعر أهل زمانه ؟ فقال : كفاكَ بي إذا حدوت في آثار القوافي .

---

(١) انقضى وانصرم واصله من الجَرم وهو للقطع .

(٢) وسمِن ويمكن قراءتها (تيمّن) ، أما وجه (سمن) فلعل الأصل (سمن السّرح) فحذف الناسخ الفاعل ، وأما (تيمّن) فقد تكون بمعنى مات لأن التيمّن من معانيه الموت : أي انقضى الربيع ومات .

(٣) نشّت الغُدران : أخذ ماؤها في النضوب

(٤) من البحر الوافر .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قالت العرب : فما قوله (أُصلاً) ، وقول الشعر بالغَداة والعشي سواء ؟؛ ولكنه أراد إبلاً أغار عليها وردت الماء شَتّى فلمّا اجتمعت معاً ساقها وَحدا في آثارها ، وقالت الأعراب : كفَى بي إذا وضعتُ إحدى رجليّ على الأخرى ورفعت غريدتي(١) بالرُّكبانية جارياً منهم ، وقال آخر : (جاءت معاً وصدرت شتيتا) فهذا خلاف قوله (وصادرةٍ معاً . . .) ومثل (وصادرة معا . . .) قول مُرقّش :

فلم يَشعُرِ الحيُّ حتى رأوا بَريقَ القوانسِ فوقَ الغُرَرْ
ففرّقتهُمْ ثم جمّعتهُمْ وأصدرتهم قبلَ حينِ الصَّدَرْ

قال : تفرّقت الإبل من الفزع ثم جمعوها وضمّوها وساقوها وقت صَدَرها ومثله للجعديّ :

ففرّقتهُ ثم جَمّعتهُ ولم تكُ غارتُهنّ اختلاسا
آخر الأبيات

* * *

(١) غريدتي أي تغريدتي أو أغرودتي ، أو مصحّفة عن عقيرتي ، و (الركبانية) لم تذكرها كتب اللغة فلعلها أغاني الركبان بضرب من الألحان .

هذه أبيات

خطأ فيها أبو نصر[١] صاحب الأصمعي ابنَ الأعرابي

عن أبي بكر محمد بن الحسن بن دريد رحمه الله :
سُئل ابنُ الأعرابيّ عن قول طفيل الغنويّ :

« ١ »

تتايعنَ حتّى لم تكن ليَ ريبة ولم يكُ عمّا خبّروا مُتعقَّبُ[٢]

سألوه عن تفسيره وما معنى قوله (مُتَعَقَّبُ) ؟ فقال : متعقّب : تكذيب . قال أبو نصر الباهلي : هذا خطأ ، قوله (متعقب) : أي لم أسل عن الخبر ثانيةً ، والعرب تقول : « تعقّبت الخبر » إذا سألتَ عنه غير من سألتَ عنه أولَ مرة ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(١) أبو نصر هو أحمد بن حاتم الباهلي راويته روى عنه كتبه ، ويقال هو ابن أخته ، وذكر البغدادي في تاريخه أنه أوثق من روى عن الأصمعي ، وكان ثعلب يروي عن أبي نصر كتب الاصمعيّ . قال الزبيدي توفي سنة ٢٣١ هـ .

(٢) من البحر الطويل .

وقوله (تتايعن) التتايع التهافت في الشر واللجاج فيه من غير رويّة ولا يكون في الخير .

ومنه يقال : عقّبت في الغزو : إذا غزوتَ ثمّ ثنّيت[١] ، ومنه وأنشد لطفيل مثل هذا البيت أيضاً :

وأطنابُه أرسانُ جُرْدٍ كأنّها صُدورُ القَنامن باديءٍ ومُعقّبِ

أي أطناب البيت أرسانُ الخيل ، و (جُردٌ) قِصار الشّعور كأنها صدور القنا في الطول ، والمعنى كأنها القنا ، يُقال : جاء فلان على صدر راحلته أي جاء على راحلته ، ومنه قول الأعشى[٢] :

الواطئينَ على صدور نعالهم يمشونَ في الدَّفنِيّ والأَبرادِ

(الدفني) ثياب نسبت الى الدَّفنة وهي من اليمن[٣] ، أراد : الواطئين على نعالهم .

(١) وهو التعقيب أن يغزو الرجل ثم يثنّي من سنته ، وقال طفيل أيضاً يصف الخيل :

طوال الهوادي والمتون صليبةٌ مَغاويرُ فيهـا للأمير مُعقّبُ

(٢) وقبله يفتخر بقومه بني قيس بن ثعلبة :

إني امرؤ من عَصبة قَيْسية شُمّ الأنوفِ غرانقٍ أحْشادِ

(٣) وهي ثياب مخطّطة كما جاء في لسان العرب ولم يذكر نسبتهـا الى الدفنة .

وسُئِل عن قول طُفَيل :

« ٢ »

كأنَّه بعدَ ما صَدَّرنَ من عَرَقٍ سِيدٌ تَمطَّرَ جُنحَ الليلِ مَبلولُ[١]

قال ابن الأعرابي : بعد ماسال العرق من صدورهن سيدٌ ، والسيد الذئب .

قال أبو نصر : هذا خطأ ، إنما التفسير : كأن الفرس بعدما تقدمت الخيل بصدورها من عَرَق الصَّف صفّ الخيل ذئب أصابه مطر فهو ينجو . (تمطّر) أسرع يقال : تمطّر في العَدْو[٢] ، ومنه يقال : عَرَقة من قطاً ومن خيل ، وكلّ سطر وصفّ عَرقة[٣] .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) من بحر البسيط ، وروي في اللسان (مطر) و (عرق) : كأنهنّ وقد صدّرن . . .

(٢) واستشهد ابن منظور بالبيت على أن (تمطّر) اسرع في عدوه ، وقيل (ولعله تفسير ابن الأعرابي) تمطّر برز للمطر وبرده ، وأبو نصر فسره بمعنى اسرع في العدو ، وفهم أنه أصابه مطر من قوله (جنح الليل مبلول) .

(٣) وفي اللسان (عرق) والعَرَق السطر من الخيل والطير الواحد منها عَرَقة وهو الصف واستشهد ببيت طفيل ، وقال ابن بري في شرحه : العرق جمع عَرَقة وهو السطر من الخيل (وصدّر الفرس فهو مصدّر إذا سبق الخيل بصدره ، و (صدّرن) أخرجن صدورهن من الصف ، وذكر اللسان تفسير ابن الأعرابي بأنه (صدرن بعد ما عرقن) من العرق ، ولم يذكر تخطئة أبي نصر له في تفسيره .

وسُئِلَ عن بيت طُفيل :

« ٣ »

كأنَّ على أعْراقـهِ ولجامهِ   سَنا ضَرَمٍ من عَرفجٍ يتلهَّبُ[١]

فقال : كأن الفرس في شُقرته نار .

قال أبو نصر : هذا خطأ ، إنّما معناه . كأن حفيفَ جريه لهبُ نار ، وحَفيفها[٢] (صوت لهبها) ، واستشهد ببيت أوس :

إذا اجتهدا شدّاً حسبتَ عليهما   عَريشاً عليه النارُ فهو مُحَرَّقُ[٣]

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقال العجّاج :

كأنما يستضرمان العَرفجا   فوقَ الجلاذيّ إذا ما أمْحَجا[٤]

---

(١) من البحر الطويل .

(٢) التعبير ناقص ، ولعل الأصل (وحفيفها صوت لهبها) لأن الحفيف صوت الشيء تسمعه كالرنة أو طيران الطائر أو التهاب النار أو حركة أوراق الأشجار .

(٣) من الطويل .

(٤) من الرجز ، والجلاذيّ جمع جِلِذاء أو جُلَذيّة عن ابن شميل ، وهي المكان الخشن الغليظ من القُفّ المرتفع يقطع أخفاف الإبل وقلّما ينقاد ، و (أمحج) أسرَعَ .

وقال رؤبة :

كأن أيديها تهاوَى في الزَّهقْ ... من كَفْتِها شدًّا كإضرامِ الحرَقْ [1]

وقال امرؤ القيس :

جَموحاً سَبوحاً وإحضارُها ... كمَعْمعةِ السَّعَفِ الموقَدِ

وسُئِلَ عن بيت لعُروة بن الورد :

« ٤ »

مُطِلا على أعدائه يزجرونه ... بساحتهم زجرَ المَنيحِ المشهَّرِ [2]

فقال : (المنيح) الذي لانصيبَ له في القِـداح ، وإنما تُكَثَّر به القِداح .

قال أبو نصر : هذا خطأ ، إذا كان خاملاً [3] لانصيبَ له فلِمَ يُزجرُ ، ولم قال (المشهّر) ؟ وقـال أبو نصر : المنيح القِدْح المعروف بالفَوز فيستعار لأنه يُتبرّك به لكثرة فوزه [4] ،

(١) الزَّهَق محركـة : المطمئن من الأرض وفجٌّ الجبل المشرف ، والكفت الإسراع .

(٢) من البحر الطويل .

(٣) ساقطاً لا نباهة له

(٤) قال اللحياني : والمنيح قدح من أقداح الميسر يؤثر بفوزه فيستعار يُتَيمَّن بفوزه .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومنه الناقة المنيحة لأنها تُعار فيُشرب لبنها ثم تُردّ ، يقال ، مَنحت فلانا ناقتي إذا أعرتَه إيّاها وأنشد [١] .

مُفدًّى مُؤدًّى باليدين ملعّنٌ خليعُ لجامٍ فائزٌ مُتَمَنَّحُ
إذا امتنحته من قريش عصابةٌ غدا ربُّهُ قبل المُفيضينَ يقدحُ

وقال عمرو بن قميئة :

بأيديهم مَقرومةٌ ومَغالقٌ يُثيرُ بأرزاقِ العباد مَنيحُها [٢]

قال فهل يثيرَ الرزق مالا نصيبُ له ؟ وأنشد للبيد :

ذعرتُ قِلاصَ الثَّلج تحتَ ظِلالِهِ بمثنى الأيادي والمَنيحِ المُعَقَّبِ [٣]

---

(١) لابن مقبل من الطويل (الديوان ، نشر وزارة الثقافة ، ص ٣٠) ، ورواية اللسان لبيته الثاني (إذا امتنحته من مَعَدٍّ . . .) وبعده جاء شرحه في اللسان بقوله : يقول إذا استعاروا هذا القِدح غدا صاحبُه يقدح النار لثقته بفوزه ، وهذا هو المنيح المستعار ، وهذا يؤيد ما ذهب اليه أبو نصر ، على أنّه قد يطلق المنيح على ما لا نصيب له كقوله :

(فمهلا ياقُضاعُ فلا تكوني مَنيحاً في قِداح يَدَيْ مُجيلِ)

فانه أراد بالمنيح في هذا البيت الذي لا غنم له ولا غُرم عليه ، قال الجوهري : والمنيح سهم من سهام الميسر مما لا نصيب له إلاّ أن يمنح صاحبه شيئاً ، فهذا ما أراد ابن الأعرابي وإنما أخطأ في تفسير (المنيح) الوارد في بيت عروة بن الورد فإنه كثير الفوز يتبرك به ويستعار .

(٢) مقرومة مقشورة وهي القداح ، (والمغالق) من نعوت القداح التي يكون بها الفوز وليست من أسمائها .

(٣) من الطويل و (المعقّب) من عقّبه تعقيباً جاء بعقبه .

وأنشد لدريد بن الصِّمَّة :

وأصفرَ من قِداحِ النَّبعِ فرعٌ ... به عَلَمانِ من عَقَبٍ وضَرْسِ

وسُئِل عن بيت لأبي داود .

« ٥ »

وتدلّت بها المغارض فوق الـ ... أرض ما إنْ يُعلِهُنَّ السَّنامُ (١)

فقال ابن الأعرابي : المعارض بالعين .

قال أبو نصر : (المغارض) بالغين معجمةً الواحد مَغرضة وهو موضع الغَرْض من الناقة ، والغَرْض حِزام الرَّحل .

وسُئِل عن بيت الراعي :

« ٦ »

تكسو المفارقَ واللَّبَّاتِ ذا أرَجٍ ... من قُصبِ مُعتلفِ الكافورِ دَرّاجِ (٢)

فقال : (من قُضب) بالضاد معجمةً .

فقال ابو نصر : صحّفتَ إنما هو بالصاد أراد المسك من قُصب معتلفة الكافور ، والقُصْبُ المِعَى والجمع أقصاب ،

(١) من البحر الخفيف .

(٢) من البحر البسيط ، وقد استشهد اللسان ببيت الراعي على القصب بمعنى الامعاء .

ثم قال أبو نصر : الست تقول : ليته بحوض الثعلب ؟ وإنما هو بخَوض الثعلب (١) فقال أقول : بحوض وبخوض وقال : ألست تقول : بلّغ فيه الشيبُ بالغين المعجمة ؟ فقال نعم أقول : بلّغ وبلّع (٢) .

تمت الأبيات

قرأه عليّ إلى آخره . أبو نصر شاكر بن عبد الله وسمع بقراءته أبو محمد وأبو الحسن وأبو الفضل في ذي الحجة سنة عشر وأربعمائة .

وكتب محمد بن علي بن اسحق الكاتب بيده (٣) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عز الدين التنوخي

(١) وفي اللسان : وخوض الثعلب موضع باليمامة حكاه ثعلب .

(٢) بلغ الشيبُ في رأسه : ظهر أول مابظهر ، وفي اللسان (بلغ) وزعم البصريون أن ابن الاعرابي صحّف في نوادره فقال مكان بلّع بلّغ الشيب فلما قيل له انه تصحيف قال : بلّغ وبلّع ، قال أبو بكر الصولي وقرىء يوماً على أبي العباس ثعلب ، وأنا حاضر هذا ، فقال : الذي أكتب (بلّغ) كذا قال بالغين معجمةً .

(٣) عبارة القراءة والسماع الأخيرة كتبت بخط غير خط ناسخ الكتاب فلا شكّ في أن تاريخ نسخه متقدم على تاريخ كتابة محمد بن علي الكاتب فقد يكون في أواخر القرن الرابع أو قبل ذلك والله أعلم .

ابن بطوطة

هو الرحالة العالمي الشهير أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن يوسف اللَّوَاتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، بفتح الباء وضم الطاء الأولى مع التخفيف، وبعضهم يشددها والجاري على الألسنة خلافه.

ولَواتة التي ينسب إليها هي بفتح اللام قبيلة مغربية منازلها الأصلية ببرقة من أرض طرابلس وتوطن منها بجهات المغرب المختلفة أقوام نبغ منهم بطنجة قبل المترجم أسرة بني معجون الفقهاء الأعلام وبسبتة الفقيه المشاور أبو جعفر اللواتي المعروف بابن القابسي شيخ القاضي عياض وغيرُ هؤلاء.

على أن أسرة ابن بطوطة نفسها كانت أسرة علمية ظهر فيها القضاة ومشائخ العلم على ما أخبر هو عنها في الرحلة لما خيره ملك الهند في وظائف الوزارة والكتابة والإمارة والقضاء والتدريس فقال: «أما الوزارة والكتابة فليست شغلي، وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي». وذكر في الرحلة أيضاً أنه لما قدم إلى رندة في رحلته إلى الأندلس كان القاضي بها هو ابن عمه الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة. فهذا بيت ثان من لواتة نبغ بطنجة وإن لم نحط بأفراده علماً لسكوت المؤرخين وكتاب التراجم عن ذكرهم. ولولا هذه الإشارة العابرة من رحالتنا إلى ما كان لأهله من مجد علمي لما عرفنا عنه شيئاً من ذلك.

وكانت ولادة ابن بطوطة في مدينة طنجة يوم الاثنين ١٧ رجب عام ٧٠٣ (٢٤ شباط «فبراير» ١٣٠٤) والدولة المَرِينيّة في عنفوان

القوة ، والشعب المغربي في أوج تقدمه العلمي والأدبي ، فمن الطبيعي أن ينشأ ابن بطوطة وهو سليل أسرة علمية عريقة ، على طلب العلم وينبت في حجر والديه نباتاً حسناً ، والظاهر أنه إنما درس على مشائخ بلده ، إذ لانعلم له رحلة في هذا الصدد قبل رحلته الكبرى .

أما طلبه العلم وتحصيله طرفاً منه فمما لاشك فيه ، ويدلنا على ذلك أنه في أثناء رحلته لم يكن يخالط إلا أهل العلم ولا يجنح إلا إليهم ، وإذا لقي أحداً من كبار المشائخ ، ومشاهير العلماء حرص على الأخذ عنه والقراءة عليه ، وتَخَيُّرُه هذا لشيوخ الرواية هو وحده دليل على نزعة علمية أصيلة فيه .

ولا ننس أنه لما كان بالبصرة وشهد صلاة الجمعة فيها بمسجد عَلِيّ ، لاحظ أن الخطيب يلحن لحناً كثيراً جلياً على حد تعبيره ، فعجب من ذلك وذكره للقاضي فقال القاضي له : « إن هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئاً من علم النحو » . وهذا الأمر حمله على أن يسجل هذه الملاحظة للاعتبار فيقول : « وهذه عبرة لمن تفكر فيها ، سبحانه مغير الأشياء ومقلب الأمور ! هذه البصرة التي إلى أهلها انتهت رياسة النحو وفيها أصله وفرعه ، ومن أهلها إمامُه الذي لاينكر سبقه ، لايقيم خطيبها خطبة الجمعة على دؤوبه عليها » .

ثم لاننس أنه ولي منصب القضاء على المذهب المالكي في مدينة دهلي بالهند مدة تُنَيِّف على سبع سنين ثم بجزيرة ذيبة المهل أيضاً مايقرب من سنة ونصف ، كما ولي قضاء الركب التونسي للحج فورَ انفصاله عن المغرب ، ومات وهو قاض ببعض جهات المغرب كما يأتينا عن ابن مرزوق . فهذان الأمران ، وهما ملاحظة اللحن على خطيب البصرة وولايته للقضاء في بلاد عديدة ، زمناً طويلا ، يرشداننا إلى ما كان عليه من ثقافة لغوية وفقهية لايستهان بها .

أضف إلى أنه كان ينظم شعراً وسطاً على عادة العلماء المتفننين ، وقد أعطانا نموذجاً منه في الرحلة ، وهو سبعة أبيات من قصيدة مدح بها ملك الهند ، فهذا أيضاً دليل على ثقافته الأدبية .

ولم يشر في الرحلة على طولها إلى أنه تلقى شيئاً من الدراسات المماثلة لما ذُكِر عن أحد من العلماء الذين لقيهم في البلاد المختلفة ، وإنما ذكر سماعه لبعض كتب الحديث على بعض كبار العلماء وإجازتهم له ، وأخذه للعهد عن بعض مشائخ الصوفية على ما كان عليه الحال في الزمن الماضي ، وتلك طريقة العلماء الذين يحرصون على سعة الرواية وعلو السند ، فلا يقال إنه درس أثناء رحلته ، لأن ذلك لايفهم منه بحال .

وعليه فهو قد درس ببلد « طنجة » وزاول دراسته في فجر حياته لأنه لما شد رحله كان ابن اثنين وعشرين عاماً ، وفي الوقت نفسه كان قد انتهى من الدراسة ، وإذا دل هذا على شيء فعلى أن طنجة كانت غنية بعلمائها في ذلك الوقت ، وهم من الصنف الذي يستغني به الطالب في دراسته الكاملة فلا يحتاج إلى الهجرة في طلب العلم . والغريب أنه لم يُسمِّ لنا أحداً من شيوخه هؤلاء ، ولم يذكر شيئاً عن أوليته في الطلب ، وإنما المرجح أن يكون من بين شيوخه بعض أقاربه الذين قال عنهم ما قال .

هذا استنتاجنا بالنسبة إلى تكوينه العلمي ، وأما بالنسبة إلى تكوينه الخلقي فيظهر أن والديه اللذين لم يفتَأ يحن اليهما أشد الحنين طَوالَ رحلته ، قد ربياه تربية دينية متينة . فكان قوي العقيدة ، محافظاً على أداء الشعائر الدينية ، صبوراً ، صدوقاً ، واثقاً بالعناية الإلهية ، لاسيما عند الشدائد . وذلك ماجعله يخاطر بالتوغل في أقاصي البلاد والرحلة إلى أقطار العالم في زمن كانت المواصلات فيه شاقة جداً ، والطرق غير مأمونة ، وأكثر الشعوب والأمم على عداء متصل فيما بينها . ومن الدليل على شدة

تدينه أن باعثه الأول على الرحلة كان هو ارادة الحج وأداء هذه الفريضة التي لا تجب على الفور ، وهو لم يزل بعدُ في عنفوان الشباب وطراوة الإهاب .

وفي أثناء رحلته الطويلة كان لا يسمع برجل من الصالحين في بلد من البلدان وإن لم يكن على طريقه إلاّ عرّج عليه وزاره وتبرك به وطلب منه الدعاء له ولوالديه . وكذلك كان لا يجنح إلا لأفاضل الناس ولا يصحب إلا ذوي المروءات منهم . وشيء آخر هو أنه منذ ابتداء رحلته ، جرى على الاستفادة من سماحة الشريعة الغراء فكان يتزوج في كل بلد يحل به وينوي الإقامة فيه ، وربما تزوج في الطريق ويصطحب معه زوجته ولا يفارقها حتى تكون هي الراغبة في الفراق ، يتحامى بذلك عن الوقوع في العنت وهتك حرمات أهل البلد الذي ينزله ، وكل ذلك مما يدل على قوة دينه ونقاء عرضه .

ومن أخلاقه الأصيلة أنه كان سريع التأقلم إن صح هذا التعبير (١) ، ونعني به التكيف بطبيعة الإقليم الذي يستقر به ، والاندماج في أهله ومواطأتهم على عاداتهم ومألوفاتهم حتى يصبح كأنه واحد منهم وكأنما ولد بين ظهرانيهم وعاش معهم زماناً طويلا ، ولعل لبلده طنجة التي هي طريق رئيسي بين الشرق والغرب وطبيعة أهلها المرحة المنشرحة دخلاً في ذلك ، وهذا على ما نظن مما كان له أثر كبير في تغلغله في الأوساط الاجتماعية المختلفة للبلاد التي زارها ، أضف الى ذلك ما كان عليه من شدة الملاحظة وقوة الذاكرة ، فلا جرم أن تمتاز رحلته بكونها سجلاً مهماً للحياة الاجتماعية حتى والسياسية والاقتصادية في أقطار لم نكن لنعرف عنها شيئاً في الوقت الذي زارها فيه لولا انطباعاته هذه التي سجلها بكل دقة وأمانة .

وإلى هنا نكون قد ألممنا بالعناصر الأولية التي كونت هذه الشخصية القوية ، ولعل عنصراً آخر مادياً يكون ضروري الإضافة إلى هذه العناصر

(١) الأقلمة والتأقلم من المصطلحات العلمية الشائعة التي أقرها مجمع القاهرة . (لجنة المجلة)

المعنوية ، وهو متانة بنية الرجل وشدة أسره ، ولا نعدم في الرحلة ما يدلنا على ذلك من المشاق والمتاعب حتى والمعارك المسلحة التي اشترك فيها وواجهها بثبات وشجاعة . وبهذا تتم الصفات التي كان يتوفر عليها الرحالة الإسلامي الأكبر ، والتي هي بتوفيق الله سبب نجاحه المنقطع النظير .

وإذا قلنا الرحالة الإسلامي الأكبر فاننا نعني ما نقول ، لأنه لم يقم من بين المسلمين على كثرة الرحالين فيهم من جاب هذه البلاد العديدة التي جابها ابن بطوطة في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ودوّن مشاهداته فيها وترك لنا مثل هذا الأثر الجغرافي الممتع الذي يقبل له الكفاء ، على أنه حتى بين الأوربيين لم يقم رحالة يَفْري فَريه قبل العصر الحديث . ولهذا نجد مثل سيتزن (Seetzen) الرحالة الألماني يقول :

« أي مسافر أوربي في هذا العصر يمكنه الافتخار بأنه خصص قدر الزمن الذي يبلغ نصف حياة الإنسان في سبيل التفتيش عن مثل هذا العدد من البلدان السحيقة وذلك بشجاعة لا يزعزعها شيء ، ويتحمل المشقات العديدة ؟ بل أية أمة أوربية كان يمكنها لخمسة قرون خلت ايجاد مسافر يجوب المناطق الأجنبية بمثل هذا الاستقلال في الحكم ، وبمثل هذه المقدرة على المراقبة ، وبمثل هذه الدقة في كتابة الملحوظات ، مما اتصف به هذا الشيخ المراكشي المشهور في المجلدين من كتابه ؟ ان معلوماته عن الكثير من المقاطعات الإفريقية المجهولة وعن نهر النيجر وعن بلاد الزنج (زنجبار) الخ لا تقل فائدة عن معلومات لاون الإفريقي . أما جغرافية بلاد العرب وبخارى وكابول وقندهار فانها تستفيد كثيراً من كتابه ، حتى أخباره عن الهند وسيلان وسومطرة والصين فانه من الواجب على انكليز الهند(١) أن يقرأوها باهتمام خاص » .

(١) يقول هذا لما كان للانكليز هند .

واذ قد عرفنا قيمة الرجل وأهمية الرحلة التي قام بها ، فلنتأثر خطاه لمعرفة البلاد التي زارها والطرق التي سلكها ، من غير أن نقف معه في بلد أو طريق ، إلا نادراً جداً حين نمر بخبر طريف أو نكتة حارة أو وصف لشيء غريب يحسن الوقوف عنده . ولا نستوعب في ذلك أيضاً وإنما نعطي أمثلة قليلة منها لعلها تكون حافزاً لمطالعة أخبار الرحلة كلها في كتاب تحفة النظار .

وقد رحل صاحبنا ثلاث رحلات ، أولاهن وهي اطولهن بدأها في يوم الخميس الثاني من رجب سنة ٧٢٥ ﻫ (١٣٢٥ م) وانتهى منهـا يوم الجمعة أواخر شعبان عام ٧٥٠ ، ومعلوم أن قصده الأول كان هو الحج إلى بيت الله الحرام وأن خروجه كان من طنجة ، وأنه كان له من العمر حين ابتداء الرحلة اثنان وعشرون عاماً ، وذلك في أيام السلطان أبي سعيد المَرِيني الأكبر . وقد مر في طريقه بتلمسان وسلطانها يومئذ أبوتاشفين بن أبي حَمُّو ، ولم يمكث بها طويلا لأنه رغب في صحبة رسولَيْ ملك تونس الى بلاط تلمسان ، وهما القاضي أبو عبد الله النفزاوي والشيخ أبو عبد الله الزبيدي ، وكانا قد انفصلا عنها يوم وصوله اليها فلحق بهما ، وتوفي القاضي في الطريق فتأخر هذا الوفد لأجل دفن الميت . وارتحل صاحبنا مع رفقة من التجار ، ومات أحدهم أيضاً وترك مالاً فسطا عليه عامل بجاية ، قال : « وهـذا أول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين » ، يعني الحفصيين أصحاب تونس . ثم مرض صاحبنا بالحمى ولكنه تحامل على نفسه . وكان قد لقي ثانياً الشيخ أبا عبد الله الزبيدي فساعده كثيراً ، وبعد لأي وصل الى تونس ، قال : « فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدي ولقاء أبي الطيب بن القاضي أبي عبد الله النفزاوي (المتوفى) فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، ولم يسلم عليَّ أحد لعدم معرفتي بهم فوجدت من ذلك في النفس ما لم أملك

معه سوابق العبرة واشتد بكائي ، فشمر بحالي بعض الحجاج فأقبل علي بالسلام والإيناس وما زال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة » .

وهذا الضعف الذي بدا من صاحبنا في هذا الموقف هو مما يستغرب من رجل سيجوب فيما بعد أكثر المعمور وينقطع عن موطنه وأهله خمساً وعشرين سنة ، الا أنه كان الأول والآخر فلم نعد نراه شاكياً ولا باكيا ، وقد برهن بما بدا منه بعد ذلك في غير موقف من التجلد وعدم المبالاة بالأخطار مهما عظمت ، أنه إنما انفجر عند أبواب تونس لوداع المغرب ، وأن ذلك الضعف لم يكن له خلقاً أصيلاً كما حاول أن يلصقه به كل من كتب عنه من الكتاب المحدثين .

وعلى كل حال فقد دخل تونس ونزل بمدرسة الكتبيين منها ، وكان سلطانها يومئذ هو أبو يحيى بن أبي زكريا الحفصي ، ومن أعلامها حينئذ ابن القماز وابن عبد الرفيع وابن قداح الهواري ، قال : « ومن عوائده أنه يستند كل جمعة بعد صلاتها الى بعض اساطين الجامع الأعظم المعروف بجامع الزيتونة ، ويستفتيه الناس في المسائل ، فإذا أفتى في أربعين مسألة انصرف » . وقد حضر صلاة عيد الفطر بها ، ورأى بروز السلطان الى الصلاة ، ثم خرج في ركب الحاج التونسي إلى الحجاز ، وكان أكثره من المصامدة ، قال : « فقدموني قاضياً بينهم » . وولايته هذه للقضاء في فور انفصاله عن المغرب مما يدل على انه كان يتوفر على مؤهلات علمية كافية .

وخرج الركب من تونس في أواخر ذي القعدة سالكاً طريق الساحل فوصل الى طرابلس في ١٣ من ذي الحجة وتزوج صاحبنا ببنت لأحد التونسيين ، ثم انفصل عن الركب الذي أقام بطرابلس خوفاً من البرد والمطر وغادرها هو أواخر محرم سنة ٧٢٦ ه في جماعة من المصامدة وتقدم عليهم ، وفي أثناء الطريق وقع بينه وبين صهره التونسي مشاجرة أدت

الى فراق بنته ، ثم تزوج بنتاً لبعض طلبة فاس ، وأولم وليمة حبس لها الركب الذي تلاحق بهم بعد ما كان قد تخلف في طرابلس .

وفي أول جمادى الأولى وصل الركب الى مدينة الاسكندرية ، ويخصها الرحالة بوقفة طويلة وصف فيها عجائبها وذكر بعض علمائها ، منهم قاضيها عماد الدين الكندي « إمام من أئمة علم اللسان ، وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ، لم أر في مشارق الأرض ومغاربها عمامة أعظم منها ، رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته أن تملأ المحراب » .

وذكر أنه وجد في الإسكندرية ملك تونس المخلوع أبا يحيى زكرياء ابن أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني ومعه أولاده وصاحبه ووزيره .

وتجول في الأقاليم المصرية قصداً لزيارة بعض الصالحين ، وفي احدى القرى جرى بينه وبين ناظر القرية حديث عن مبلغ جباية بلده طنجة فأخبره أنها اثنا عشر ألف دينار ذهب فعجب الناظر وقال له : « رأيت هذه القرية ؟ فان مجباها اثنان وسبعون ألف دينـــار ذهباً » . قال : « وإنما عظمت مجابي ديار مصر لأن جميع أملاكها لبيت المال » . وفي مدينة أبيار حضر عند قاضيها يوم الركبة وهو يوم ارتقاب هلال شهر رمضان ، وفي مدينة دمياط شاهد عجباً وهو أنه « اذا دخلها أحد لم يكن له سبيل الخروج منها إلا بطابع الوالي ، فمن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به » ، وهذا الإجراء الذي كان يوحي به ـ ولا شك ـ موقع المدينة الحربي ، يشبه ما نسميه اليوم بتأشيرة السفر ، ولم يقل صاحبنا ما كان حظه بالنسبة الى هذا الإجراء ، هل الطبع في الكاغد أو على ذراعه فكان من أصحاب الأذرع الممدودة للكشف عنها عند الخروج ؟

وركب الرحالة النيل من مدينة سمنود مصعداً الى مصر « ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض » قال : « ولا يفتقر راكب النيل الى

استصحاب الزاد ، لأنه مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك . والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية الى مصر ، ومن مصر الى مدينة أسوان من الصعيد » . ووصل الى مصر فبهرته بعظمتها ، ووصف مشاهدها ومعالمها ، وذكر أشياء من أخبار أمرائها وأخلاق أهلها ، وكان سلطانها يومئذ محمد الناصر بن قلاوون ، وقد أثنى عليه وحمد سيرته ، وأعجب بالزاوية التي عمرها خارج القاهرة ، لكنه استطرد ففضل عليها الزاوية التي أنشأها السلطان أبو عنان بخارج فاس الجديد . ثم ذكر قضاة مصر فقال إن أعلاهم منزلة وأكبرهم قدراً هو القاضي الشافعي ، وكان إذ ذاك هو العالم بدر الدين بن جماعة الشهير . وذكر العلماء أيضاً فكان من بينهم النحوي الأندلسي المعروف أبو حيان ، وسافر من مصر متوجهاً الى الحجاز بطريق الصعيد ، وفي قوص عاصمة هذا الإقليم ، رأى العالم فتح الدين بن دقيق العيد ، وكان هو الخطيب بها ، فأثنى عليه بالفصاحة والبلاغة والسبق في هذا المضمار وقال : « لم أر من يماثله إلا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبري وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطبي » وواصل صاحبنا سفره في صعيد مصر الى مدينة أدفو ثم ركب النيل الى مدينة العطواني ومنها امتطى ظهر الجمال ودخل الصحراء مع جماعة من الأعراب الى مدينة عيذاب فوصلها بعد خمسة عشر يوماً . قال وأهلها البجاة وهم سود الألوان ، وأميرهم يعرف بالحدربي وكان تحت السيطرة الاسمية للناصر بن قلاوون . ولقي صاحبنا فيها مشائخ منهم الشيخ المسن محمد المراكشي « زعم أنه ابن المرتضى ملك مراكش (يعني الموحدي) وإن سنه خمس وتسعون سنة . »

ولم يتأت لصاحبنا أن يبحر من عيذاب إلى جدة كما كان يؤمل لأنه وجد صاحبها في حالة حرب مع الناصر ، وقد خرق المراكب وتعطلت طريق البحر ، فرجع عوده على بدئه مع قافلة الأعراب وقطع الصحراء

ثانية إلى الصعيد ثم إلى قوص ، وانحدر منها في النيل الى مصر ، وكان أوان مده ، فوصلها بعد مسيرة ثمان ، ولم يلبث فيها إلا ليلة واحدة وقصد الشام فاخترق شمال مصر كما اخترق جنوبها وذلك في منتصف شعبان سنة ٧٢٦ هـ ، وفي مركز على الحدود يسمى قطيا وجد صاحبنا ديواناً للتفتيش أهم من الذي حكى عنه بدمياط ، يوجد به العمال والكتاب والشهود فتفتش فيه أمتعة التجار ويبحث عما لديهم أعظم البحث ، ويؤخذ منهم الأعشار ، ولا يجاوزه أحد إلى الشام إلا ببراءة من مصر ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام ، احتياطاً على أموال الناس وتوقياً من الجواسيس العراقيين . وذلك يدل على أن العلاقات السياسية بين ملوك مصر والمغول الحاكمين بالعراق لم تكن على ما يرام ، ويقول الرحالة إن الطريق الفاصل بين البلادين كان في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه ، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به أثر ، ثم يأتي الأمير في الصباح فينظر الى الرمل فإن وجد به أثراً طالب العرب باحضار مؤثره فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء ، ويُعفي الأميرُ صاحبَنا ومن معه من الرسوم الواجبة والاجراءات اللازمة ، حينما يتحقق أنه مغربي ، لأن المغاربة لا يتعرض لهم في هذا المركز ، ويوجد عند الأمير موظف مغربي يسمى عبد الجليل هو الذي يقوم بمهمة التحقق من مغربية المسافرين . وبذلك لا يختلف هذا المركز عن أي مركز تفتيشي على الحدود بين بلادين مختلفين في هذا العصر حتى في تنصيب الخبراء من الأشخاص . .

ويصل صاحبنا إلى غزة من بلاد الشام وينتقل منها الى الخليل ثم الى القدس فيزور كل ما يمر به من المعاهد والمشاهد ، ويصف المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، ويذكر أسماء مشائخ القدس ، وقد أخذ عن بعضهم العهد ثم يغادرها متنقلا بين عدة مدن الى أن يصل الى صور قال : « وهي خراب

ومخارجها قرية معمورة وأكثر أهلها أرفاض ، ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء ، فأتى بعض أهل القرية يتوضأ ، فبدأ بغسل رجليه ، ثم غسل وجهه ، ولم يتمضمض ولا استنشق ، ثم مسح بعض رأسه ، فأخذت عليه في فعله ، فقال لي إن البناء يكون ابتداؤه من الأساس » . ويواصل السير إلى أن يصل بيروت ويقصد منها لزيارة قبر أبي يعقوب يوسف الذي يزعمون أنه من ملوك المغرب ، قال : « وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز ، وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر » . ثم يذكر حكايته في الفرار من الملك وما نسجه العوام حول ذلك من عناكب الخيال . والمعروف أن أبا يوسف يعقوب المنصور الموحدي هو الذي راجت حوله هذه الأسطورة[(١)] ، وابن بطوطة يجعله أبا يعقوب يوسف فلعله أخطأ في اسمه إن لم يكن ذلك من تصحيف النساخ .

ويمضي صاحبنا في طريقه الى طرابلس فيصفها ويذكر من وجد بها من العلماء ومنهم شمس الدين بن النقيب . وما يزال ينتقل من بلدة الى أخرى حتى يصل مدينة حلب فينوه بها كثيراً ، ويغلط في تسمية نهرها بالعاصي ظناً منه أنه النهر الذي يمر بحماة ، واسمه الصحيح القُوَيْق ، على أنه يشرح لنا سبب تسمية النهر بالعاصي شرحاً طريفاً فيقول : « قيل انه سمي بذلك لأنه يُخَيَّلُ لناظره أن جريانه من أسفل الى علو » . ولا ينسى أن يذكر من وجد بها من العلماء ومنهم ابن الزملكاني ، ويمر بعد ذلك بأنطاكية ثم بحصون الإسماعيلية : « ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر ، بهم يصيب من بعد عنه من أعدائه بالعراق وغيرها » الخ . كلامه عنهم ثم يمر بمنازل النصيرية ، الطائفة المعروفة ، فيتحدث عنهم وعن هوَسهم ، وبجبل لبنان فيصفه بخصب التربة

---

(١) انظر الاستقصا ج ل ص ١٨٤ .

وجمال الطبيعة وبأنه لا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى ، ومن لبنان يصل الى بعلبك فيذكر من خيراتها ومصنوعاتها الشيء الكثير ومن ذلك صحاف الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد ، يصنعون منها دسوتاً ، يُجعل بعضها في جوف بعض ، فيكون الدست يحتوي على عشر صحاف أو ملاعق ، واحدة منها أصغر من الأخرى الى النهاية ، ويصنعون لها غشاء من جلد تمسك به .

وفي ٩ من رمضان سنة ٧٢٦ ه وصل صاحبنا الى دمشق ، وكان عظيم الاشتياق اليها ، فنزل منها بمدرسة المالكية التي تعرف بالشرابشية . ووصفها فقال : « ودمشق هي التي تفضل جميع بلاد الدنيا حسناً ، وتتقدمها جمالاً ، وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها » .

ويجول فيها جولته فيتحدث عن الجامع الأموي باسهاب ، وعن غيره من المعاهد والمدارس والمزارات ، وعن الأوقاف الخيرية التي اوقفها أهل دمشق على السابلة والمحتاجين وتجهيز البنات الفقيرات إلى ازواجهن ، وإعانة العاجزين عن الحاج ، وفكاك الأسرى ، واصلاح الطرق ، ويذكر ان لطرق دمشق رصيفين في جنبيها يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان في وسطها ، ويحكي هذه الحكاية الطريفة مما يتعلق بالأوقاف الخيرية قال : « مررت يوماً ببعض ازقة دمشق فرأيت مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني ، فجمعها وذهب الرجل معه اليه فأراه إياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . وهذا من أحسن الأعمال ، فإن سيد الغلام لا بد له ان يضربه على كسر الصحن او ينهره ، وهو ايضاً ينكسر قلبه ويتغير لأجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب ، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير الى مثل هذا » .

وبالجملة فهو ينوه كثيراً بأخلاق أهل دمشق وبحسن معاملتهم للغريب وكرم ضيافتهم ، ومن كلامه يُعلم أن دمشق في ذلك العصر كانت لا تزال

عظيمة العمران برغم ما مر عليها من أحداث رأن المجتمع الإسلامي بها كان أرقى مايكون . ثم يذكر من لقي بها من العلماء وهم جماعة كثيرة ومنهم ابن الشحنة سمع عليه البخاري في أربعة عشر مجلساً بقراءة البرزالي وأجازه إجازة عامة كما أجازه غيره من أعلامها . ولم يأخذ عن ابن تيمية وإن قال انه رآه (١) .

وفي مستهل شوال السنة خرج من دمشق مع الركب الحجازي قاصداً معان ، ومنها دخل الصحراء « التي يقال إن داخلها مفقود وخارجها مولود » على حد تعبيره ، فوصل المدينة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . وبعد قيامه بزيارة الروضة الشريفة وشفاء غليله من تلك المعاهد المنيفة توجه إلى مكة المكرمة على الطريق المعتاد ، فأدى الفريضة على أتم وجه كما كان يؤمل ، وطاف بجميع المشاعر ، وزار كل المشاهد ، ووصف البيت الحرام والحياة في مكة ، وأثنى على أخلاق أهلها أحسن الثناء .

وفي ٢٠ من ذي الحجة خرج من مكة صحبة الركب العراقي ، وكان ركباً حافلا يحتوي على جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والأعاجم « لايحصى عددهم ، تموج بهم الأرض موجا ، ويسيرون سير السحاب المتراكم فمن خرج لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس » . أما تجهيز هذا الركب بالمواد والمؤن والأدوية والأشربة ووسائل الراحة فحدث عنه ولا حرج ، وكان أميره يدعى البهلوان وهو من أهل الموصل ، وجميع مايتوفر عليه هذا الركب من الاستعداد الكامل هو من حسنات ملك العراق أبي سعيد ، وقد قرب أمير الركب صاحبنا وأكرمه

---

(١) الصحيح أنه لم يره لأن ابن تيمية قد دخل سجن دمشق في شهر شعبان (عام ٧٢٦ هـ) وبقي فيه الى أن توفاه الله تعالى ، وأما ابن بطوطة فقد دخل دمشق في رمضان من (سنة ٧٢٦ هـ) وبهذا يزول الاشتباه . (لجنة المجلة)

ويعجبك حديث الرحالة عن الطريق بين الحجاز والعراق عبر نجد وخاصة عن مصانع الماء في الصحراء القاحلة ، وسير الركب ليلا ، وقد أوقدت المشاعل أمام القطار والمحارات فترى الأرض تتلألأ نوراً والليل قد عاد نهاراً ، وبالجملة فان ركب الحج العراقي فيا يحدث صاحبنا لايضاهيه ركب ، وهو يتأخر بمكة عن الركبين الشامي والمصري أربعة أيام تفتح فيها الكعبة الشريفة فيدخلها هو ومن ينضوي تحت لوائه ، ويكثر أفراده من الصدقة والعطاءات لأهل مكة حتى انهم « ربما وجدوا إنساناً نائماً فجعلوا في فيه الذهب والفضة إلى أن يفيق » . وتؤثر نفقاتهم السخية في سعر الذهب بمكة فيرخص سومه . وذكر الرحالة أنه لما عاد إلى مكة في سنة ٧٢٨ ﻫ بصحبة هذا الركب وقع التنويه باسم ملك العراق أبي سعيد على المنبر في الحرم . وما ذلك إلا لأن الشهي تفتح اللها كما يقولون .

ويترك صاحبنا الركب العراقي في النجف ، بعد ما يزور مشاهد آل البيت ، فيقصد البصرة عن طريق واسط ، ويصف المدينة العربية الشهيرة ، ويقص حكاية خطيبها اللحانة التي تقدمت ، ثم يجوب شط العرب ويخترق بلاد فارس . وفي عبدان يلتقي بأحد العباد فيدعو له بقوله : « بلغك الله مرادك في الدنيا والآخرة » . ويعقب هو بهذه العبارة : « فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا ، وهو السياحة في الأرض ، وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري فيا أعلم ، وبقيت الأخرى ، والرجاء قوي في رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنة » . وهنا أعرب عن أن مراده كان هو السياحة في الأرض فقط ، ولم يكن قبل يذكر إلا الحج ، كما أنه ذكر هنا عادته في سفره ، وهي أنه لايعود من طريق سلكها ما أمكنه ذلك ، وأنه كان يريد زيارة بغداد ولكن بعض أهل البصرة أشار عليه بالسفر صوب بلاد العجم فعمل باشارته لما كانت موافقة لعادته . وزار في هذه البلاد مدينة تستر وأقام في ضيافة شيخها صدر الدين من ذرية سهل بن

عبد الله التستري الشهير ١٦ يوماً ، قال : فلم أر أعجب من ترتيبه ولا أرغد من طعامه . . . وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة ، وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ، ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغر لدي كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ولم ألق فيمن لقيتهم مثله .

وزار أيضاً مدينة أصفهان ووصف من ترف أهلها ما يقضى منه العجب وأخذ العهد عن بعض شيوخها وذلك في ٢٤ من جمادى الآخرة سنة ٧٢٧ هـ . ثم زار شيراز وأثنى عليها كثيراً وجعلها نظيرة دمشق في كثير من الأوصاف ، وذكر من غريب أمورها أن النساء يجتمعن بها لسماع الوعظ كل يوم اثنين وخميس وجمعة في المسجد الأعظم ، وربما اجتمع منهن الألف والألفان بأيديهن المراوح يروحن بها على أنفسهن من شدة الحر ، قال : « ولم أر اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد » . ولاحظ شدة تعظيم الأعاجم للعلم والعلماء حتى أن سلاطينهم ربما سموا أبناءهم بأسماء مشيخة العلم ، كسلطان شيراز أبي اسحق بن محمد شاه الذي سماه أبوه باسم الشيخ أبي اسحق الكازروني ، قال : « والفقيه ببلاد الأعاجم كلها انما يخاطب بمولانا » . وممن لقي بشيراز الشيخ مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداد إذ سمع عليه مسند الإمام الشافعي ، ومشارق الأنوار للصاغاني ، ومن المشاهد التي زارها هناك قبر الشاعر سعدي المشهور ، قال : « وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي وربما ألم في كلامه بالعربي » .

ثم دخل البرية بعد ذلك قاصداً الكوفة ، ومنها توجه الى بغداد دار السلام وحاضرة الإسلام كما قال ، وكان يوجد بها في رجب السنة حين سمع مسند الدارمي على الشيخ سراج الدين القزويني . ولم يطل الكلام عليها ، لأنها كانت في إدبار من أمرها ، لكنه تبسط في الكلام على ملكها أبي سعيد بهادر وموكبه العظيم ، وكان قد سافر بمعيته أياماً ، ثم زار تبريز فأعجب

بسوقها الجامعة وخاصة بسوق الجوهريين ، حيث حار بصره مما رأى من أنواع الجواهر وهي بأيدي مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة ، وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير ، وهم بين أيدي التجار يعرضون الجوهر على نساء الأتراك ، وهن يشترينه كثيراً ويتنافسن فيه ، قال : « فرأيت من ذلك كله فتنة يتعوذ بالله منها » .

وكان ملك العراق أبو سعيد عرف أنه يريد الحج الى بيت الله الحرام ، فأمر له بالزاد والركوب في السبيل مع المحمل ، إلا أنه رأى الموسم لا يزال بعيداً فسافر الى الموصل وديار بكر ثم عاد فلحق بركب العراق ، وكان أميره هو البهلوان سابق الذكر فأظهر من الاعتناء بصاحبنا ما لا مزيد عليه . . ووصل مكة وحج ثانية عام ٧٢٧ هـ . ولما كان قد اختار المجاورة بالحرم الشريف ، فقد حج ثالثة في العام الموالي ، وحضر في هذه الحجة أناس من بلده طنجة ومن قصر المجاز ومن القصر الكبير ، جلهم من الفقهاء ، فتعرف منهم أخبار المغرب ، ثم انه أقام مجاوراً بمكة أيضاً الى سنة ٧٢٩ هـ ، وحج للمرة الرابعة ، وفي السنة التي بعدها وقعت فتنة بمكة فخرج منها الى جدة وركب البحر لأول مرة الى اليمن عبر سواكن ، فطاف بأرجاء القطر العربي العريق ، ولم ينس أن يسجل التشابه بين اليمنيين والمغاربة في كثير من الأحوال « مما يقوي القول بأن صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير » . وأبحر من عدن الى مدينة زيلع بالصومال ، ولاحظ عليها شدة القذارة بحيث انه لم يستطع المبيت بها ، ففضل النوم بالمركب مع اضطراب البحر . ثم توجه الى مقدشو عاصمة تلك البلاد ولقي سلطانها وهو يلقب بالشيخ ، ومن غريب ما ذكر من أحوالها أنه عند ما تصدح الموسيقى الرسمية ، لا يتحرك أحد ولا يتزحزح من مقامه ، ومن كان ماشياً وقف كما يجري الآن تماماً في بعض البلاد ذات الحكم العسكري ، وعاد الى اليمن عبر ظفار ، ثم عرج على هرمز وسيراف والبحرين ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ووصف مغاص اللؤلؤ فيا بين تلك البلاد ، ورجع أدراجه فعبر الى القطيف مجتازاً باليمامة قصد مكة فحج للمرة الخامسة وذلك سنة ٧٣٢ هـ وذكر أن الملك الناصر بن قلاوون حج في تلك السنة ، ولكنه لم يتصل به على ما يظهر كما لم يتصل به في مصر .

وهنا يكون ابن بطوطة قد قضى في الرحلة سبع سنين ونصفاً وحج خمس مرات ، وطاف العالم العربي كله وجانباً مهماً من العالم الإسلامي ، ومع ذلك فان القسم الأكبر من رحلته كان لا يزال أمامه . ولنتأثره مسرعين فقد أتى جدة وأراد أن يبحر الى اليمن قصد الهند ، ولكنه لم يجد مركباً ولا رفيقاً ، فعاد الى مصر بطريق الصعيد ثم الى الشام عن طريق بلبيس وركب البحر الى العلايا بجنوبي آسيا الصغرى قال : « وهي أول بلاد الروم » فجاس خلالها وتحدث عن أمرائها ، وكان الأتراك حينذاك لم يستقروا وحدتهم بعد ، فحديثه عنهم في هذه الفترة من تاريخهم السياسي له أهمية كبيرة ، ومما يلفت النظر في حديثه عن هذه البلاد منظمات الفتيان المسماة بالأخية التي كان يلتقي بها في طول البلاد وعرضها ، وهي منظمات شبيهة بالنقابات والكشفية وتغلب عليها الصبغة الدينية والخلقية فتنتظم فيها جماعات من الشباب ينتسبون الى مهنة معينة ، ويتخذون مقراً لهم يجتمعون فيه كل ليلة ويأكلون ويشربون ويغنون ويرقصون ، مع المحافظة على الشعائر الإسلامية ، والاعتناء بإكرام الضيف وتسلية الغريب وإعانته على قضاء مآربه ، ولهم في هذه الطريقة التي يسمونها الفتوة سند يتصل بالإمام علي كرم الله وجهه ، وشعارهم فيها لبس السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة ، ولعلهم إنما اتخذوا السراويل شعاراً لما يهدفون اليه من التزام الصيانة والعفاف .

وانتقل صاحبنا الى شبه جزيرة القرَم من ثغر صنوب بشمالي آسيا الصغرى ، ثم الى أزاق فبلاد البلغار التي وصلها في رمضان ، قال :

« فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء في أثناء إفطارنا فصليناهـا وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر اثر ذلك ، وكذلك يقصر النهار بها في فصله » وفي هذه البلاد الفسيحة ركب العربات لأول مرة وأكل لحم الخيل وذاق البوزة وهي نوع من النبيذ ، وبما أن أهل البلاد أحناف فإنهم لم يكونوا يتحرجون من شربها . ولاحظ كثرة الخيل بها وانخفاض ثمنها بحيث يكون اصدارها إلى الهند تجارة رابحة جدا ، واتصل بالسلطان محمد أزبك خان في بلاطه المُتَنَقِّل ، وهو « مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق » ، وقد حظي عند هذا السلطان حتى أرسله بمعية إحدى زوجاته الأربع إلى القسطنطينية ، وكانت تقصد زيارة أبيهـا ملك الروم ، فأتيحت له فرصة زيارة العاصمة البيزنطية الشهيرة ولم تكن فُتحت بعد .

وعاد إلى مدينة السرا عاصمة السلطان أوزبك ، ثم اخترق طريق خوارزم فبخارى وسمرقند وترمذ فخراسان فأفغنستان إلى الهند ، ويطول بنا الأمر لو وقفنا معه في أي بلد من هذه البلاد وتتبعنا ملاحظاته الدقيقة وأحاديثه الطلية عن البلاد وأهلها .

وقد وصل الى الهند في محرم سنة ٧٣٤ هـ ، وفي الحين أخبر به ملك الهند محمد شاه بن تغلق ، إذ كان ذلك هو النظام المتبع في هذه البلاد لا يجاوز أحد حدودهـا حتى يرفع به الى الملك ، فصدر الأمر بإكرامه والاعتناء به ، ثم اتصل به بعد ذلك في الرابع من شوال السنة ، وحظي عنده ، وخيره في مناصب الدولة على ما سبقت الإشارة اليه فاختار القضاء لأنه منصب آبائه ، وفعلا وُلي القضاء المالكي بعاصمة الهند دهلي إلى سنة ٧٤٢ هـ أي ما ينيف على سبعة أعوام ، وبذلك أمكنه أن يذكر من أحوال هذا الملك وبلاطه وحاشيته الشيء الكثير ، وخاصة عن كرمه وأعطياته الخيالية التي لايفوت صاحبنا أن يصرفها بالعملة المغربية ليدل على أهميتها ،

وكذلك ذكر فتكاته التي تغطي على إحسانه ، والحقيقة أن كتابته عن الهند وعن أمرائها وعن أحوالها الاجتماعية ، وهي تكاد تستبد بالجزء الثاني من الرحلة ، هي من خير ما كتب ابن بطوطة تعريفاً بالبلاد التي زارها ، وستبقى مرجعاً هاماً للمؤرخين والباحثين في شؤون الهند وحضارة أهله تحت الحكم الإسلامي .

وفي جمادى الآخرة من عام ٧٤٢ هـ ترك الهند على رأس سفارة عظيمة إلى الصين وبرغم الاستعدادات الفائقة ، فان هذه السفارة قد تعوقت عن الوصول إلى غايتها ، وطوحت الأقدار بصاحبنا إلى جزائر ذيبة المهل بالمحيط الهندي حيث أقام عاماً ونصفاً ، وولي القضاء من طرف سلطانتها خديجة بنت جلال الدين وهو يحكي غرائب عن حياة أهل هذه الجزائر لأنه بحكم إقامته هذه المدة بين أظهرهم وتوليه السلطة في بلادهم تعرف على كثير من أحوالهم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم غادر هذه الجزائر متوجهاً إلى الصين عن طريق سيلان فبنغالة فالملايو فسومطرة فالزيتون التي هي ميناء صينية على المحيط الهادي تعرف الآن بتسيوان تشو . وتوغل صاحبنا في داخل البلاد التي تقع على مقربة من ساحل المحيط الأعظم حتى وصل خان بالق التي هي بكين عاصمة الصين اليوم ، ومع أنه لم يجب الصين كما جاب الهند فإنه لم يخل رحلته من أخبار مهمة عن هذه البلاد ولا سيا أحوال المسلمين بها ، وتحدث عن براعة الصينيين في فن التصوير وصناعة الفخار ، وعن تعاملهم بأوراق النقد وادخارهم الذهب والفضة بشكل سبائك كما يعمل مصرف أي دولة في هذا العصر . واستمع إلى حديثه عنهم في التصوير : « ومن عجيب ماشاهدت لهم من ذلك أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الأسواق » الخ . وما ندري هل اصطحب معه صورة منها أم لا ؟

أما حديثه عن أمن الطرق والتحفظ على أموال الناس وسهولة المواصلات وتنظيم الملاحة التجارية فشيء لايقل عما لدى أرقى الدول العصرية اليوم ، وفي الشرق على العموم كانت الطرق حسبما يروي صاحبنا ، مأمونة ومقسمة إلى مراحل يجد فيها المسافر كل مايحتاج اليه وبعضها كما في بلاد المليبار ، كان مكتنفاً من الجانبين في أكثره بدكاكين التجار وبعضهـا كالطريق بين دهلي ومدينة ظهار كانت عليها النصب فيها عدد الأميال التي قطعها المسافر والتي بقيت له ، فالأمر كما يقال لاجديد تحت الشمس .

ومن الصين ينكفيء صاحبنا راجعاً عن طريق سومطرة فالهند فاليمن فبلاد العجم فالعراق فالشام فمصر إلى أن يصل مكة في ٢٢ شعبان ٧٤٩ هـ فيقيم بها إلى موسم الحج ويحج للمرة السادسة ثم يسافر إلى المدينة المنورة ومنها إلى القدس ثم إلى مصر ويلتفي عائداً إلى المغرب بعد أن غاب عنه ٢٥ سنة فيدخل فاساً في أواخر شعبان عام ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) ويمثل بين يدي السلطان أبي عنان المريني فيغمره بإحسانه كما قال ويثني عليه أحسن الثناء بل يعمل مقارنة بينه وبين من شاهدهم من ملوك الدنيا فيفضله عليهم .

* * *

لم تستقر النوى بصاحبنا بعد رحلته الأولى هـذه ، حتى عاد فبدأ رحلته الثانية في مملكة غرناطة بالأندلس وذلك لئلا يفوته هذا القسم من العالم الإسلامي مع أنه بِرُؤْيَةٍ منه وَمَسْمَعٍ ، فقد أصبح الآن حريصاً على استيعاب البلاد الإسلامية بالزيارة ليتأتى له أن يقول مفتخراً على السائح المصري الذي لقيه بمدينة برصى (وهو من الصالحين جال الأرض إلا أنه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الأندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الأقاليم) ، وليصبح بعد ذلك (مسافر العرب والعجم) كما قال له الشيخ جلال الدين التبريزي في بنغالة .

وقد خرج صاحبنا في هذه الرحلة من بلدة طنجة فمر بسبتة وجبل طارق ، وكان ملكها حينئذ أبو الحجاج يوسف بن اسماعيل بن نصر ، ولقي بها من الأعلام أبا القاسم الشريف وأبا سعيد بن لب وأبا البركات ابن الحاج وأبا القاسم بن عاصم . وقد ذكره ابن الخطيب في الإحاطة ولم يزد على تسميته شيئاً غير ما نقله من خط شيخه أبي البركات تبييناً لحاله ونصه : (هذا رجل لديه مشاركة يسيرة في الطلب ، رحل من بلاده إلى بلاد الشرق يوم الخميس الثاني من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، فدخل بلاد مصر والشام وعراق العجم وبلاد الهند والسند والصين وصين الصين وبلاد اليمن ، وحج عام ستة وعشرين وسبعمائة ولقي من الملوك والمشائخ عالماً ، وجاور بمكة ، واستقر عند ملك الهند فحظي لديه وولاه القضاء ، وأفاد مالاً جسيماً ، وكانت رحلته على رسم الصوفية زياً وسجية ، ثم قفل الى بلاد المغرب ودخل جزيرة الأندلس فحكى بها أحوال المشرق وما استفاد من أهله فكُذِّب) .

وقال : « لقيته بغرناطة وبتنا معه ببستان أبي القاسم بن عاصم بقرية نبلة ، وحدثنا في تلك الليلة وفي اليوم قبلها عن البلاد المشرقية وغيرها فأخبر أنه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطينية العظمى وهي على قدر مدينة مسقفة كلها ، وفيها اثنا عشر ألف أسقف » (١) .

وقد عقب ابن الخطيب على هذه الفذلكة بقوله : « قلت وأحاديثه في الغرابة أبعد غوراً من هذا . وانتقل الى العدوة فدخل بلاد السودان ثم إن ملك المغرب استدعاه فلحق به وأمره بتدوين رحلته » .

وهذا الاجتماع الذي كان في بستان ابن عاصم أشار له صاحبنا في الرحلة وحكى أنهم أقاموا فيه يومين وليلة . وزاد كاتب الرحلة أبو عبد الله بن

(١) هذا مخالف لما في الرحلة فانظرها .

جزي فقال : « كنت معهم في ذلك البستان ومتعنا الشيخ أبو عبد الله (يعني ابن بطوطة) بأخبار رحلته وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم واستفدنا منه الفوائد العجيبة » . .

* * *

وعاد صاحبنا الى فاس ، فلم ينشب أن شرع في رحلته الثالثة الى بلاد السودان . وفي سجلماسة أخذ أهبته لهذه الرحلة والتحق برفقة يرأسها أحد رجال مسوفة ، وذلك في غرة محرم فاتح ٧٥٣ هـ ، فبعد ٢٥ يوماً وصل الى تغازي ، وهي قرية الملح بناؤها من أحجار الملح المسقفة بجلود الجمال ، وتجارتها في الملح مع السوادين تجارة عظيمة . وبعد استراحة عشرة أيام ، استأنف الرحلة عبر الصحراء ، وكانت رحلة شاقة ومحفوفة بالمخاطر ، وأخيراً وصل الى مدينة ايوالاتن أول عمالة السودان وهي مدينة أكثر سكانها من مسوفة ، وهم مع محافظتهم على الصلاة وقراءة القرآن وطلب العلم ، لا غيرة لهم على أزواجهم ، وللنساء هنالك حياة اجتماعية متحررة من كل القيود .

وخرج صاحبنا من ايوالاتن متوجهاً صوب مالي عاصمة البلاد فلقي سلطانها منسى سليمان ، ولم ينل منه خيراً ، غير أنه وصفه بالعدل والاستقامة وأتى بوصف معجب لبلاطه ولخروجه إلى صلاة العيد ، ثم توجه إلى تمبكتو ومنها الى تكدا ، ووصل في تنقلاته بين هذه المدن الى نهر النيجر ، فظنه النيل ، ورأى التمساح في بعض ضفافه « كأنه قارب صغير » كما رأى فرس البحر في بعض خلجانه ، ومن المحقق أنه جاب في هذه الرحلة أماكن لم يصل اليها سائح من قبله ، ووصفها وصفاً معجباً . فلهذا القسم من رحلته أهميته التي لا تقل عن أقسامها الأخرى .

وبينما هو في تكدا وافاه أمر السلطان أبي عنان بالرجوع إلى المغرب ، فكر راجعاً الى سجلماسة عن طريق توات . وفي نهاية عام ٧٥٤ هـ وصل إلى فاس بعد أن قضى في هذه الرحلة عامين كاملين ، وباضافتهما مع الزمن الذي قضاه في رحلة الأندلس يكون قد صرف زهاء ثمانية وعشرين عاماً في التنقل والترحال ، فما أعظمها من همة وهكذا تكون الرجال .

وأمره السلطان بإملاء رحلته على الكاتب أبي عبد الله بن جزي ، وهو أحد أولاد العالم أبي القاسم بن جزي ، فقام هذا بما كلف به من ضم أطراف الرحلة وترتيبها ، وتصنيفها وتهذيبها وسماها تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ؛ وانتهى من ذلك في ٣ من ذي الحجة عام ٧٥٦ هـ . . . وكأن السلطان أبا عنان لما وفد عليه ابن بطوطة أولاً في عام خمسين غفل عن أمره بتدوين رحلته ، والعذر له ، فقد كان مشتغلا بتثبيت دعائم ملكه ، ومصارعة أعدائه . ثم تنبه للأمر بعد ذلك فنفذه كما رأيت ، باستدعاء ابن بطوطة من أقصى بلاد السودان ، على أنه قد قيل إنه كان موفداً من قبله الى تلك الديار في مهمة ، ولا يظهر ذلك من سياق الخبر في الرحلة .

* * *

وبعد انتهاء الرحلة ينسدل حجاب كثيف على حياة ابن بطوطة التي وإن طالت بعد ذلك أكثر من عقدين من السنين فاننا لم نعد نعرف عنها شيئاً بعد أن لابسناها وصاحبناها في أفراحها وأتراحها مدة ثمان وعشرين سنة ، غير أن ابن حجر في « الدرر الكامنة » نقل من خط ابن مرزوق : « أنه بقي الى سنة سبع وسبعين ومات وهو متولي القضاء ببعض البلاد » فيرشد هذا الكلام الى أنه حظي عند بني مرين وولوه منصب القضاء الذي قال عنه « انه شغله وشغل آبائه » .

ويزيد ابن مرزوق فيقول فيما قرأه ابن حجر بخطه : « ولا أعلم أحداً جال في البــلاد كرحلته ، وكان مع ذلك جواداً محسناً » ، وهي شهادة لرحالتنا من العلامة ابن مرزوق تعضدها قراءة الرحلة . على أن ابن حجر أشار أيضاً الى دفاع ابن مرزوق عن الرحالة فيما كان من اتهام أبي البركات ابن الحاج له فقال : « وكان البلفيقي رماه بالكذب فبرأه ابن مرزوق » ، والبلفيقي هو أبو البركات بن الحاج . وقد سبق نقل كلامه عن الإحاطة .

ولم يبين ابن مرزوق الجهة التي كان ابن بطوطة يتولى بها القضاء ، ولكن ابن الخطيب في « نفاضة الجراب » أثبت نص كتاب وجهه إلى صاحبنا بصفته قاضي تامسنا ، يرجو منه المساعدة على شراء قطعة أرض بجواره ، يعدها للفلاحة عند الحاجة ، وذلك لما قرر الاستقرار بالمغرب ، فمن هذا نعرف مكان ولايته للقضاء الذي كان هو محل وفاته .

وعلى ظاهر كلام ابن مرزوق ، فان ابن بطوطة توفي سنة ٧٧٧ ه ، وفي دائرة المعارف الإسلامية أنه توفي سنة ٧٧٩ ه (١٣٧٧ م) وعليه كثير من الكتاب المحدثين .

ومن هنا يعلم أنه لم يتوف بطنجة ، وان كان يوجد بها ضريح ينسب اليه ، ويفد الرحالة من كل جنس إذا قدموا طنجة عليه . لكننا نستريب في أن يكون ذلك هو مرقد الرحالة الحقيقي .

أولاً ــ لأن وفاته لم تكن بطنجة .

ثانياً ــ لأن اسم الضريح في ألسنة الناس أحمــد بن علال وليس هو اسم بطوطة .

ثالثاً ــ لأن طنجة خضعت للاحتلال الأجنبي ، البرتغالي ثم الإنجليزي ما ينيف على قرنين من الزمن بعد موت ابن بطوطة فيبعد أن يبقى قبره محفوظاً ومعروفاً بعد هذه المدة الطويلة التي تغيرت فيها معالم المدينة من

جميع الوجوه . وعلى كل حال فهو وإن يكنْ ذا صفة رمزية ، ضريح متواضع جداً لا يتناسب وعظمة الرجل الذي طبقت سمعته الآفاق .

وقبل أن نختم هذه الترجمة لا بد أن ننقل ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن رحلة صاحبنا ، لأن فيه رداً على ما سبق عن ابن الخطيب من الاسترابة بأخبار الرحالة الصدوق ، قال ابن خلدون : « ورد على المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين ، رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة ، وكان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ، ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند ، واتصل بملكها لذلك العهد ، وهو السلطان محمد شاه ، وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ، ثم انقلب إلى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان ، وكان يحدث عن شأن رحلته ، وما رأى من العجائب بممالك الأرض ، وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون ، مثل أن ملك الهند إذا خرج للسفر أحضر أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه ، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافّةً إلى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر يرمي بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى ان يدخل ديوانه ، وامثال هذه الحكايات ، فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه ، ولقيت أنا يومئذ في بعض الأيام وزير السلطان فارس بن ودرار البعيد الصيت ، ففاوضته في هذا الشأن وأريته انكار أخبار ذلك الرجل ، لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس : اياك أن تستنكر مثل هذا في أحوال الدول بما أنك لم تره فتكون كابن الوزير الناشىء في السجن ، وذلك أن وزيراً اعتقله سلطانه فمكث في السجن سنين ربى فيها ابنه في ذلك الحبس ،

فلما أدرك وعقل سأل عن اللُّحمان التي كان يتغذى بها ، فإذا قال له أبوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم ؟ فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول يا أبت : تراها مثل الفأر فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفأر ، وكذا في لحم البقر والإبل إذ لم يعاين في محبسه الا الفأرة فيحسِبُها كلها أبناء جنس للفأرة ، وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الإغراب ، كما قدمناه أول الكتاب . فليرجع الإنسان الى أصوله ، وليكن مهيمناً على نفسه ، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ، ومستقيم فطرته ، فما دخل في نطاق الإمكان قبله وما خرج عنه رفضه ، وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق فان نطاقه أوسع شيء ، فلا يفرض حداً بين الواقعات وإنما مرادنا بحسب المادة التي للشيء ، فإذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم في نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه ، (وقل رب زدني علماً) » .

عبد الله كنون

مفعول ـ مفاعيل

هل يُجمع (مفعول) جمعاً مكسراً على (مفاعيل) ؟

يقول ابن هشام [1] في شرحه (بانت سعاد) :

« والصفة المبدوء بالميم ، كمضروب ، يمتنع جمعها جمع تكسير . وشذ نحو (ملاعين) و (مشائيم) » .

ونقل الخضري في حاشيته على ابن عقيل ، على ابن مالك :

ما قاله الحريري في جمع التكسير : (من ان هذا الجمع لم تتعرض له طائفة من النحاة ، لفساد ألسنة العامة ، إلا في الجموع . فلم يُحتَج للتنبيه عليها ، لأن النحو انما وضع لإصلاح ما فسد) وقيل : (لأن كل الجموع مرجعها السّماع ، فالأولى بها كتب اللغة ، التي تذكر عقيب كل مفرد على جمعه) .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقال بعض المتأخرين : (أكثر الجموع سماعي ، لكن منها ما يغلب فنحتاج الى ذكره ليُحمل عليه ما لم يُسمع جمعه) .

ويوم أصدر رفيق العظم كتابه (أشهر مشاهير الإسلام) أخذ عليه الشنقيطي الكبير : أن جمع مشهور على مشاهير .

وفي هذا ، كتب الشيخ رشيد رضا [2] الى الأمير شكيب أرسلان ، كأنه يجيبه عن فتوى استفتاه فيها : (وأما جمع « مكتوب » على مكاتيب ،

---

(١) ابن هشام : صاحب السيرة النبوية ، ومن كبار أئمة النحو .

(٢) الشيخ رشيد ممن يستأنس برأيه في اللغة وفي النحو .

فلا يثبت الا بالسماع ، ولا أعرف فيه سماعاً . فاجمعه على « مكتوبات » ـ لأنه قياسي) .

ثم قال : (وكان الشنقيطي الكبير ، انتقد رفيق بك العظم تسمية تاريخه : « أشهر مشاهير الإسلام » لهذه العلة . وهي « مفعول لا تجمع على مفاعيل قياساً » ولكن لفظ مشاهير استعمله المتقدمون ، ومنهم صاحب القاموس في غير مادته .) اهـ

وقد نستخلص مما تقدم :

١ ـ ان مفعول لا يجمع جمع تكسير على « مفاعيل » إلاّ شذوذاً وفي كلمات معدودات .

٢ ـ ان الجمع من خصائص كتب اللغة لا كتب النحو . فهذه يستحيل عليها أن تذكر لكل مفرد جمعه . وانما تضع القاعدة العامة ، وكتب اللغة هي التي تذكر بعد كل مفرد جمعه .

٣ ـ ما لم يرد له في كتب اللغة جمع ، يحمل على غيره .

١ً ـ قول ابن هشام ان مفعول لا يكسر إلاّ في ما شذ ، وضرب مثلا (ملاعين) و (مشائيم)[1] جمع (ملعون) و (مشؤوم) .

يرد عليه : ان هذا الجمع المكسّر ذكرت كتب اللغة كثيراً من أمثلته ، ففي لسان العرب :

(ميامين) جمع (ميمون) و (مكافيف) جمع (مكفوف) و (مجانين)

---

(١) وللأحوص اليربوعي :

مشائيمُ ليسوا مُصلحين عشيرةً ولا ناعياً إلاّ بشؤم غُرابها

تهذيب اصلاح المنطق ج ٢ ص ٢٣٦

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

جمع (مجنون) و (مماليك) جمع (مملوك) و (مراجيع) جمع (مرجوع)[١] و (متابيع)[٢] جمع (متبوع) .

ومن تتبع اللسان ، وسائر كتب اللغة ، وجد العشرات من جمع (مفعول) جمعاً مكسَّراً على (مفاعيل) .

وجاءت (مجاهيد) جمعاً لـ (مجهود) في كلام لعروة ابن الزبير يصف فيه مصر . قال : (فرأيت أهلها مجاهيد ، قد حُمل عليهم فوق طاقتهم) !

وجُمعت (مشغول) على (مشاغيل) في قول ابن ابي حفصة ، من قصيدة يمدح بها الخليفة المأمون :

أضحى إمامُ الهُدى المأمونُ مشتغلاً   في الدينِ والناسُ في الدنيا مَشاغيل[٣]

---

(١) ويقول زهير :

« مراجيع وشم في نواشر معصم »

مراجيع جمع (مرجوع) وهو الذي أعيد سواده .

(لسان العرب مادة رجع)

(٢) وقول المرار يصف إبلا :

« متابيع بسط متئمات رواجع »

(اللسان مادة رجع)

(٣) ومن حق الأدب أن نشير إلى قصة اتصلت بهذا البيت :

قال عمّار بن عقيل : قال لي ابن أبي حفصة الشاعر :

أعلمت أن المأمون لا يُبصر الشعر ؟

قلت : ومن يكون أفرسَ منه ؟ والله إنّا لننشد أول البيت ، فيسبق الى آخره ، من غير أن يكون سمعه .

قال : اني أنشدته بيتاً أجدت فيه ، فلم أرَهُ تحرك له . وهو :

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلاً   في الدين والناسُ في الدنيا مشاغيلُ

فقلت له : ما زدت على ان جعلته عجوزاً في محرابها ، في يدها سُبحة . فمن يقوم بأمر الدنيا اذا كان هو مشغول عنها ، وهو المطوق لها . ألا قلت كما قال عمك في الوليد :

فلا هو في الدنيا يُضيع نصيبَه   ولا عرضُ الدنيا عن الدين شاغلُه

قال : الآن عرفت أني أخطأت .

وكذلك جاءت في كتاب بعث به المأمون من مصر ـ وكان يومئذ فيها ـ إلى نائبه على بغداد : اسحق بن ابراهيم الخزاعي ، في المحنة بخلق القرآن :

(.. وأما ابن نوح ، وابن حاتم ، فاعلمهم : أنهم (مشاغيل) بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد . وان امير المؤمنين لو لم يستحلّ محاربتهم في الله إلا لإرباهم ، وما نزل به كتاب الله في أمثالهم ، لاستحل ذلك ، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركاً .

وجاءت (مناكيد) جمع (منكود) في قصيدة المتنبي هجا فيها كافوراً الاخشيدي :

لا تشتر العبدَ إلاّ والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد

ويسمي النحاة المفعول به واخواته : المفاعيل الخمسة .

وسمى ابن حيان البستي ـ وهو من علماء القرن الرابع الهجري ـ كتاباً له : (مشاهير علماء الأمصار) ذلك قبل ان سمّى العظم كتابه (مشاهير الإسلام) بئات من الأعوام .

٢ ـ ان كتب اللغة :

(آ) في الكثير من صيغ (مفعول) لم تذكر له جمعاً مع الحاجة اليه ، لصعوبة الجري على القاعدة العامة فيها . هذا في القديم من المعاجم وقد جاراها الحديث في أغلب هذه الصيغ .

(ب) استعملت في العصرين : الحديث والمعاصر ، ألفاظ على صيغة (المفعول) كان لا بد من استعمالها ـ على تجوز في بعضها ـ كما كان لا بد من جمعها .

من ذلك :

المرسوم : من (رسم) ورسم على كذا إذا كتب . والرواسيم في ما قيل كتب كانت في الجاهلية .

استعمل المتأخرون (المرسوم) لما يأمر به الأمير أو الحاكم أو يكتب به . وحصره المتأخرون بما يصدر عن رئيس الدولة بما له قوة القانون . وجمعوها على (مراسيم) خلافاً لما نص عليه ابن هشام .

فاللفظة صحيحة الأصل، محدثة الاستعمال، لاغنى عنها مفردةً ومجموعةً ،جمعاً مكسراً على ما وردت في الوسيط (١) وفي المنجد (٢) ، وفي متن اللغة (٣) .

المشروع : لغة : ما سوّغه الشرع . استعاروه لما يهيأ من تدبير يُراد النظر فيه قبل اصداره مرسوماً أو قانوناً . وهو من هذه الناحية من طائفة المرسوم ، وهو في بعض حالاته مقدمةٌ له . فهو بهذا لا غنى عنه مفرداً ولا بد له من جمع .

جمعه المنجد على (مشاريع) جمعَه (مرسوم) على (مراسيم) .

وجمعه الوسيط على (مشروعات) جمعاً قياسياً .

وقد يكون في جمعه على (مشاريع) مطابقةً لجمع (مراسيم) ولما جرت عليه أكثر الحكومات العربية .

ولا يمنع هذا الجمع من أن يجمع (مشروع) جمعاً قياسياً على (مشروعات) في معنى آخر . فيقال (مشاريع) لما يقدم للدراسة القانونية ، على ما تقدم و (مشروعات) لما تقوم به الحكومة أو غيرها من الشركات والهيئات العامة من أعمال انشائية أو عمرانية ، ومن سائر الأعمال الحضارية .

المنشور : عرّفه (الوسيط) بأنه : (بيان يذاع بين الناس ليعلموه) وكذلك عرّفه (المنجد) فقال : (المنشور ما كان غير مختوم من كتب الملوك والرؤساء) ولم يجمعاه .

(١) المعجم الوسيط : هو المعجم الذي أخرجه مجمع اللغة العربية بمصر .
(٢) المنجد : معجم اليسوعيين .
(٣) متن اللغة معجم أحمد رضا العاملي .

وعرّفه (متن اللغة) تعريفاً يقرب من تعريفها ، وزاد عليها : (وهو المعروف عند الأتراك بـ الفَرْمان (بفتح الراء) وجمعه على (مناشير) .

اما ان المنشور : هو الفَرْمان ففيه نظر . اذ المنشور وهو بيان أو اعلان يختلف عن الفَرْمان الذي هو عهد من السلطان بالولاية أو بما هو في حكمها إلى الولاة أو من هم في حكمهم .

والفَرْمان ساكن الراء ، لا كما جاء خطأً في (المنجد) وفي (متن اللغة) .

ويقال في (المنشور) ما قيل في المشروع من أنه يجوز أن يكون له جمعان جمع تكسير (مناشير) لما يصدر عن أمير أو حاكم أو رئيس ، وجمع سلامة (منشورات) لما تصدره المطابع ودور الكتب .

الموضوع : هو مصدر وضع ، واسم مفعول منه ، جمعه المنجد على مواضيع وموضوعات . أما الوسيط فلم يورد له جمعاً .

وعرّف (الموضوع) فيها بأنه : « المادة التي يبنى عليها الكلام ـ ومن الأحاديث : المُختَلَقة . أفلا يجوز أن نستعمل الجمعين في معنيين مختلفين ؟ : فنستعمل (الموضوعات) للأحاديث المختلقة ، و (المواضيع) للمادة التي يبنى عليها العلم أو الكلام ؟

المجرور : ومثل ذلك المجرور . جمعه النحاة في كلامهم عن الأعراب جمعاً قياسياً . فقالوا (المرفوعات) جمع (مرفوع) و (المنصوبات) جمع (منصوب) و (المجرورات) جمع (مجرور) واستعمل المعاصرون (المجرور) لمجرى من الماء ، يغلب أن يكون الماء المِلح ، ولما هو تحت سطح الأرض وهو استعمال موفق لفظاً ومعنىً ، وجمعوا هذا (المجرور) على (مجارير) ففرقوا بذلك بين المعنيين . والتفريق بين الجمع لاختلاف في المعنى ، معروف في العربية .

والمجرور لفظ لم يرد له ذكر في المعاجم العصرية التي راجعتها مفرداً ولا مجموعاً . ومن صيغ (المفعول) التي وردت مجموعة على (مفاعيل) المزامير جمع (مزمور) والمياسير جمع (ميسور) جاءت في الوسيط [١] وفي المنجد .

وأما مجموع ، ومجروح ، ومركوب ، ومسعود ، ومستور ، ومكتوب ، فلم تجمع إلا في المنجد جمعها جمع تكسير ، على (مفاعيل) .

وأهملت ألفاظ كثيرة من هذه الصيغة يحتاج الى نص على جمعها .

٣ — من هذا الذي قدمناه ، نرى : أن القول بأن صيغة (مفعول) لا تجمع على (مفاعيل) الا شذوذاً ، قول تنقضه ، ـ بل هو قد نقضت عدداً كبيراً منه ـ الأمثلة التي ضربناها من قديمة ومن حديثة ، لا بد من الأخذ بها .

ومن الألفاظ التي يلفت جمعها النظر (المطمورة) فقد جاءت مجموعة على (مطامير) في قول المتنبي :

ودون سميساط المطامير والملا وأودية مجهـولة وهجول

فقد ذهبت الشراح إلى أن (المطامير) جمع (مطمورة) وهي الحفيرة تحت الأرض .

وهكذا جاء جمعها في اللسان ، وفي المتن ، وفي المنجد .

وفي اللسان (المطمور) العالي . و (المطمور) الأسفل ولم يورد لها جمعاً .

فإذا جرينا على القياس جمعنا ، (مطمور) على (مطمورات) .

أفلا يكون غريباً . أن تجمع (مطمورة) على (مطامير) و (مطمور) على مطمورات . وكان من الأولى أن يعكس الأمر ، فتجمع (مطمورة) على (مطمورات) و (مطمور) على مطامير) .

---

(١) جمعَ (الوسيط) ميسور على (مياسير) غير انه جعله مصدراً على وزن مفعول . وكذلك فعل (متن اللغة) وهو رأي سيبويه في المعسور والميسور .

قاضي قضاة بغداد

وأثره في الفقه الإسلامي

كانت العراق منذ القديم ، لا سيما في الكوفة ، مركزاً لمدرسة أهل الرأي ، التي أسسها وانتمى اليها ونشرها كثيرون ، أمثال الصحابي عبد الله ابن مسعود (المتوفى سنة ٣٢ ﻫ) ، وحماد بن أبي سليمان (المتوفى سنة ١٢٠ ﻫ) ، والإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان (المتوفى سنة ١٥٠ ﻫ) ، وصاحبيه أبي يوسف ، موضوع هذه الكلمة ، ومحمد بن الحسن الشيباني ، وغيرهم .

ARCHIVE

أبو يوسف وآثاره :

أبو يوسف هو يعقوب بن ابراهيم بن حبيب بن سعد الأنصاري ، من أهل الكوفة . ولد سنة ١١٣ ﻫ ، وتوفي سنة ١٨٢ ﻫ .

وكان عالماً كبيراً ، مجاهداً في العلم منذ طفولته ، شغوفاً به وداعياً له . فقد روي عنه انه قال : « العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك » .

وكان فقيهاً حافظاً ، ومن أكثر أهل العراق اتباعاً للحديث ، جالس منذ صغره الإمام الأعظم أبا حنيفة ، وجالس القاضي محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى (المتوفى سنة ١٤٨ ﻫ) ، وقال فيهما : « ما كان في الدنيا أحب إلي من مجلس أجلسه مع أبي حنيفة وابن أبي ليلى ، فإني ما رأيت فقيهاً أفقه من أبي حنيفة ولا قاضياً خيراً من ابن أبي ليلى » .

وفي الواقع تأثر أبو يوسف بفقه أبي حنيفة كثيراً ، ولازمه ، وشاركه في تدقيق المسائل وتدوين المذهب ونشره . وخالفه أحياناً في المسألة بعد

المسألة من مسائل الأصول والفروع ، حتى عدّه بعضهم ، أمثال الكوثري وغيره ، مجتهداً مطلقاً . ولكن أبا يوسف حافظ على انتسابه لأبي حنيفة اعترافاً بجميله . وعدّه معظم المؤرخين ، مع محمد بن الحسن الشيباني ، من أشهر أصحابه ، على اعتبار أن فقه الإمام الأعظم وأصحابه فقه جماعة عن جماعة ، لا فقه مجتهد واحد .

وكذلك أخذ أبو يوسف بعض أساليب فن القضاء ونهجه عن ابن أبي ليلى ، الذي أخذها بدوره عن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعن القاضي شريح . وكان بوجه خاص يعتمد على قضاء الإمام علي ، لا سيا في مسائل الفرائض ، لقول النبي (ﷺ) : « أقضاكم علي » .

وروي عن عمار بن أبي مالك انه قال : « لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة ولا ابن أبي ليلى ، ولكنه هو نشر قولها ، وبث علمها » . وهذا القول ، على ما فيه من مبالغة ، يدل على الأثر البارز الذي كان لأبي يوسف في تاريخ الفقه الإسلامي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد ساعده على ذلك قدومه الى بغداد ، وتوليه القضاء لثلاثة من الخلفاء ، وهم المهدي وموسى الهادي ثم هارون الرشيد . وهو أول من دعي بقاضي القضاة في الإسلام ، وأول من خص العلماء بما هم عليه من لباس خاص . فاشتهر في القضاء ، ثم أورثه ابنه يوسف الذي ولاّه في حياته قضاء الجانب الغربي من بغداد ، وأقره الرشيد على هذا التعيين .

وبذلك لم ينفر أبو يوسف من القضاء ، كما نفر منه أبو حنيفة ، إذ رفض أن يتولى منصب القضاء عندما عرضه عليه ابن هبيرة ثم أبو جعفر المنصور . ولكن روي عن أبي يوسف أنه قال قبيل وفاته : « يا ليتني مت على ما كنت عليه من الفقر واني لم أدخل في القضاء ، على أني ما تعمدت بحمد الله ونعمته جوراً ولا حابيت خصماً على خصم من سلطان أو سوقة » .

وروي أنه قال : « اللهم إنك تعلم أني لم أجُر في حكم حكمت به بين عبادك متعمداً ، ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك . وكل ما أشكل عليّ جعلت أبا حنيفة بيني وبينك ، وكان عندي والله من يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه » .

وكان للقضايا العملية التي عرضت على ابي يوسف في القضاء أثر كبير في اجتهاده ، وفي تفريع المسائل والتوسع بأعمال الرأي ، والتيسير على الناس ، وذلك كله بطريق الأدلة الشرعية النقلية من قرآن كريم وحديث ، أو الأدلة العقلية من إجماع وقياس ، وأحياناً أيضاً بطريق الاستحسان والمخارج وما أشبه .

وكذلك فتح منصب القضاء لأبي يوسف المجال لأجل تطبيق المذهب الحنفي ، والتأثير في نشره الواسع ، لقاضي القضاة بالإضافة إلى إشرافه على الأحكام ، كان مشرفاً على الحكام وعلى توليتهم في مختلف أقاليم الدولة . وكان الى ذلك مقرباً الى الخليفة والى أولي الأمر في الحكم والإدارة ، فكان يشير عليهم ويفتيهم في مشاكلهم وواقعاتهم .

وعلى الجملة ، توصل أبو يوسف الفقيه والقاضي والمشاوَر والمفتي إلى الاشتراك الفعلي البارز في تأسيس المذهب الحنفي ، وفي بنائه وإغنائه بما اشترك فيه من تعديل وإضافة اقتضاهما اطلاعه على بعض الأحاديث التي صحت عنده ، وخبرته التي اكتسبها في فصل المنازعات القضائية . وهكذا ساعد ابو يوسف على نشر المذهب الحنفي وإشاعته علمياً وعملياً ، حتى أصبح اليوم أوسع المذاهب الإسلامية انتشاراً .

وأقوال أبي يوسف في الفقه مشهورة في كتب المذهب الحنفي . وله مؤلفات عديدة . وصل إلينا منها بوجه خاص كتاب الخراج ، وكتاب

الرد على سير الاوزاعي ، وكتاب اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى . فكتاب الخراج سنشير إليه فيا بعد .

أما كتاب الرد على سير الاوزاعي ، فيبحث في أمور الجهاد والغنائم وأحكام السلم والحرب . ويتطرق إلى بيان أقوال الإمام الاوزاعي فيها ، ثم يقارنها ويرد عليها بما جاء عن أئمة المذهب الحنفي . وهذا الكتاب نشرته لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدر آباد . وكذلك نشر الكتاب في الجزء الأخير من كتاب الأم للشافعي ، مع تعليقات هذا الإمام عليه .

وأما كتاب اختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلى ، فإنه طبع أيضاً في آخر كتاب الأم ، مع تعليقات الشافعي عليه . ففي هذا الكتاب يذكر ابو يوسف الخلاف بين أستاذيه في ابواب الفقه المختلفة ـ وهو خير من اطلع على هذا الخلاف ـ ثم يقارن ذلك بما قاله بعض أئمة السلف كالإمام علي وابن عباس والقاضي شريح وغيرهم ، وينتهي إلى مايراه صوابا ، وهو غالباً ما يكون مع أبي حنيفة . وعلى كل ، فهذا النوع من الكتابة والتصنيف يدل على التدقيق العلمي العميق ، وعلى الخبرة الواقعية والدراية العملية . وهو مساهمة ثمينة فيا عرف باختلاف الفقهاء ، أو بحث مقارنة المذاهب والشرائع .

نهج أبي يوسف الفقهي :

كان نهج أبي يوسف في أصول الفقه نهج مدرسة العراق ومدرسة أهل الرأي على العموم . ولكنه قبل بكثير من الأحاديث النبوية التي صحت عنده ، والتي لم يقبل بها سائر أصحابه . فلذا كان يميل أحياناً إلى أهل الحديث وإلى الأدلة النقلية من كتاب وسنة ، إذ روي عنه أنه قال عند

وفاته : « كل ما أفتيت به فقد رجعت عنه ، إلا ما وافق كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ » .

وكذلك روي عن الإمام احمد بن حنبل أنه قال : « أول ماطلبت الحديث ذهبت إلى أبي يوسف القاضي » . ولكنه لم يحدّث عنه لا هو ولا معظم المحدثين الثقات في صحاحهم وسننهم .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد كانت طريقة أبي يوسف طريقة أهل الرأي اجمالا . فلذا توسع مثلهم في الاجتهاد واعمال الرأي ، بطريق الأدلة العقلية من اجماع وقياس واستحسان . لا بل رويت عنه أقضية كان فيها أكثر تحرراً من سائر أصحابه في المذهب ، كما نرى من الأمثلة التي نعرضها فيما بعد .

ولا يسمح لنا المجال بتفصيل هذه الأدلة جميعاً . ولكن لابأس بتوضيح وجيز لدليل الاستحسان ، بالنظر لتأثيره في بعض أقوال أبي يوسف بوجه خاص .

فالاستحسان ، كما عرّفه السرخسي صاحب كتاب المبسوط في شرح كتب ظاهر الرواية في المذهب الحنفي ، هو « ترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس ... وترك العسر لليسر » . وقد أسنده إلى الآية الكريمة « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، وإلى الحديث الشريف : « خير دينكم اليسر » ، والى أمثال ذلك من الأدلة والسابقات . وبكلمة أخرى ، الاستحسان هو دليل شرعي معناه ترك القياس واتباع ما يقتضيه العرف أو المصلحة أو الضرورة أو الحاجة . مثاله : جوّز الحنفية بيع الوفاء لحاجة الناس اليه ، وذلك بطريق الاستحسان وخلافاً للقياس .

وقد برز أثر الاستحسان الفقهي وأثر منصب القضاء والمشاورات الإدارية في مواضيع عديدة من أبواب الفقه التي عالجها أبو يوسف . منها عنايته بالخراج وأمور الادارة ومسؤولية الولاة . ومنها توسعه في المخارج أو الحيل الشرعية ،

وتغير الاجتهاد وفق تغير الحاجات والعادات ، والتيسير للضرورة وعموم البلوى ، ومنع التعسف في استعمال الحقوق ، وبعض الأقضية الخاصة . ونحن نذكر بعض الأمثلة من هذه المسائل جميعا .

الخراج والإدارة :

من الكتب التي صنفها أبو يوسف ووصلت الينا كتابه المشهور في الخراج . وهو رسالة قيمة كتبها الى الخليفة هارون الرشيد ، تبحث بوجه أصلي في الغنائم والخراج والصدقات والجزية والعشور وسائر أمور الدولة الضرائبية والمالية ، كما تبحث بإيجاز في بعض أحكام القضاء وما أشبه .

والرسالة مصدرة بمقدمة كلها عظات وحكم ، تنوه بفضل العمل والتقوى ، وتؤكد على أهمية العدل والمساواة بين الرعية . ومن هذه الحكم ما سار مثلا بين الناس وتواتر على الألسنة . نذكر بعضها ان نفعت الذكرى .

قال ابو يوسف للرشيد في العمل والإصلاح : « لا تؤخر عمل اليوم الى غد ... وليس شيء أحب إلى الله من الإصلاح ولا أبغض اليه من الفساد » .

وقال له في التأني والتقوى والمساواة : « واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد ، ولا تخف في الله لومة لائم ، واحذر فان الخوف بالقلب وليس باللسان ، واتق الله فانما التقوى بالتوقي ومن يتق الله يقه » .

أما في العدل ، فقد أكثر النصح ، وحذّر من الجور وذكّر بالمسؤولية ، حيث قال : « ان الرعاة مؤدون الى ربهم ما يؤدي الراعي الى ربه ، فأقم الحق فيما ولاّك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ... وجور الراعي هلاك للرعية ، واستعانته بغير أهل الثقة والخير هلاك للعامة ... ويجزي الله كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب » .

ثم تعرض أبو يوسف في كتابه إلى مسألة خطيرة ، ألا وهي مسؤولية الدولة في المحافظة على حقوق الرعية . فقال : « ليس الإمام أن يخرج شيئاً من يد أحد إلا بحق ثابت معروف » . وروى عن عمر بن عبد العزيز كيف عوّض رجلاً من إفساد زرعه بسبب مرور الجيش عليه .

وهذا مثل رائع عن مسؤولية الإدارة عن ولاتها وعمالها ، وتوكيـد لفكرة المصلحة العامة وواجب الدولة في رعايتها وفي خدمة الرعية ، مصداقاً لقوله ﷺ : « الإمام راع ومسؤول عن رعيته » . وهذه لعمري قاعدة عادلة ، توافق أحدث النظريات في مسؤولية الدولة في العلم الإداري اليوم .

ومعناها أن الدولة وموظفيها ، كباراً كانوا أم صغارا ، هم خدام الرعية وحماة حقوقهم ، لا أسيادهم وظلاّموهم . وقد صدق المعري حيث انتقد من تنامى هذه القاعدة بقوله :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدَوا مصالحها وهم أجراؤها

ولم يكتف أبو يوسف بتنبيه الرشيد الى هذه القاعدة فحسب ، بل أشار عليه بالإشراف الفعلي على تطبيقها ، وذلك باقتراحه عليه : « أنا أرى أن تبعث قوماً من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته ، يسألون عن سيرة العمال وما عملوا به في البلاد ، وكيف جبوا الخراج على ما أمروا به وعلى ما وظف على أهل الخراج واستقر . فإذا ثبت ذلك عندك وصح ، أُخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ ، حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجعة والنكال ... » . فهذا والله من أحسن الإشراف ، وأحزم الرقابة ، وأصوب النظر الى مصلحة الرعية ، وأصح المحافظة على الولاية العامة كما يجب أن تكون .

ثم بمعناه أشار أبو يوسف على هارون الرشيد بوجوب أمر القضاة أن يضعوا في بيت مال المسلمين ما يقع في أيديهم من مال الغرباء وليس لذلك طالب ولا وارث ، أو ما وجد مع اللصوص مما ليس له طالب ولا مدع . وهذا كله حرص على مال الرعية ومال الدولة جميعا .

أما بحث الخراج وسائر الضرائب ، فهو بحث قيم ، يلقي نوراً واضحاً على أحكام هـــذه المسائل ، من الناحيتين التاريخية والفقهية . ولم يكتف أبو يوسف بتوضيح ذلك ، بل دقق فيما جرى عليه أئمة السلف من تعديل لأحكام الخراج ، وذكر أدلتهم بروح علمية انتقادية .

مثاله ذكر أبو يوسف كيف كان مقدار ضريبة الخراج في ايام عمر ابن الخطاب (ض) ، ثم كيف تغير في أيامه وفاقاً للمصلحة . وكذلك ذكر كيف كان العمل قبل عمر ان تقسم الأرضون بين الفاتحين كما توزع الغنائم بعد حسم خمسها ليصرف في مصارفه الشرعية وفاقاً للآية الكريمة في سورة الأنفال ، ثم كيف عدّل عمر عن هذا النهج بعد فتح الشام والعراق ومصر وخراسان ، إذ رفض توزيع الأرضين بين الفاتحين ، بل أبقاها بيد أهلها بعد أن وضع عليها الخراج ووضع عليهم الجزية ، وذلك لأجل تأمين موارد دائمة للدولة .

ARCHIVE http://archivebeta.Sakhrit.com

وكذلك وردت في كتاب الخراج أحكام أخرى كثيرة في فروع الفقه ، لاسيما في مسألة الضمان في التصرفات الفعلية والجنايات . وسنرى بعض الأمثلة منها فيما بعد .

المخارج والحيل الشرعية :

اختلف الفقهاء كثيراً في جواز الحيل والمخارج في مسائل الفقه . فجمهورهم ، ومنهم الأئمة مالك والشافعي وابن حنبل ، حرموا الحيل جميعاً على اعتبار انها ذرائع تفوّت مقاصد الشريعة ، وإنه يجب سد كل الذرائع لإحياء هذه المقاصد وتطبيقها .

ومنهم من أجاز الحيل بشروط معلومة ، كما نرى ذلك في كتب بعض الحنفية ، أمثال كتاب أبي بكر الخصاف في الحيل . وقد نسب إلى

الإمام أبي يوسف أنه ألف كتاباً في الحيل . ولكنه لم يصل إلينا ، بل نقلت إلينا بعض الأمثلة منه .

وخلاصة طريقة الحيل أو المخارج المشروعة ، التي جوزها أبو يوسف وأمثاله ، انها - بعبارتهم - تدابير لطيفة لا تصطدم مع النصوص ، ويقصد منها التخلص من المآزق والمآثم والحرام ، والخروج إلى الحلال من غير إبطال حق أو احقاق باطل أو الدخول في التمويه والشبهة .

مثال ذلك ما روي عن أهل الرأي من انهم اعتبروا اليمين على نية الحالف ان كان مظلوماً ، على حين أن الأصل في اليمين أن تكون على نية المستحلف لتعلق حقه به . وما هذا الاعتبار إلا للخروج من الظلم من دون ابطال حق الغير .

وكذلك روى الخطيب عن أبي يوسف أن أمير المؤمنين هارون الرشيد استدعاه مرة إلى داره ليلا ، وأخبره أن عيسى بن جعفر ، الذي كان يجلس إلى جانبه ، رفض أن يهبه جاريته أو ان يبيعها منه ، متعللا بأنه كان قد حلف يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة مايملك أن لا يبيع تلك الجارية ولا يهبها . وطلب الرشيد إلى أبي يوسف أن يجد له مخرجاً من ذلك . فأجابه : « يهب لك نصفها ويبيعك نصفها » ، على اعتبار أن اليمين كانت على البيع الكامل أو الهبة الكاملة لا على بيع البعض أو هبته . وهكذا انتهى الأمر حسب فتوى أبي يوسف ، وأخرجت حيلته الاثنين من المأزق من غير إبطال حق ولا إحقاق باطل .

ولا شك في أن المجال لايسمح هنا باطالة شرح هذا الموضوع ، ولا التبسط في أمثلته العديدة ، التي سردها وافترضها الفقهاء الحنفية ، الذين صنفوا في المخارج والحيل .

تغير الأحكام :

من أهم القواعد التي أفتى بها أبو يوسف بطريق الاستحسان قاعدة تغير الأحكام . فهذه القاعده قد نوّه بها كثير من الفقهاء ، أمثال العز بن عبد السلام وابن قيّم الجوزية وشهاب الدين القرافي ونجم الدين الطوفي وغيرهم . ومعناها تغيُّر الاجتهاد والفتاوى والأحكام بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال ، تبعاً لتغير العلة أو العادة أو لاقتضاء الضرورة أو المصلحة ، وذلك وفق الضوابط والشروط التي وضعها الفقهاء .

ومن أمثلة تطبيق هذه القاعدة ، التي رواها ابو يوسف في كتاب الخراج والتي أشرنا إليها آنفاً ، تنقيص ضريبة الخراج في أيامه عما كانت عليه في أيام عمر بن الخطاب (ض) ، بسبب تغير الأمصار والأحوال .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولا بد من الإشارة إلى أن الرأي السائد عند جمهور الفقهاء وأئمة المذاهب ، ومنهم أبو حنيفة وصاحبه محمد بن الحسن الشيباني ، يحصر قاعدة تغير الأحكام في المسائل التي لا نص عليها في أدلة الشرع المنقولة . أما إذا كان في المسألة نص شرعي ، فالأصل اتباع النص والتزامه وعدم الخروج عنه ، ولو تغيرت الحاجات والعادات والأعراف ، لأن « النص أقوى من العرف والعادة والاجتهاد » ولأنه « لا مساغ للاجتهاد في مورد النصّ » كما جاء في القواعد الكلية .

أما قاضي قضاة بغداد أبو يوسف ، فقد قال بأنه إذا كان النص الشرعي مبنياً على العرف والعادة ، ثم تغيرت العادة ، فيجوز اتباع العادة استحساناً لأنها « كانت هي المنظور إليها » في النص الشرعي نفسه . وهذا ، كما نرى ، تطبيق واسع للقاعدة الكلية الأصولية : « إن الحكم الشرعي المبني على علة يدور مع علته وجوداً وعدماً » .

مثاله كان البر والشعير في أيام النبي (ﷺ) من المكيلات ، أي كانا يباعان بالكيل . وهكذا ورد الحديث الشريف باعتبارهما كذلك . ولكن العادة كانت تغيرت في أيام أبي يوسف ، وأصبحت هذه الأشياء من الموزونات أي أصبحت تباع بالوزن . فأقر ابو يوسف العادة الجديدة ، على الرغم من النص الشرعي ، وذلك باعتبار أن العادة كانت هي علة النص وشرط تطبيقه ، وان تغير العلة ينفي شرط تطبيق الحكم المبني عليها .

وبعبارة أخرى ، كما نقل ابن عابدين ، « انما أراد (أبو يوسف) تعليل النص بالعادة ، بمعنى انه انما نُص على البر والشعير والتمر والملح بأنها مكيلة وعلى الذهب والفضة بأنها موزونة لكونها كانا في ذلك الوقت كذلك . فالنص في ذلك الوقت انما كان للعادة ، حتى لو كانت العادة في ذلك الوقت وزن البر وكيل الذهب لورد النص على وفقها . فحيث كانت العلة للنص على الكيل في البعض والوزن في البعض هي العادة ، تكون العادة هي المنظور اليها . فان تغيرت تغير الحكم . فليس في اعتبار العادة المتغيرة الحادثة مخالفة للنص ، بل فيه اتباع النص » .

وبعبارة أخرى ، فاستحسان أبي يوسف في قاعدة تغيير الأحكام لايعني تغيير النص لا سمح الله . فالنص الشرعي مقدس عنده وعند غيره ، لا يجوز مسه بحال من الأحوال . ولكن معنى هذا الاستحسان هو اتباع النص نفسه ، لأنه مبني على عادة ظاهرة ، فيستوجب استيفاء شرط تطبيقه ، وهو بقاء علته أي العادة التي بني عليها .

ومثل آخر طريف رواه الخطيب عن استحسان أبي يوسف . وهو أن أم جعفر كتبت اليه تستفتيه في قضية ، فأفتاها بما أحبت ، فبعثت اليه بهدية ثمينة تحوي الفضة والطيب والدراهم والدنانير . فرآه جليس له ، فروي له عن رسول الله (ﷺ) أنه قال : « من أهديت له هدية فجلساؤه

شركاء فيها » . فأجابه أبو يوسف : «كان ذاك حين كانت هدايا الناس التمر واللبن » . وبكلمة أخرى ، تخلص أبو يوسف من الحكم الشرعي الوارد في الحديث ، بتغيير العادة التي بني عليها ذلك الحديث ، والتي اعتبر انها كانت المنظور اليها فيه .

وبرأي أبي يوسف أخذت مجلة الأحكام العدلية العثمانية ، اذ نصت على انه « لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان » (المادة ٣٩) . وهي قاعدة من قواعد كتاب الجامع المعروف . وقد أوضحت لجنة المجلة هذه المادة ، بقولها في تقريرها ، الذي رفعته بشأنها إلى الصدر الأعظم : « انه بتبدل الأعصار تتبدل المسائل التي يلزم بناؤها على العرف والعادة » .

وهذا ، كما نرى ، قول وجيه . يدل على تعمق تفكير أبي يوسف وأمثاله ، وعلى تأثرهم بمطالب القضاء العملية ، وعلى فائدة الاستحسان في التيسير على الناس ، وفي تطوير معاملاتهم وفق مقتضيات الحضارة والتقدم والفلاح .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قاعدة التيسير للضرورة :

من نظائر قاعدة تغير الأحكام قاعدة أخرى ، هي التيسير في المعاملات بسبب الضرورة ولرفع المشقة والحرج . وقد وردت هذه القاعدة في كتب الفقه بعبارات عديدة . منها : « المشقة تجلب التيسير . والأمر إذا ضاق اتسع . والضرورات تبيح المحظورات » .

ومن الأمثلة على تطبيق هذه القاعدة ، جواز القتل دفاعاً عن النفس ، والترخيص في حالة خوف هلاك النفس بأكل لحم الميتة للجوعان عند عدم الطعام ، أو بشرب الخمر للعطشان عند عدم الماء ، وترخيص الحنفية بشرب الخمر للتداوي استحساناً ، والتيسير أحياناً بسبب العسر وعموم البلوى ، استناداً الى الآية الكريمة : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » .

وقد قيد جمهور الفقهاء هذه القاعدة بضابط هو : « ان المشقة والحرج انما يعتبر في موضع لا نص فيه » . ومن هؤلاء الإمامان أبو حنيفة وصاحبه محمد بن الحسن الشيباني . أما قاضي القضاة أبو يوسف ، فإنه قال استحساناً باعتبار المشقة والحرج حتى في مواضع النص :

وقول أبي يوسف في هذا المعرض يستند إلى سابقات مروية عن عمر ابن الخطاب وغيره ، وإلى أدلة شرعية أخرى لا مجال لتفصيلها في هذا المقال . وعلى كل ، فهذا القول منسجم مع قول أبي يوسف الذي مر معنا بمناسبة قاعدة تغير الأحكام .

التعسف في استعمال الحقوق :

من أقضية أبي يوسف ، التي خالف فيها القياس ، واتبع الاستحسان مسألة التعسف في استعمال الحقوق .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فمن المعلوم ان استعمال الحق جائز ، وانه لا يوجب الضمان بحد ذاته . لذا جاء في القاعدة الكلية الواردة في الجامع وفي مجلة الأحكام العدلية ان : « الجواز الشرعي ينافي الضمان . مثلاً لو حفر انسان في ملكه بئراً ، فوقع فيها حيوان وهلك ، لا يضمن حافر البئر شيئاً » (المادة ٩١) . وسببه ان حافر البئر فعل ما هو جائز شرعاً ، وان الجواز الشرعي هذا يرفع عن الفاعل مسؤولية الضرر الذي لحق بالحيوان ، بسبب وقوعه وهلاكه في البئر المحفورة .

غير انه في بعض الأحوال قد يسبب استعمال الحق أضراراً جسيمة للغير ، وقد يكون حاصلاً بطريق التعسف . فهل يمنع هذا الاستعمال المضر أو يكون سبباً للضمان ؟ اختلفت المذاهب والقوانين في ذلك ، ولا مجال هنا لتفصيل الخلاف .

ولكن المهم ان الأئمة الحنفية اختلفوا فيما بينهم في الجواب عن هذا السؤال الدقيق، لا سيما في قضية المعاملات الجوارية. فقال أبو حنيفة، كما روي في فتاوى قاضيخان، ان: «من تصرف في ملكه لا يمنع عنه وان كان يتضرر جاره به». وبهذا الرأي أخذ المذهب الحنفي في ظاهر الرواية عملا بالقياس.

أما أبو يوسف، فإنه ترك القياس، وقال بعكس ذلك استحساناً. وبرأيه أخذت مجلة الأحكام العدلية، حيث جاء فيها أنه «لا يمنع أحد من التصرف في ملكه أبداً إلا إذا كان ضرره لغيره فاحشا» (المادة ١١٩٧). وانه «يدفع الضرر الفاحش بأي وجه كان ...» (المادة ١٢٠٠).

وهذا الاستحسان مبني على القاعدة الكلية في كتب الأشباه والنظائر وفي المجلة. وهي: «درء المفاسد أولى من جلب المنافع» (المادة ٣٠). ومعنى ذلك ان المرء يمنع من استعمال حقه إذا نتج عنه ضرر فاحش لجاره، لأن منع الضرر الفاحش عن الجار أولى من ابقاء المنفعة لصاحب الحق. وهو قول وجيه، يوافق فكرة العدالة الاجتماعية، التي لا تنظر إلى الحقوق نظرة فردية مطلقة، بل تعتبرها نسبية مقيدة بالمصالح التي ترتكز عليها. وهذه المصالح يقيد بعضها بعضاً، لأجل ايجاد التوازن بين الحقوق المتضاربة، ولأجل سعادة أصحابها في الحياة الاجتماعية.

ونظرية التعسف في استعمال الحقوق تعد اليوم من أهم النظريات العصرية. وهي بوجه عام مبنية على فكرة نية الضرر، التي سبق ونوّه بها أحد فقهاء المالكية في القرن الثامن الهجري، ابرهيم اللخمي الغرناطي المعروف بأبي اسحق الشاطبي، في كتابه الموافقات في أصول الشريعة. ولا مجال في هذا المقال للتوسع في تفصيل معنى هذه النظرية.

أقضية وفتاوى خاصة :

أقضية أبي يوسف القاضي ، وفتاوى أبي يوسف الفقيه ، واجتهادات أبي يوسف المجتهد ـ كلها أكثر من أن تحصى . وهي متفرقة في كتب الفقه الحنفي العديدة ، وفي غيرها من كتب المقارنات الفقهية . فلا مجال اذن لحصرها في مقال أو في كتاب .

غير أن لبعض هذه الأقضية والفتاوى والأقوال اتجاهاً خاصاً ، يصور لنا تعمق أبي يوسف ودرايته وتدقيقه وعدالته ، ويعطينا دليلا على تأثره بمنصب القضاء وبصعوبات المنازعات القضائية التي عاناها .

ونحن نذكر بعض الأمثلة البارزة منها ، وقد وردت في معرض أبحاث البينة ، وحماية النية والإرادة في العقود والتصرفات ، وتوثيق الحقوق بالكفالة ، وتسهيل المعاملات وتيسيرها . ووردت بوجه خاص في باب الضمان في التصرفات الفعليـــة ، أو ما نسميه بالمسؤولية الجرمية المدنية في الاصطلاح الحديث .

أولا ـ البينة .

قال النبي العربي (ﷺ) : « لو يعطى الناس بدعواهم لادعى ناس دماء رجال وأموالهم ... » . لذلك كان للاثبات والبينات أهمية كبرى ، وكان من اللازم التحوّط في تدقيقها وقبولها .

فمن الضوابط الأساسية في المسألة ان البينة لا تقبل على عكس الاقرار ، لأن الإقرار أقوى البينات ، ولأن المرء مؤاخذ باقراره . ولكن بعض الفقهاء ، ومنهم أبو يوسف ، قالوا بأن المقر ان يحلف المقر له اليمين في مثل هذه الحالة . وبقولهم أخذت مجلة الأحكام العدلية (المادة ١٥٨٩) .

ومثل آخر : على الرغم من أن الأصل ان لا يحلف أحد اليمين إلا بطلب خصمه ، فقد ذكر بعض الأئمة أحوالاً أعطوا فيها الحاكم الحق بأن يحلف

المدعي اليمين بلا طلب ، توثيقاً لدعواه وحرصاً على احقاق الحق . من ذلك ما قضى به أبو يوسف من أنه إذا طالبت المرأة بفرض نفقة على زوجها الغائب ، تحلف بالله انه ما خلّف لها زوجها شيئاً ولا أعطاها النفقة . وبقوله أخذ المذهب الحنفي .

ثانياً ـ حماية النية والإرادة في العقود والتصرفات .

من تعمق أبي يوسف في مقاصد الأحكام ومعاني الأشياء ، ومن حرصه على احياء تعامل الناس وفق عاداتهم انه خالف أبا حنيفة أيضاً في تفسير نية المتعاقدين أحياناً . مثاله إذا تعارض المعنى الحقيقي والمعنى المجازي في قضية ما ، وكان استعمال المعنى الثاني غالباً ومستمراً في العرف ، فان ابا يوسف يفضله على المعنى الحقيقي ، باعتباره يمثل نية المتعاقدين . وبقوله أخذت مجلة الأحكام العدلية العثمانية في القاعدة الكلية أن « الحقيقة تترك بدلالة العادة » (المادة ٤٠) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن أمثلة حماية الإرادة مسألة الحجر على السفيه ، أي على المبذر والمسرف والمغفل . فأبو حنيفة منع هذا الحجر ، لأنه تصرف على النفس ، والنفس أعظم خطراً من المال ، فلا يجوز عنده تضييق حرية المرء الشخصية المحافظة على ماله . ولكن أبا يوسف وجمهور فقهاء المذاهب خالفوه في ذلك ، وجوزوا الحجر على السفيه ، بالاستناد الى أدلة عديدة من المنقول والمعقول . وقول أبي يوسف وأترابه قول عملي يوافق عادات الناس في معاملاتهم الاجتماعية ، لأن السفيه ضعيف الارادة ، والحجر عليه حماية له من استثمار المحتالين ، ومحافظة على نفسه وماله جميعاً .

وكذلك جوّز أبو يوسف الحجر على المدين المفلس أو المماطل بناء على طلب الغرماء ، وذلك خلافاً لأبي حنيفة أيضاً .

وقريب من ذلك مخالفة أبي يوسف لظاهر الرواية في المذهب الحنفي في مسألة الولاية على المتوه ، إذ خصها بالحاكم عملاً بولايته العامة ، وكذلك

خالف ظاهر الرواية بقوله بجواز تخصيص وصاية الوصي المختار في الولاية على المال .

ثالثاً ـ توثيق الحقوق بالكفالة القضائية .

للزوجة حق النفقة في ذمة زوجها . فإذا خيف سفره ، أجاز أبو يوسف للزوجة استحساناً أن تأخذ الكفيل من الزوج قبل سفره تأميناً لنفقتها مدة شهر . وقوله هو المفتى به في المذهب الحنفي .

وكذلك إذا كان بين الورثة حمل ، وأراد هؤلاء اقتسام التركة قبل ولادته ، فقد اشترط عليهم أبو يوسف ، علاوة على توقيف حصة ولد واحد ، أن يقدموا كفيلاً يضمن حصة الحمل إذا ولد متعددا .

رابعاً ـ تسهيل المعاملات .

مسائل الفقه معقدة عويصة ، ولا يعرف قدر ذلك إلا من خبرها وعاناها من ولاة القضاء . فلذا نراهم يسعون ما أمكن إلى تبسيطها وتيسيرها ، تصحيحاً للعقود والمعاملات، وتسهيلاً لفصل الخصومات ، ورفعاً للمشقة والحرج .

ومن ذلك أقضية أبي يوسف في أعمال الفضولي ، والتوسع في إحيائها بطريق الاستحسان . مثاله : إذا باع الفضولي ثوباً بلا اذن صاحبه ، فخاطه المشتري قميصاً ، فأجاز المالك البيع ، كان هذا البيع جائزاً عند أبي يوسف .

وكذلك اذا اقتسم الشركاء التركة وبعضهم غائب ، توقف نفاذ القسمة على اجازة الغائب . ولكن إذا مات الشريك الغائب قبل الإجازة ، ثم أجاز ورثته عنه ، فلا تصح الإجازة عند الإمام محمد بن الحسن عملاً بالقياس ، ولكنها تصح استحساناً عند الإمام أبي يوسف .

ومن أقضية أبي يوسف العملية قوله في الوقف انه يلزم بمجرد صدور صيغته مستوفية شروطه ، ولا يتوقف لزوم الوقف عنده على حكم أو تسليم ،

على حين ان ذلك يتوقف على حكم القاضي عند أبي حنيفة ويتوقف على التسليم عند محمد بن الحسن .

ومن باب تسهيل فصل القضايا في الإرث توزيع التركة بين الورثة المعروفين بذوي الأرحام . فأبو يوسف قال بقسمة التركة بينهم أحياناً بالنظر إلى صفة رؤوس الفروع ، لا صفة أصولهم كما قال محمد بن الحسن ، حسبما هو مفصل في كتب المواريث .

ومثل أخير : أجاز أبو يوسف البيع والشراء بثمن المثل بين المريض بمرض الموت وأحد ورثته ، وذلك خلافاً لقول أبي حنيفة ، الذي اعتبر مثل هذا البيع مشبوهاً وموقوفاً على اجازة الورثة بعد وفاة المريض .

خامساً ـ الضمان في التصرفات الفعلية .

لا شك في ان ميدان التصرفات الفعلية كان من أخصب ميادين الفقه والقضاء . ففيــه يبرز علم القاضي ودرايته وخبرته ، ويظهر تفهمه لحقائق الأمور ولحاجات المجتمع . وهذه التصرفات ، كما هو معلوم ، تتعلق بأعمال المرء غير المشروعة وبالجرائم التي يرتكبها وينجم عنها ضرر للغير .

ففي هذا الميدان ، كان لقاضي القضاة أبي يوسف أقضية نادرة وأحكام طريفة ، نذكر بعضاً منها على سبيل المثال ، لا على سبيل الحصر أو الإسهاب .

ففي مسألة غصب الصبي والتقصير في حفظه ، لو قتل الصبي نفسه أو رمى نفسه من الدابة بسبب هذا التقصير ، فإن الغاصب يضمن الضرر في قول ابي يوسف .

وكذلك في مسألة الضرب أو الجراح التي لا تترك أثراً بعد برئها ، قال أبو يوسف بأن للمضروب أو المجروح ان يطالب الجاني بما أنفقه من ثمن الدواء وأجرة الأطباء .

ومن أطرف الأقضية والفتاوى ما روي عن أبي يوسف في مسألة حفر البئر في الطريق العام . فإذا عثر رجل بحجر فوقع فيها ، فالضمان على واضع الحجر كأنه دفعه بيده . فإن لم يعرف للحجر واضع ، فالضمان واجب على صاحب البئر . وإذا زلق رجل بماء صبه رجل آخر في الطريق فوقع في البئر ، فيلتزم واضع الماء بالضمان . فإن كان الماء ماء سماء فزلق به رجل فوقع في البئر فعطب ، فالضمان واجب على صاحب البئر . أما إذا أمر أحد أجيره بحفر البئر في الطريق العام ، فوقع فيها رجل ومات ، كان الضمان على قبيلة (عاقلة) المستأجر الآمر ، وذلك بطريق الاستحسان .

وكذلك لو حفر أحد بئراً بلا اذن اولي الأمر ، فوقع فيها انسان ومات جوعاً أو غماً ، فأبو حنيفة نفى الضمان عن صاحب البئر ، ومحمد بن الحسن أوجبه عليه . أما أبو يوسف ، فإنه أوجب الضمان في حالة الموت غماً ، لا في حالة الموت جوعاً .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأيضاً في مسألة بيع الكلب العقور ، فقد منعه أبو يوسف لعدم المنفعة منه ، خلافاً في ذلك لسائر أئمة المذهب الحنفي .

* * *

ونحن في هذا المقال الوجيز ، وفي هذا المجال اليسير ، نكتفي بما ذكرنا من الأمثلة . ففيها الدلالة الكافية على ان أبا يوسف ، الذي كان أول من لقب بقاضي القضاة في بغداد وفي العالم العربي والإسلامي ، وأول من ارتدى زيّ العلماء الخاص اجلالاً للعلم والقضاء ، ان أبا يوسف جمع الى التبحر العلمي العميق التفرس العملي الدقيق . وقد اكتسب مبادىء الفقه من أبي حنيفة ، ومبادىء القضاء من ابن أبي ليلى ، ولكنه زاد على ما اكتسب ، بجده واجتهاده ، كثيراً من قواعد علم الفقه وضوابط فن القضاء .

وان فوز أبي يوسف في جمعه للعلم مع العمل ، وللفقه مع القضاء بآن واحد ، يفسر لنا كيف تمكن هذا الفقيه القاضي من أن يوفق بين كونه أشد محافظة من أصحابه في المذهب من ناحية ميله إلى أهل الحديث من جهة ، وبين كونه أكثر منهم تحرراً وتوسعاً في الرأي من جهة ثانيه ، على ما أوضحنا في تطبيقه الاستحسان في مسائل تغير الأحكام ، والتيسير للضرورة ، ومنع التعسف في استعمال الحقوق .

فالتطبيق العملي لا يتقيد بنهج واحد ، بل يرتكز على أساس العدالة الثابت ، ثم يتفرع منه توسعاً وتحرراً حسب متطلبات الحياة وحاجات الحيوية . وبهذا أثبت أبو يوسف ، كما أثبت غيره قبله وبعده ، ان الشريعة الغراء كانت تماشي الحضارة في جميع الأمصار والأعصار ، لا بل كانت تمشيها وتوجهها تبعاً لسنة التطور والتقدم .

صبحي المحمصاني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حقائق التاريخ وقواعد البناء

جاء في مقدمة تاريخ البابليين وشريعة حمورابي (أن التاريخ بمعناه الصحيح ، دراسة الحياة البشرية وما انتهت إليه مظاهر فعاليتها من وقائع وتجارب ، واحداث ، ونتائج ، ومعرفة الأسباب التي أدت اليها وما هي غاياتها ، وأهميتها لا بالنسبة الماضي والحاضر فحسب ، بل بالنسبة للمستقبل).

ويشرح الكاتب الغاية فيقول : (ويهمنا ونحن ندرس التاريخ أن تكون دراستنا لا لتمجيد الأشخاص ، ولا لبيان محاسن الأمم ، ومساوىء الشعوب ، ولا لسرد الوقائع الحربية من فتوحات ، وقتل ونهب وغيرها ، ولا لذكر الانتصارات ، والانكسارات وأسبابهـا ، ونتائجها ، بل لندرس ناحيتين مهمتين لما ارتباطها الوثيق بالمسببات والغايات ، والنتائج . الناحية الانقلابية ، أي الثورات ، والانقلابات ونتائجها ، والناحية التطورية ، أي التحولات ونتائجها . لأن الثورات من شأنها ربط الماضي بالحاضر لتهيئة المستقبل) ويعقب هذا ببيان وجيز عن ماهية الناحيتين فيقول :

(ولما كانت الثورات تلازم الهدم ، وتقوم به فجأة ، فلا تخلو عواقبها من الأخطار والوقوع بالخطأ ، وعدم الاستقرار . وليس من يستطيع أن يتنبأ تماماً عن نتائجها هل هي لصالح الحال والمستقبل أم لضررها) ؟ .

وأما التحول وهو التطور الذي إذا سار في خطواته الطبيعية وفقاً لقانون (النشؤ ، والتقدم ، والارتقاء) القائم على (التغذية والنمو والوراثة ، والاستعداد ، وقابلية التكيف ، وحسن الانتخاب) فإن عواقبه تكون مضمونة ، وتحفظ الحياة صالحة للبقاء ، ودائمة الفعالية والنشاط ، والتقدم

والارتقاء ، مع سلامة الحاضر بما هو معلوم ، وصالح المستقبل بما يمكن أن يكون) .

هذا ماورد في المقدمة لتاريخ بابل ، وشريعة وضعها حورابي مؤسس أعظم دولة بين دول العالم القديم وكان وضعها في سنة (٢٠٨٤ - ٢٠٨٠) قبل الميلاد . ودامت أحكامها حتى بعد ظهور موسى بستماية سنة ، تدين بها الأمم السامية في أقطارها المتعددة .

والآن ماذا تفيدنا هذه المقدمة ؟

إن الشعوب العربية بأقطارها ودولها تبرز في حياتها الحاضرة ثلاث ظواهر : (الأولى) ظاهرة الوعي القومي والسياسي ، (والثانية) ظاهرة الوعي الاجتماعي للتحرر من قيود الماضي وجمود الحاضر ، و (الثالثة) ظاهرة النضال والثورة ضد مايعوق انطلاقتها للنهوض والبناء والتجدد .

وما هو الدافع لهذه الظواهر ؟

أما الدافع والمحرك لها فكما يتراءى للعالم المدقق ليس عاملا واحداً ، بل هي (القوى الوراثية ، والخلقية ، والفكرية والروحية) الكامنة في جوهرها النفسي وعنصرها القومي ، يضاف اليها (فعالية الحياة في التحرك والعمل لتأخذ مداها بالثورات في بعض الأقطار ، وبالتطور والتحول في أقطار أخرى) ، ثم [الحاجات الزمنية الملحة والتيارات الخارجية الجارفة] .

ولكن أي الطريقين أصلح لبلوغ الهدف والغاية ؟

للاجابة على أحد السؤالين يجب أن نعرف الواقع ، وأن نعطي لكل من الطريقين تقديره وحقه من العلم والتجرد ، والاستقصاء ، والانصاف مع اعتبار الضرورات الداعية لتفضيل واختيار أحدهما ، واعتبار الصراع القائم في العالم بين الشعوب والدول من المؤثرات التي لايستهان بعلاقاتها مع الواقع .

ولما كان هذا الواجب يشمل التعميم والتخصيص فلاختصار البحث نحصر الجواب في واقعنا السوري ونجيب عليه بما يلي :

إن البلاد السورية بما يجري في داخلها من تحولات وانطلاقات تكاد تشابه غيرها من الأقطار العربية ، وتتماثل معها بدوافعها وقاسمها المشترك بينها في (الأمال ، والذهنية ، والتاريخ والتأخر الحضاري وفي العقائد ، والحاجات الزمنية ، وتسلط القوى المستعمرة ، وتغلب الطفرة ، والأنانيات المستحوذة على النفوس) ؟

إذا عرفنا هذا وعرفنا مخاطر الأغراض التي تحرك الثورات ، ومطامع الطبقات الأقلية ، فوضعنا يمكن وصفه ، بأن سورية نظراً للأحداث التي رافقت تاريخ نضالها ، لايزال شعبها يعاني دور التجارب ويعاني الأزمات والصعوبات في تطبيقها ، وتكتنف مجتمعاته ، وطبقاته ، في تفكيرهم وخططهم ، وأعمالهم غيوم القلق ، وعدم الاستقرار ، والخوف من المصير ، لقساوة الظروف ، وتقلب الأحوال ، وقصور الامكانيات ، وحيرة اختيار أفضل الطرق ، لبلوغ الغايات ، ولتدارك مافات والتقدم في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية ، والسياسية والصناعية .

وعليه إذا كان الواقع كما ذكر ، وكانت الظاهرات الثلاث تعني فيما تعني قلب الأوضاع السائدة والخلاص بما مر ، ومن تأثيرها المحسوس المخيف ، وإقامة وضع سليم على أنقاضها ، وأن يكون للثورة قيادة تعمل هي والشعب باخلاص لشعاراتها ؛ فالصواب والسلامة فيما تسعى اليه تكون باتباع مُثُل تتجه نحوها ، وأهداف عملية تسعى لبلوغها ، ومبادىء سليمة تتبعها ، ودعائم قوية تستند عليها ؛ وإلا تمادى الهدم ، وتمادت الأزمات والصعوبات والموانع دون بنائه .

وما هو العلاج ؟

يقول العقد الفريد : ان أعرابياً دخل على عبد الملك بن مروان وقال له (يا أمير المؤمنين اليك مني أربع نصائح إن عملت بها استقام ملكك) فسأله مخاطباً . وما هي يا عبد الله ؟

فأجابه قائلا أولاً (لا تعدن عدة لا تثق بنفسك من نجاحها) فقال له عبد الملك أحسنت . وما هي الثانية ؟

فأجابه (لا يغرنّك المرتقى ، وإن كان سهلاً ، اذا كان المنحدر وعراً) . قال أحسنت . وما هي الثالثة ؟ فقال له (إن لكل شيء نهاية فاخش العواقب) قال أحسنت ، وما هي الرابعة ؟

فأجابه أما الرابعة (فاعلم أن الأمور تأتي فجأة فكن على حذر) . قال أحسنت ، ثم قال له عبد الملك (اطلب منا ما تريد نعطك إياه) .

فقال الأعرابي (يا أمير المؤمنين نحن ما جئناك لنطلب مالاً أو جاهاً ، انما جئنا لنطلب منك عدلاً ، فان أعطيتنا اياه كفيتنا مؤنة ما سواه) . فأثنى عليه عبد الملك ، وقال بعدئذ ما زلت أعمل بها حتى استقام ملكي .

هذا ما تفرضه التجارب وحقائق التاريخ وتفرضه قوى الوعي من المثل لضمان السلامة . وأما المبادىء في بناء الحضارة التي تعمل لإشادتها وبنيان صرحها فيرشدنا اليها تاريخنا القومي عند الانطلاقة الأولى لأمتنا ، ولا محيص لنا عن اتباعها واتباع هديها . يقول فيلسوف تاريخ الحضارات (شبنغلر) في كتابه عن تدهور الحضارة الغربية (إن لكل حضارة تاريخاً ، وان هذا التاريخ هو تاريخ النفس الأولية للأمة ذات الحضارة) .

وانه لا يمكن أن تكون هناك حضارتان متماثلتان كل التماثل ، وذلك لأن كل حضارة هي تاريخ مستقل بذاته لا يتأثر بتاريخ أي حضارة أخرى . واذا ما تأثر فانما لا يعبر أبداً عن جوهره بل انما يمثل أشكالاً كاذبة تتنافى

وأصالته الحقيقية ، وينشأ تمثله هذا عن ظروف تحد من حرية عمل النفس الأولية للحضارة ، لكن هذه النفس الأولية المحدودة الحرية تسعى حتى في مثل هذه الظروف الى طبع الحضارة المتأثرة بها بطابعها كما هو الواقع بالحضارة العربية التي تمكنت حتى في اعتادها القواعد الكلاسيكية في الهندسة المعارية أن تفرض طابعها على المباني الرومانية ابتداء من عهد (هادريان أحد أباطرة روما) فالبانثيون يعتبر أول مسجد اسلامي بني في التاريخ .

وفي رأي شبنغلر (أن الحضارة تولد وهي تحمل معها صورة وجودها . وهي على صلة رمزية عميقة تكاد تكون صوفية بالمكان الذي فيه ، وبواسطته تريد أن تحقق وجودها وهي تصارع وتناضل داخل المكان الذي اختاره لها مصيرها ، لتنظم كل خليط فيه على صورتها) .

ومعنى ما تقدم (ان الحضارة التي هي من تراث أجدادنا وآبائنا لا يمكن أن يستعاد بنيانها بغير المبادىء التي قامت من أجلها . وبغير الأسس التي شيدت عليها صروحها . في دمشق وبغداد ، والقاهرة ، وفي القيروان ، والأندلس وفي القدس ، وحلب ، وفي المغرب الأقصى ، وفي السند ، وسمرقند ، وطاشكند ، وفي كل قطر أشرقت عليه شمسها بشعاراتها ، وشريعتها ، ومبادئها وأخلاقها وعلومها ، وروحها ، وآدابها ، وصناعاتها ، وفنونها .

والحق لا يمكن فهم وتقدير أي ظاهرة سياسية أو اجتماعية ، أو اقتصادية أو علمية أو أدبية أو خلقية ، إلا بواسطة فهم كل ما للحضارات من مظاهر .

ويرى شبنغلر (ان فكرة الأمة - عند العرب - تقوم على أساس من الروابط الروحية المجردة . ولذلك فالشعوب العربية في وحدتها تريد من زعيمها أن يتمتع بصفات النبي ومؤهلاته . لأن الأمة العربية ذات وجود روحي يكاد يكون مطلقاً في روحيته . وعليه فالعربي إذا أردت أن تستفزه وتدفع به إلى أقاصي الأرض فعليك أن تتوجه الى وجدانه لا إلى معدته ،

ولذا تلعب النخوة والمروءة والبطولة أدواراً هامة في السلوك الأخلاقي للفرد العربي ، كما ان الإيمان لا للعقل المركز الأول والممتاز لديهم) .

ويستشهد على دعواه بالكتاب الذي وجهه عمر بن الخطاب (ر . ض) في ارشاداته الستراتيجية ، والتكتيكية ، إلى سعد بن أبي وقاص وهو يحارب في العراق جيوش الفرس فيقول له فيه : (أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى مكيدة في الحرب . وآمركم أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم . فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . . . واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه العون على عدوكم) .

ومن هذا الكتاب وغيره استنتج شبنغلر الأدلة على معرفة (سر الحميّا التي دفعت بالحضارة العربية عندما انطلقت من قيودها لتلقي بظلالها على جميع البلدان التي تنتمي إليها باطنياً منذ قرون وقرون سبقت انطلاقتها الأولى) . ويضيف عليها (أن النفس العربية هي في عجلة دائمة من أمرها ، تلاحظ أعراض شيخوختها قبل بلوغ شبابها) . ويسوقه التقدير والاعجاب بهذه النفس المنطلقة الوثابة إلى تعداد أنها فتحت سورية وحررتها سنة ٦٣٤م وفتحت دمشق عام ٦٣٧ م . واكتسحت جيوشها مصر عام ٦٤١ م وبلغ العرب الهند . وفتحوها سنة ٦٤٧ م وحرروا شمالي افريقية . وسمرقند عام ٦٧٦ م ، وسقطت اسبانيا في أيديهم عام ٧٣٢ م وبعدها أخذوا يقرعون أبواب باريس .

ويستنتج أيضاً من سرعة هذه الفتوحات وسعتها (بأن هذه السنوات القلائل ، ضغطت جميع العواطف العربية المدخرة والآمال المؤجلة ، والأعمال المحفوظة وجعلتها تكفي لتملأ قروناً وقروناً من التاريخ) .

ثم أكد بأن الصليبيين أمام القدس ، وسلالة هوهنشاوفن في صقلية

والمانسا في البلطيق ، والفرسان التوتينيين في الشرق السلافي ، والاسبان في أمريكا ، والبرتغاليين في شرقي آسيا ، وامبراطورية شارل الخامس التي لاتغرب الشمس عنها ، وبداية عصر الاستعمار الانكليزي تحت رعاية كرومويل ، كل هذه الانطلاقات تعادل في زخمها ، زخم انطلاقة واحدة حملت العرب إلى إسبانيا وفرنسا ، والهند وتركستان ، وما وراء النهرين) ومن بعد هذا نستطيع الادعاء ونحمل المنصف على الاعتراف ، بأن النفس العربية الأولى ذات قومية متفتحة لاتسعها إلا الإنسانية ، ولا تنتظمها إلا الأخلاق ، والأخلاق الحميدة ، والحميدة فقط على وجه التخصيص [الأخلاق التي تغلّب الحق على المصلحة ، والوجدان على العقل ، والعدل على الظلم والرويّة على الاندفاع ، والعطف على الفتك ، أخلاق تنبذُ الميكيافية ، وتؤمن بأن الغاية الشريفة لايجوز أبداً أن يسلك إليها بوسائل غير شريفة] ، فالأخلاق العربية كقوة انسانية تسمو وتتسامى فوق كل مذهب فلسفي ، أو سياسي ، أو اقتصادي ، أو اجتماعي ، أو عقائدي مهما تكن شعاراته ، وذلك لأن النفس العربية تسامت فيا مضى فوق كل الأعراف والمفاهيم ، وأعني بكلمتي فيا مضى ! عهد صاحب الرسالة وخلفائه الراشدين ، ولهذا كل الانطلاقات التي جاءت بعد عهدهم كما قال شبنغلر تعادل في زخمها انطلاقة واحدة حملت العرب إلى اسبانيا وفرنسة وايطاليا والهند وتركستان .

وإقراراً بالحقيقة إن لكل شعب خصائصه وتاريخه ومشاكله . وهي وليدة تطوره الحضاري عبر التاريخ وتطوره الاجتماعي ، والفكري ، والاقتصادي ، والروحي ، ولكل شعب خصائص انسانية حصيلة تراثه الموروث وعلى هذا وإن كنا أهملنا التاريخ عدة قرون قضيناها في سبات عميق ، وخلال قرون عشناها على هامش الحياة ، فما تم في العالم من تبدلات جذرية في الأفكار ، وفي الحاجات وفي وسائل العيش المادية يجبرنا أن

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نتلمس حقائق الوقائع ونتكيف مع مقتضيات الزمن وتطلبات المدنية ، والحضارة . والعصر عصر السرعة والذرة ، والصاروخ ، وغزو الفضاء .

ونحن كما قلنا نعمل لهدم ما أورثنا إياه ماضينا من الأوضاع التي أصبحت لاتتلاءم مع انطلاقتنا وإقامة أوضاع سليمة للخلاص من القلق ، والحيرة ، والخوف ، وعدم الاستقرار ، ومن العوز والحاجة والتبعية التي فرضها الاستعمار ، ونناضل لاسترداد ما سُلب من أجزاء وطننا ، وجمع ما تفرق من شملنا ، والإسراع ببناء وحدتنا وحضارتنا ، ولكن لكي نبلغ الغاية ونصيب الأهداف ، ماذا نتذكر ونعمل ؟

يجب أن لا ننسى إحياء النفس العربية وأن نعمل على تغذيتها وتنميتها وتربيتها على المبادىء والفضائل التي تحلت بها نفوس أمتنا في فجر انطلاقتها الأولى ، وترعرع بها وجدانها ، لتغذو مظاهر وعينا الثلاثة وبناء حضارتنا الحالية في التأسيس والنهوض ، منبعثين عنها وعن مقدماتنا ذات الطاقات المبدعة الخلاقة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومهما تكن أنواع النظم وأشكال الحكم فلا يستقيم بنياننا ما لم يتحل المسؤولون بالصفات والفضائل ، والمثل العليا ، والمبادىء التي تحلى بها الأولون واتبعوا في حكمهم ومعاملاتهم وفي رعايتهم مصالح الشعب و (دستوره الخالد) ، ومن العدل ، والرحمة ، والصدق في الوعد والعهد ، والإقدام في النضال ، والوفاء لكل ذي حق مشروع ، والنظر الى أفراد الرعية كافة كأنهم أعضاء جسم واحد ، وأفراد عائلة واحدة ، أن يكونوا القدوة المثلى فيما يأمرون وينهون وان يخططوا للأمة ما يقيها شر الانحراف والفوضى ، لأن أخطاء المسؤولين في إدارة الأمور ، وفي توجيه السياسة ، وتخطيط العمل قد يكون عثرة لا تقال .

الدكتور عبد الرحمن الكيالي

العلم في العصر الأموي (١)

.... والذي يبدو أن العرب في العصر الأموي لم يكن لهم اهتمام بالعلوم الرياضية الطبيعية ، لأن اهتمامهم كلّه كان منصبّاً على العلوم العربية في اللغة والشعر والخطابة والرواية ثم على العلوم الدينية وعلم الكلام خاصّة .
أما ما ورد على لسان العرب ، في شعرهم ونثرهم ، في العصر الأموي ، من الكلام على السماء والنجوم والأرض فكان روايات نصفها ديني ونصفها من إرث الأمم القديمة . ولم يكن البحث العلمي هدفاً لهم في ذلك ، بل كانوا يرمون من ذكر تلك المظاهر الفلكية خاصة ً الى ضرب المثل للعبرة أو للتهويل . من ذلك مثلاً (٢) ما روي من أن الشمس والقمر طولهما وعرضهما تسعمائة فرسخ في تسعمائة فرسخ ، وأن سعة الشمس مثل سعة الأرض وثلثها ، وأن سعة القمر مثل الدنيا سواء . وشبيه بذلك قولهم ان السماء كهيئة القبّة وأن الكواكب معلّقة فيها كالقناديل (٣) .

ويشذّ عن هذا الاتجاه ، فيما قيل ، خالد بن يزيد بن معاوية . ولكنّ أمر خالد بن يزيد غامض ، وسنبسط القول فيه لأن الفصل في هذا الموضوع مهمّ جدّاً في تاريخ العلم عند العرب .

---

(١) المقال التالي فقرات من فصل في كتاب يعدّه الكاتب في « تاريخ العلم عند العرب » .

(٢) أولو كارلو نلّينو (علم الفلك : تاريخه عند العرب في العصور الوسطى ، روما ١٩١١ ، ص ١٣٧ ـ ١٤٠) هذا الموضوع اهتماما ، وان كانت الأمثلة التي جاء بها ليست قاصرة على العصر الأمويّ وحده ، بل يمكن أن تكون سابقة عليه حيناً أو لاحقة له حيناً آخر .

(٣) القول بأن السماء قبّة وأن النجوم معلّقة (مثبتة) في هذه القبّة قول أناكسيماس الملطي اليوناني (ت ٥٤٦ ق . م .) .

خالد بن يزيد بن معاوية :

تجمع المصادر والمراجع العربية ، في نقل بعضها عن بعض ، على أن اهتمام العرب بالعلوم اليونانية بدأ في العصر الأموي . وأصحاب تلك المصادر والمراجع يذكرون أن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان المُتَوَفّى سنة ٨٥ للهجرة (٧٠٤ م) لمّا يئس من الفوز بالخلافة ، بعد انتقال الخلافة من الفرع السفياني الى الفرع المرواني ؛ انقلب الى العلم ثم درس الكيمياء خاصةً على راهب اسكندراني اسمه مريانوس . ثم إن خالد بن يزيد أمر مريانوس بنقل كتب الصنعة (الكيمياء) الى اللغة العربية . ويبدو أن نقل الطب والفلك أيضاً قد بدأ في العصر الأموي ، ولكن لم يصل الينا شيء مكتوب من العصر الأموي سوى ما ذكره نلّينو[١] من أن كتاب عرض مفتاح النجوم المنسوب الى هرمس قد نقل الى اللغة العربية سنة ١٢٥ ﻫ (٧٤٣ م) ، قبل انتهاء العصر الأموي بسبع سنوات ؛ وأن هذا الكتاب اقتنته المكتبة الامبروسيانية في مدينة ميلانو في مطلع القرن الحالي .

على أن اهتمام خالد بن يزيد بالعلوم اليونانية كان دائماً موضوع نقاش شديد . أما أن خالد بن يزيد شخصية تاريخية فأمر لا جدال فيه البتّة ؛ وأما اشتغاله بالعلم الطبيعي في ذلك الدور المتقدّم من حياة العرب السياسية فأمر بعيد عن الوضوح .

يذكر الجاحظ (ت ٢٥٥ ﻫ = ٨٦٩ م) خالد بن يزيد فيقول : «كان خطيباً شاعراً وفصيحاً جامعاً وجيّد الرأي كثير الأدب ؛ وكان أول من ترجم كتب النجوم والطبّ والكيمياء[٢] . على أننا نلمح في

---

(١) علم الفلك . . . لكارلو نلّينو ١٤٢ ـ ١٤٣ .

(٢) كتاب الحيوان للجاحظ (بتحقيق عبد السلام محمد هارون) القاهرة ١٣٥٦ ﻫ = ١٩٣٨ م ، ١ : ٣٢٨ .

قول الجاحظ نفسه أن عمل خالد بن يزيد كان الاشراف على نقل العلم لا نقلُ العلم ولا العلمُ ، ولذلك يقول [١] : « ومتى كان خالد مثل أفلاطون ! »

وفي الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م) اشارة الى خالد بن يزيد في هذا الشأن ، هي [٢] : « وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء فأفنى بذلك عمره وأسقط نفسه » .

ثم يأتي ابن النديم (ت ٣٨٥ هـ = ٩٩٥ م) فيقول [٣] : « كان خالد ابن يزيد بن معاوية يسمّى حكيم آل مروان ، وكان فاضلاً في نفسه وله همّة ومحبّة للعلوم ، خطر بباله الصنعة فأمر جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ، وقد تفصّح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة [٤] من اللسان اليوناني والقبطي الى اللسان العربي . وهذا (كان) أول نقل في الإسلام من لغة الى لغة » . ثم يذكر ابن النديم بعد صفحتين [٥] اصطفن القديم [٦] وأنه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها .

ثم إن ابن النديم يذكر بعد ذلك خالد بن يزيد ويخصه بترجمة موجزة (ص ٤٩٧ — ٤٩٨) يقول فيها نقلا عن محمد بن اسحق :

(١) كتاب الحيوان ١ : ٧٦ .

(٢) الأغاني (طبعة بولاق) ١٦ : ٨٨ .

(٣) الفهرست لابن النديم (طبعة المكتبة التجارية الكبرى) ، مصر ١٣٤٨ هـ ، ص ٣٣٨ .

(٤) الصنعة : الكيمياء القديمة (تحويل المعادن الخسيسة كالنحاس والرصاص إلى معادن شريفة كالذهب والفضّة) .

(٥) الفهرست ٢٤٠ .

(٦) راجع في اصطفن القديم مناقشة يوليوس روسكا .
Julius Ruska, Arabische Alchemistent I (Châlid Ibn Yazîd Ibn Muâwiya), Heidelberg 1924.

ص ٩ — ١١ ، ٣٠ الخ .

«كان خالد بن يزيد بن معاوية ، خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ذا رأي . وهو أول من تُرجم له كتبُ الطب والنجوم وكتب الكيمياء . . . ويقال - والله أعلم - إنه صحّ له عمل الصناعة ؛ وله في ذلك عدّة كتب ورسائل . وله شعر كثير في هذا المعنى رأيت منه نحو خمسمائة ورقة [١] . ورأيت من كتبه : كتاب الحرارات ، كتاب الصحيفة الكبيرة (في الفلك ؟) ، كتاب الصحيفة الصغيرة ، كتاب وصيّته إلى ابنه في الصنعة» .

ويذكر صاعــد الأندلسيّ (ت ٤٦٢ هـ = ١٠٧٠ م) خالد بن يزيد فيقول [٢] : «كان بصيراً بالطبّ والكيمياء . وله في الكيمياء رسائل وأشعار دالّة على معرفته وبراعته فيها» .

وعقد ابن خلّـكان (ت ٦٨٠ هـ = ١٢٨١ م) ترجمة موجزة لخالد بن يزيد قال فيها [٣] : «كانت له صنعة الكيمياء والطبّ ؛ وله رسائل دالّة على معرفته وبراعته ؛ أخذ الصنعة من رجل من الرهبان يقال له مريانس [٤] المذكور الرومي [٥] » .

وكذلك يذكر ابن الطقطقي (ت ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م) في كتابــه الموجز [٦] خالد بن يزيد بن معاوية فيقول: «وكان فصيحاً بليغاً ، وقيل أصاب عمل الكيمياء» .

---

(١) الورقة نحو عشرين سطرا .

(٢) طبقات الأمم (بيروت) ، ص ٤٨ .

(٣) وفيات الأعيان (مطبعة الوطن الجلية في ثلاثة أجزاء ، ١٢٩٩) ، ١ : ٣٠٠ ،

(٤) راجع في مريانوس مناقشة يوليوس روسكا في كتابه المذكور آنفا ، ص ٨ ، ١١ ، ٢٦ ، ٣١ وما بعدها .

(٥) المذكور : المشهور (!) .

(٦) الفخري في الآداب السلطانية (عني بنشره محمود توفيق الكتبي ، المطبعة الرحمانية بمصر) ، ص ٨٧ .

وينكر ابن خلدون (ت ٨٠٨ ه = ١٤٠٥ م) أن يكون لخالد بن يزيد ابن معاوية شيء من العلم بالكيمياء فيقول في مقدمته [١] :

« وربّما نسبوا إليه بعض المذاهب والأقوال فيها (في الكيمياء) لخالد ابن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم . ومن المعلوم البيّن أن خالداً من الجيل العربي ، والبداوة إليه أقرب ، فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة ؛ فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركّبات وأمزجتها ! وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم ، أللهمّ إلا أن يكون خالد بن يزيد آخَر ، من أهل المدارك الصناعية تشبّه باسمه [٢] فممكن [٣] » .

* * *

أما المستشرق الذي أولى خالد بن يزيد عناية خاصّة فهو يوليوس روسكا (١٨٦٧ - ١٩٤٩ م) الألماني [٤] قال [٥] :

http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) مقدمة ابن خلدون (دار الكتاب اللبناني ، الطبعة الثانية بيروت ١٩٦١ م ، ص ٩٧٧ - ٩٧٨) .

(٢) تسمّى باسمه أو كان اسماهما متشابهين .

(٣) في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (المطبعة الوهبية بمصر) ، الطبعة الأولى ١٢٩٩ ه = ١٨٨٢ م ، ٢ : ٤١ خالد بن يزيد بن رومان النصراني كان من أهل قرطبة ، وكان معاصراً لنسطاس بن جريج المصري . وكان نسطاس هذا في دولة الاخشيديين (طبقات الأطبّاء ٢ : ٨٠ - ٨٦) ، في النصف الأول من القرن العاشر للميلاد) ، راجع أيضاً طبقات الاطبّاء والحكماء لابن جلجل ٨٣ ، ٩٦ . - غير أن هذا لا يبدّل شيئاً من رواية الجاحظ الذي سبق خالد بن يزيد بن رومان بقرن كامل من الدهر .

(٤) تلقّيت علم الجغرافية عند العرب على الأستاذ المستشرق يوليوس روسكا في جامعة برلين ، في الفصل الأول من العام الجامعي ١٩٣٥ - ١٩٣٦ .

(٥) راجع كتاب يوليوس روسكا المذكور تماً ١ : ٥٥ وما بعدها ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٨ - ٤٩ ، ثم قارن ذلك بما بعد في ص ٥٠ (أسفل الصفحة) ، ٥١ - ٥٢ .

ان كثيراً مما يروى عن خالد بن يزيد في شأن الصنعة (الكيمياء) وفيما يتعلّق باتّصاله براهب اسمه اصطفن أو ماريانوس أو مورينوس، كما يذكر بعض المتأخّرين كابن خلّكان مثلا، ليس بثبت. على أن هذا لا يعني أن خالد بن يزيد لم يشتغل بالكيمياء قطّ، أو لم يكن يميل الى الاشتغال بها على الأقلّ. ولكنّ الذي نعني: أننا لا نستطيع، من مراجعة ما بين أيدينا من المصادر والمراجع، أن نثبت أو ننفي أنه عمل في الصنعة. وأما الكتب المنسوبة اليه في الصنعة فمنحولة كلّها وليست له. حتّى اصطفن القديم الذي يقال إنه نقل كتب الكيمياء لخالد بن يزيد يجب أن يكون استفانوس الاسكندراني المنجّم الذي عاش في بلاط هرقل امبراطور الروم، وكانوا ينسبون إليه معرفة بالكيمياء. إلاّ أن استفانوس هذا قد توفّي قبل أيام خالد بن يزيد بزمن غير قصير[1].

إذن، ليس لنا دليل، كما يقول يوليوس روسكا، على أن خالد بن يزيد قد ألّف كتباً في الكيمياء أو في غيرها، أو أنه أمر بنقل هذه الكتب إلى اللغة العربية، أو كان له عمل في الكيمياء، ذلك لأن العمل في الكيمياء يقتضي الإلمام بمعارفَ كثيرةٍ لم تكن متوفّرة لخالد بن يزيد أو لغيره من العرب في ذلك الطور الباكر من حياة العرب السياسية. وهذا هو رأي ابن خلدون، كما رأينا قبل قليل.

تفريخ الدجاج آليًا :

كانت سُكينة بنت الحسين تمازح أشعب الطمّاع فتأمره أحياناً بأن يجلس على سلّة مملوءة بيضاً كأنه دجاجة تحتضن بيضها لتخرج منه فراخ.

(١) راجع فوق، قبل بضعة عشر سطرا؛ مقدّمة ابن خلدون ٩٧٨، السطر الثاني وما بعده.

وأرادت يوماً أن تُخرج مزحها هذا مخرج الجِدّ « فصنعت [١] بيتاً كبيراً من خشب ووضعت فيه تبناً وسرجيناً [٢] ثم وضعت فيه بيضاً كثيراً وأمرت أشعب بأن يحضن ذلك البيض [٣] كأنه طائر يَفقِسُ بيضَه . فلم يزل (أشعب) يحضن ذلك (البيض) حتى فُقِسَ وخرج منه الألوف من الفراريج . وربّيت (تلك الفراريج) في دار سكينة ، فكانت سكينة تنسبهن (تنسب تلك الفراريج) إليه وتقول : بنات أشعب » .

وعرف العصر الأموي براعة في الطب على اختلاف أنواعه المألوفة يومذاك ، وفي الجراحة خاصة . جاء في الأغاني [٤] :

إن سُكينة بنت الحسين خرجت لها سلعة [٥] في أسفل عينها فكبرت حتى أخذت وجهها وعينها ، ثم عَظُم شأنها . وكان بدراقس [٦] منقطعاً إليها في خدمتها [٧] . فقالت له (سكينة) : ألا ترى ما وقعتُ فيه : فقال لها : أتصبرين على ما يَمَسُّكِ من الألم حتى أعالجك ؟ قالت : نعم !

---

(١) الأغاني ١٦ : ١٤٨ - ١٤٩ .
(٢) السرجين والسرقين (بكسر السين فيهما) : الزبل ، روث الحيوان (راجع القاموس) .
(٣) يجلس في جانب من ذلك البيت كأنه يحضن . . .
(٤) ١٦ : ١٦٠ .
(٥) السلعة بكسر السين أو فتحها وسكون اللام ، وتكون أيضاً بفتح السين واللام أو تكون بكسر السين وفتح اللام ، غدّة (بالضم وتشديد الدال) أو خراج (بضم الجيم من غير تشديد للراء) أو زيادة في البدن تتحرك إذا حركت ، وتكون من (مقدار) حمّصة (بكسر الحاء وتشديد الميم المفتوحة أو المكسورة) إلى (مقدار) بطّيخة (القاموس ٣ : ٢٩٩) .
(٦) لم أعثر على تفاصيل تتعلّق بهذا الطبيب (بدراقس) .
(٧) منقطعاً إليها في خدمتها : طبيباً خاصاً لها .

فأضجعها وشقّ جلدة وجهها حتّى ظهرت السلعة ؛ ثم كشط الجلد عنها أجمع وسلخ اللحم من تحتها حتى ظهرت عروق السلعة ، وكان منها شيء تحت الحدقة ، فرفع الحدقة عنه حتّى جعلها ناحية ، ثمّ سلّ عروق السلعة من تحتها فأخرجها أجمع وردّ العين إلى موضعها ، وسكينة مضطجعة لا تتحرّك ولا تئنّ حتّى فرّغ مما أراد . فزال ذلك عنها وبرئت منها ، وبقي أثر تلك الجراحة في مؤخّر عينها ، فكان أحسن شيء في وجهها ، وكان أحسن على وجهها من كلّ حَلْيٍ وزينة . ولم يؤثّر ذلك في نظرها ولا في عينها .

الدكتور عمر فروخ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لغة عالميـة

لسنا ممن يدعون إلى الاستشهاد بالنصوص المقدسة في مجال العلم ، فالبحث العلمي تطوراته أو زلاته ، ولا يصح لهذا أن ترتبط به العقيدة . فليس يتسم البحث العلمي بالصحة المطلقة ، بل إن نظرياته ونتائجه قد تتعرض للتغير والتبدل عصراً بعد عصر أو جيلا بعـد جيل . فبعض ما عدّه « نيوتن » صحيحاً في وقت مّا ، برهن « أينشتين » وأمثاله على خطئه ، وبعض ما عالج به ابن سينا مرضاه يسخر منه أطباؤنا في العصر الحديث . وذلك لأن النظريات العلمية مهما سما قدرها لا تعدو أن تكون جهوداً إنسانية ، اهتدى إليها الباحثون على قدر ما سمحت به عقولهم وتجاربهم ، فليس لها سمة الدوام أو الخلود .

في حين أن العقيدة عند المؤمنين بها عاطفة روحية سماوية ينزهها أصحابها عن تلك الهزات التي قد تعرض لمسائل العلم الدنيوي ، وليس دوام صحتها محل خلاف أو شك عند المؤمنين ، بل توصف دائماً بأنها لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . وربطها من أجل هذا بجهود الإنسان ، وشطحاته في كثير من الأحيان ، يهبط بها من عليائها ويدع تعاليمها عرضة للتغيير والبطلان على توالي العصور والأجيال .

ومع هذا فلست أدري كيف وجدتني أنساق الى الحديث عن موقف الديانات من اختلاف اللغات البشرية وأنا بصدد البحث في تاريخ اللغات ودورها في الحياة الاجتماعية منذ عرفنا التاريخ الى العصر الحديث ؟ ربما لأني وقد قرأت الكثير عن دور اللغة في تاريخ البشرية ، أحسست أن

انطباعاتي من تلك القراءة تتسق إلى حد كبير مع فهمي للنصوص المقدسة، أو ما أستوحيه منها حين عرضت تلك النصوص لاختلاف اللغات وتنوعها بعد أن كانت لغة واحدة.

فتحدثنا التوراة في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين أن الأرض كانت كلها لساناً واحداً ولغة واحدة. ثم إن الناس قال بعضهم لبعض هلموا نبن لأنفسنا مدينة فيها برج يطاول السماء، وهلموا نخلع على أنفسنا شعاراً يوحد بيننا، ويحول دون تبددنا وتشتتنا فوق ظهر البسيطة. فلما رأى الرب ما هموا بصنعه، وتبين لحكمته أن وحدة اللغة ستدفعهم الى الطغيان والجبروت فلا يمتنع عليهم أن يعملوا كل ما ينوون عمله بلبل ألسنتهم فلم يعد يفهم بعضهم بعضاً، وبدد وحدتهم على وجه الأرض، فكانت لغات مختلفة لبني الإنسان بالرغم من أنهم أبناء أب واحد وأم واحدة. وتلك هي لعنة بابل التي كثيراً ما يشار إليها في كلام المفكرين من علماء أوربا.

فنصوص التوراة ولا ريب تجعل من اختلاف اللغات بين البشر مظهراً من مظاهر ابتلاء الرب لعباده في الحياة الدنيا حين بدا لحكمته أن توحدهم في لغة واحدة قد استُغل في تحدّي ربوبيته.

فوحدة اللغة كانت في بدء الخليقة خيراً، أو أريد بها أن تكون خيراً للإنسان، ولكنه أساء استغلالها، وتحدّى عن طريقها خالقه. فلولا لعنة بابل لكان الناس أمة واحدة أصحاب لسان واحد، يتفاهمون بعضهم مع بعض في سهولة ويسر، ويقضون مصالحهم في الدنيا دون نزاع أو شقاق.

هذا هو مبلغ فهمي لموقف التوراة من اختلاف اللغات، فما موقف القرآن الكريم؟ جاء النص على اختلاف الألسنة مرة واحدة في القرآن الكريم وبين آيات سورة الروم، تلك السورة التي تتضمن بعض آياتها

صورة رائعة لقصة الحياة البشرية فوق الأرض . فيها ست آيات متواليات تبدأ بالآية التاسعة عشرة وتحكي في إيجاز قصة البشرية منذ الخليقة إلى البعث وهي : (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) .

وهكذا نرى أن هذه الآيات الست تلخص لنا في ايجاز رائع قصة الحياة البشرية فوق الأرض ، وتبدأ كلّ هذه الآيات بعبارة « ومن آياته » أي من علاماته ومن دلائل قدرته وربوبيته وحكمته لعل الإنسان يتفكر ، لعله يسمع ويفهم ، لعله يعقل . فكلمة الآية في الأسلوب القرآني تعني العلامة ، وهو المعنى الأسامي في أكثر ما استعملت فيه ، وعنه يتفرع معنى المعجزة أو الحكمة أو المشيئة ونحوها .

ثم إن كلمة الآية بمعنى العلامة قد توحي بنفع مباشر للإنسان ، مثل (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً) ، وقد تدل في بعض النصوص القرآنية على الضرّ المباشر ، وذلك حين يشاء سبحانه أن يبتلي الإنسان في دنياه ليطهره من شروره وطغيانه . وأوضح مثل لهذا قوله تعالى في آل فرعون :

(فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات)، فكل هذه المحن أصابتهم وكانت بمثابة آيات بينات من عند الله .

ولكن كلمة الآية في الأسلوب القرآني وفي أكثر حالاتها لا توحي بأكثر من أنها علامة على قدرة الخالق .

ونتساءل بعد هذا ، هل كان اختلاف الألسنة والألوان من مظاهر نفع الإنسان فوق الأرض كما يقول بعض المفسرين ، أو هو ابتلاء من الله لخلقه في الحياة الدنيا ؟

أما اختلاف الألوان فما نراه الآن في بعض الشعوب من تعصب الإنسان وكراهيته لأخيه الإنسان بسبب اللون ، وبما نسمع عنه من مآسي التفرقة العنصرية لأكبر دليل على أن اختلاف الألوان مظهر ابتلاء للإنسان في الحياة الدنيا .

وكذلك الشأن في اختلاف الألسنة واللغات حين نتذكر المآسي التي كانت في كل عصور التاريخ بسبب اختلاف اللغات من حروب وثورات ليس لها من سبب حقيقي سوى أن المجتمعات البشرية قد عجزت عن فهم بعضها البعض حين افتقدت وسيلة موحدة للتفاهم تنتظمهم جميعا .

أما بعد : فهل كتب على الإنسان أن يظل فوق سطح البسيطة أسير تلك الأصوات التي ركب منها ما يسمى باللغات ، والتي تنوعت وتباينت حتى أصبح منها الآن ما يجاوز ألفين من الألسنة تفرق بين الجنس البشري ، وتقيم بين الإنسان وأخيه الإنسان حصوناً لم تستطع المدنية الحديثة بالرغم مما أوتيت من إمكانيات التغلب عليها أو اقتحامها ؟

فكم من مؤتمرات عالمية فشلت ولم تحقق هدفاً لا لشيء سوى أن المجتمعين بها كانوا يصطنعون لغات متباينة ، أو بعبارة أخرى يفكرون بعقليات متنافرة . ولا تزال للترجمة مشاكلها وزلاتها حتى في أرقى الأوساط العالمية كمنظمة الأمم المتحدة .

وصفحات التاريخ زاخرة بالمآسي التي مرّ بها الإنسان بسبب اختلاف اللغات . وأدركت الشعوب والأمم في عصور التاريخ ضرورة الوحدة اللغوية

بين الناس ، فكان أن نشأت في كل عصر تاريخي لغة مشتركة اصطنعتها عدة شعوب حيناً من الدهر ثم بادت أو اندثرت . فاللغة الأكادية أو لغة بابل وأشور تلك التي سادت في حوض دجلة والفرات قد انتظمت العالم القديم فترة من الزمن ، ثم جاءت بعدها الآرامية والإغريقية ثم اللاتينية ثم العربية ، وأخيراً في العصور الحديثة الفرنسية والإنجليزية . وكل لغة من هذه اللغات حاولت ما وسعتها المحاولة أن تصبح لغة الناس كافة .

وأحس بعض المفكرين من اللغويين منذ القرن السابع عشر بضرورة عمل جدي لعلاج هذه الحال ، فقاموا بوضع لغات مصنوعة بلغ عددها عشرات من اللغات ، راجين أن يصبح أي منها لساناً للناس جميعاً يجمع شملهم ويلم شتاتهم ، وذلك بعد أن يئسوا من تلك اللغات الطبيعية ، ورأوا أن أمثلة التاريخ لا تشجع على أن تصبح إحداها لغة عالمية . وأشهر هذه اللغات المصنوعة ما وضع في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . ويكفي أن نشير هنا إلى ثلاث لغات مصنوعة : أولاها تلك التي وضعها مفكر من بافاريا سنة ١٨٧٩ وسماها « فلابيك » Volapük ، وهذا الاسم منحوت من كلمتين معناهما « لغة العالم » . وقد قوبلت هذه اللغة المصنوعة في أول الأمر بحماس كبير ، غير أنه لم يكد يمر عليها أكثر من ثماني سنوات حتى وضع لغوي آخر من بولندا لغة مصنوعة أخرى ، فهجر معظم أنصار الأولى والمتحمسون لها تلك اللغة ، واتجهوا نحو اللغة المصنوعة الجديدة التي سميت « اسبرانتو » سنة ١٨٨٧ .

وقد تلمس هذا اللغوي البولندي طريقه على حذر ، فأخذ يدعو إلى لغته الجديدة متنكراً تحت اسم « الدكتور اسبرانتو » أو الدكتور المتفائل ، حتى أقبل الكثيرون عليها وتكوّن لها أنصار ، وحينئذ كشف عن اسمه الحقيقي . وتلك هي المحاولة الثانية ، بل إن « الاسبرانتو » تعد الآن أشهر اللغات العالمية المصنوعة . وقد أسسها صاحبها على عناصر استمدها من لغات

متباينة كاللاتينية والفرنسية والانجليزية والألمانية . واتخذت هذه اللغة أداة التفاهم في عدة مؤتمرات ، وآمن بها آلاف من الناس في شعوب مختلفة ، وذلك لأنها تتسم بالمرونة والاطّراد . غير أنهــا لم تستطع منافسة أقل اللغات الطبيعية انتشاراً ، وتبيّن حتى لأنصارها أنه قد يكون من اليسير أن يتحدّث بها الروميّ مع الأمريكي في مسائل السياحة والطعام والشراب والملابس ، فإذا تطرقنا الى الحديث عن مسائل الدين والعـلم والفلسفة لم تكد تلك اللغة تحقق الهدف من الحديث .

والغريب أنه في حياة واضع لغة الاسبرانتو قام جماعة من أنصارها بإدخال عدة تحسينات عليها جعلتها أكثر دقة وإحكاما ، وكانت بهــذا المحاولة الثالثة للغات المصنوعة ، وتلك هي التي سميت Ido « إيدو » سنة ١٩٠٧ ، ويرمز الحرفان الأولان من هذا الاسم الى كلمتين همــا International Delegation أي البعثة العالمية .

أما الحرف الأخير فهو علامة الاسمية على حسب النظام الموضوع في الاسبرانتو .

ويشهد العالم الحديث وسائل للاتصال بين الشعوب لم يكن يحلم بهما من قبل حتى أكثر الناس تفاؤلاً في مستقبل الإنسانية ، فلم تعد البحار أو الجبال أو الصحارى تحول بين الشعوب ، ولم يعد من الممكن لأحد هذه الشعوب أن ينعزل عن العالم أو أن يعيش على الاكتفاء الذاتي . فحتمية الاتصال من أوضح مظاهر العصر الحديث . ولدينا الآن من الطائرات ما يفوق سرعة الصوت ، بل لدينا الإذاعة والتليفزيون وسفن الفضاء وغيرها من وسائل جعلت قول « الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك » أمراً قريب الاحتمال غير بعيد المثال .

وتحاول الشعوب الآن جاهدة زيادة الصلة بينها ، ونجحت حتى الآن في لغة الموسيقى ورموزها العالمية ، فأصبح الموسيقيون في العالم الآن يفهم بعضهم

بعضاً في سهولة ويسر ، كما نجحت في كثير من مصطلحات العلوم ورموزها ولا سيما في الكيمياء والرياضة ، ثم أخيراً تلك المنظمات العالمية كاليونسكو ومنظمة الأمم المتحدة .

ومع كل هذا لا يزال الاتصال قاصراً والتفاهم غير تام ، بسبب ما يعوز الإنسان فوق الأرض من وسيلة مشتركة يتخاطبون بها ويعبرون بها لا عن أفكارهم وآرائهم فحسب ، بل عن أحاسيسهم وعواطفهم أيضاً ، وتلك هي اللغة العالمية التي يتطلع إليها الآن كثير من المفكرين في العصر الحديث .

والمفكرون بصدد هذه اللغة العالمية فريقان : فمنهم المتشائمون الذين يؤكدون لنا استحالة وجودها ، ويرون في أمثلة التاريخ ما يؤيد رأيهم ، وأن لعنة بابل ستظل تلاحق الإنسان في حياته الدنيا إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، فهناك في رأيهم دورة لغوية حتمية تتلخص في أن لهجات اللغة الواحدة قد ينشأ بينها صراع ثم لا يلبث أن تتغلب إحداها وأن تنشأ على أساسها لغة مشتركة تضم شعوباً مختلفة ، ثم يصيب الهرم أو الشيخوخة هذه اللغة المشتركة فتندثر حيناً ، أو تنحل إلى لهجات متباينة وتعود سيرتها الأولى. اللغات إذن في رأيهم تتنازعها الوحدة ثم الفرقة أو الاندثار ، ولن يكتب لإحداها الخلود أو انتظام كل المناطق ، وبين كل الشعوب ، سواء منها اللغة الطبيعية أو اللغة المصنوعة .

أما المتفائلون من علماء اللغة المحدثين فمنهم « لويس » في كتابه اللغة في المجتمع ، و « ماريوباي » في كتابه قصة اللغة . ويرى هؤلاء المتفائلون أن مصير العالم إلى الوحدة اللغوية وأن كل الدلائل في العصر الحديث تشير إلى هذا . ذلك لأن انحلال اللغة إلى لهجات فيما مضى من عصور التاريخ إنما كان بسبب انعزال البيئات بعضها عن بعض ، وهو ما لا سبيل إلى تصور حدوثه في العصر الحديث . فشبكة الاتصال بين شعوب العالم الآن وثيقة

محكمة الحلقات ، ولن يشهد عالم المستقبل ما كان يسمى في الماضي بالبيئة المنعزلة ، إذ تزيد الحاجة إلى توثيق الصلات بين بني البشر يوماً بعد يوم .
وكل الذي يتطلبه تحقق هذا الحلم السعيد هو صدق العزيمة من جانب المسئولين الحاكمين في كل شعب . فإذا اتفقت كلمتهم في منظمة الأمم المتحدة مثلا ، وخلصت نواياهم ، وآمنوا أن كثيراً من شرور الدنيا ومآسيها مبعثه الحقيقي فقدان الوسيلة المشتركة للتفاهم بينهم جميعاً ، أمكن تحقق ما يصبون إليه . وهؤلاء المتفائلون لا يتصورون مع هذا ان اللغات المحلية مقضي عليها بالفناء والاندثار ، بل كل الذي يطمع فيه ويطمح اليه من هو أكثرهم تفاؤلاً أن يصبح المرء ثنائي اللغة ، يحسن لغتين في آن واحد إحداهما تقتصر على بيئته المحلية والأخرى للناس كافة . أما الأولى فيلقنها في السنين الأولى من حياته ، وأما الأخرى فيبدأ تعلمها بعد هذا في المدارس ودور الحضانة . وتظل اللغتان تنموان معه حتى يستطيع السيطرة عليها في دور المراهقة .
وأياً كانت تلك اللغة العالمية التي ستستقر عليها إرادة الشعوب ، صعبة أو سهلة ، طبيعية أو مصنوعة ، واسعة الانتشار الآن أو ضيقة ، فكل هذه في رأيهم تفاصيل يمكن أن تدرس وأن تكون محل البحث بين مندوبي الشعوب في هذه المنظمة ، وإنما العامل الحاسم في هذا الأمر هو أن يحس حكام الشعوب إحساساً صادقاً أن في اللغة العالمية خير البشر وسعادته وهدوءه .

الدكتور ابراهيم أنيس

صفحات من تاريخ الاستشراق

- ١ -

ماذا يقصد بالشرق ؟

إن كلمة « الشرق » رغم كثرة استعمالها منذ ألفي سنة على الأقل ، ليس لها مفهوم واضح ، محدد ، ثابت . فهي تفيد أحياناً مجموعة معينة من البلاد في آسيا الغربية وافريقيا الشمالية ؛ وهي أحياناً أخرى تشمل في نظر الأوروبيين ، جميع أقطار آسيا ماعدا (سيبريا) . على أنه كثيراً ما يطلق على (الصين) و (اليابان) اسم خاص هو « الشرق الأقصى » بينما هناك اختلاف في تحديد البلاد التي يتضمنها مفهوم « الشرق الأوسط » و « الشرق الأدنى » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكلمة « الشرق » في الأصل من المصطلحات الفلكية . وهي لا تدل إلا على الجهة التي تشرق منها الشمس . فكل بقعة من الأرض هي شرق وغرب في وقت واحد حسبما يكون موقع الشخص الذي يتحدث عن هذه البقعة ، أما وصف قارة (آسيا) خاصة بأنها الشرق وقارة (أوربا) بأنها الغرب فيرجع الى زمن اليونان ، عندما كان الناس يعتقدون بأن الأرض مسطحة وأن القسم المعمور منها محدود .

واذا تأملنا في كتاب (هيرودوت) تبين لنا أن مفهومي الشرق (آسيا) والغرب (أوربا) قد برزا لأول مرة خلال الحرب الفارسية . فإن الاصطدام بالفرس قد خلق الوعي الذاتي لدى اليونانيين الذين كانوا ينظرون الى جميع الشعوب الأخرى كبرابرة ، رغم اعتراف كتابهم بأن بعض هذه الشعوب ، كالمصريين والبابليين ، كانوا يتقدمونهم في الحضارة .

وكانت (أوربا) في نظر اليونانيين تقتصر على العالم الهيليني (أي بلاد اليونان وشواطيء آسيا الصغرى وصقلية وجنوب ايطاليا) ، بينما تعتبر بلاد السكيث والجرمن والسلت والاسبان من عالم البرابرة .

وفي عهد الرومان ، عندما كانت (روما) تعتبر مركز المعمورة ، أطلقت كلمة (الشرق) على البلاد الواقعة في الجهة الشرقية من ايطاليا . إلا أن الرومان كانوا في بعض الحالات يقصدون بالشرق مملكة فارس القديمة ، وفي ظروف أخرى الامبراطورية المكدونية . ثم اكتسب اصطلاح (الشرق) مضموناً سياسياً محدوداً في عهد (فيليب العربي) ، إذ سمى هذا الامبراطور أخاه (يوليوس بريسقوس) حاكماً للشرق (Rector Orientis) . وكانت كلمة الشرق هنا تعني وحدة ادارية تشمل خمس ولايات من الامبراطورية الرومانية هي :

(١) الشرق بالمعنى الضيق (Oriens) ويتألف من مقاطعات (ليبيا) ومصر و (العربية) وفلسطين وفينيقية وسورية والفرات و (كيليكيا) وقبرص وما بين النهرين .

(٢) ولاية (بونتيكا) (الجسر) الممتدة من قبادوسيا حتى أرمينية .

(٣) (آسيانا) من فريجيا حتى الدردنيل .

(٤) (تراقيا) .

(٥) (موزيا) من رومانيا حتى اليونان وكريد .

وكانت عاصمة الولايات الشرقية كلها هي أنطاكية ، حيث كان يقيم الحاكم العام (Praefectus praetoris) .

وقد ازداد الاختلاف السياسي بين الشرق والغرب منذ أن انقسمت الامبراطورية الرومانية في سنة (٣٩٥) الى الامبراطورية الغربية والامبراطورية الشرقية (التي كانت تسمى أيضاً الشرق Oriens) . وبالاضافة الى ذلك نشأ في العصور التالية الخلاف المذهبي بين البابوية في روما وبين البطريركية

في القسطنطينية ، الذي أدى الى الانفصال والى قيام الكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية) .

ثم تبدل مفهوم (الشرق) بعد ظهور الإسلام وتأسيس الامبراطورية العربية ، فأصبح يطلق بوجه عام على البلاد الإسلامية . وفي أثناء الحروب الصليبية صار الدين الإسلامي رمزاً للشرق والديانة المسيحية رمزاً للغرب .

ومرة أخرى حصل تحوير طفيف في مضمون كلمة (الشرق) بعد قيام الأتراك العثمانيين واتساع فتوحاتهم في أوربة ، فأصبح الشرق في نظر الأوربيين مرادفاً للدولة العثمانية . ولذلك أطلقوا اسم « المسألة الشرقية » على مجموعة المشاكل التي نجمت عن الاصطدام بين العثمانيين والأوربيين وعن التضارب في سياسة الدول الأوربية تجاه الامبراطورية العثمانية وتقرير مصيرها بعد ما ظهر عليها الانحطاط والتفسخ والتفتت . وتبعاً لهذه التقلبات التاريخية كان يتغير مدلول (الشرق) و (الغرب) ويختلف امتدادها الجغرافي . وبينا تقدمت حدود أوربة في عهد الإسكندر المكدوني حتى حوض (السند) وتوقفت في عهد الرومان عند حوض الفرات ، إذا بها تتقهقر بعد ظهور الإسلام وفتوحاته وترجع حتى أبواب (فيينا) سنة ١٥٢٩ في عهد العثمانيين .

يتبين من ذلك أن كلمة (الشرق) عبارة عن اصطلاح سياسي - جغرافي - تاريخي يشير إلى النزاع بين الفرس واليونان في القديم ، وبين الإسلام والمسيحية في القرون الوسطى ، وإلى الاصطدام بين الدولة العثمانية والدول الأوربية في العصور الحديثة ، كما يتضمن شعوراً بالفروق في العقلية والثقافة والحضارة بين شعوب أوربا من جهة وشعوب آسيا وافريقية من جهة ثانية .

بسبب هذه النظرة الإجمالية السطحية غفل الكثيرون عن الفروق والتناقضات بين الشعوب الأوربية نفسها فشاعت مصطلحات مثل (الغرب) أو (الحضارة الغربية) أو (العقلية الغربية) . فهل يقصد بالغرب مثلاً القارة الأوربية

كلها بما في ذلك البلقان وروسيا وسائر البلاد السلافية أم بعض أجزاء أوربا فقط كفرنسا وانكلترا وإيطاليا وبلجيكا وهولندا واسكنديناقيا ؟

وأخيراً ألم نشاهد في هذه السنوات تطوراً جديداً لمفهومي (الشرق) و (الغرب) إذ أصبحا يرمزان إلى الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية من جهة ثم إلى الولايات الأمريكية المتحدة ودول الحلف الأطلسي من جهة ثانية . فكلمة (الشرق) في الصحف والخطب السياسية إنما تعني اليوم الاتحاد السوفياتي وحلفاءه . أما البلاد التي كانت تطلق عليها هذه الكلمة في السابق فلا بد من تحديدها باصطلاحات خاصة مثل الشرق الأدنى أو الشرق الأوسط أو الشرق الأقصى أو جنوب شرقي آسيا أو الأقطار العربية أو العالم الإسلامي .

هكذا لا يمكننا ادراك المعاني التي تتضمنها كلمة (الشرق) إلا إذا لاحظنا تطور العلاقات بين الشعوب الأوروبية من جهة وشعوب آسيا وافريقيا من جهة ثانية . بذلك تتضح لنا أيضاً العوامل التي أدت إلى نشأة « الاستشراق » واهتمام الأمم الغربية بهذه الدراسات .

العلاقة بين الشرق والغرب :

ان العلاقات بين الشرق والغرب قديمة ومتشابكة جدا . فمنذ فجر التاريخ كانت شعوب القارات الثلاث : آسيا وافريقيا وأوربا ــ وهي التي كان يتألف منها العالم المعمور ــ يقتبس بعضها عن بعض ، ويؤثر أحدها في الآخر .

ومن المعلوم أن قدماء اليونان قد أخذوا العناصر الأولى في حضارتهم عن المصريين والبابليين والفينيقيين ، وظلوا مدة عصور طويلة يعتبرون أنفسهم تلامذة لهذه الأمم الشرقية التي تقدمتهم في الحضارة والثقافة .

ولما نشبت الحروب الفارسية استولى الفزع على اليونانيين فقام شعراؤهم وكتابهم يلهبون المشاعر والعواطف في سبيل الدفاع عن كيانهم القومي ،

واندفعوا ، في حماستهم الوطنية يصفون الفرس والشعوب الأخرى الخاضعة للامبراطورية الفارسية بالهمجية ويسمونهم « برابرة » ولا شك في أن مؤلفات هؤلاء الشعراء والكتاب ، التي أصبحت فيما بعد أساساً لثقافة الغرب ، كان لها بعض التأثير في تشويه صورة الشرق لدى الغربيين .

وعلى أثر فتوحات الاسكندر المكدوني ، الذي حاول توطيد حكمه بالتقريب بين الشرقيين والغربيين . انتشرت الثقافة اليونانية في آسيا وإفريقيا ، حيث امتزجت بالعقائد الدينية والنزعات الصوفية . ومن هذا التمازج نشأت الحضارة « الهلينستية » ذات الصبغة العالمية .

وكان يبدو ، بعد قيام الامبراطورية الرومانية ، أن الغرب قد فرض سيطرته على الشرق . ولكن سرعان ما تجدد الصراع بانقسام الامبراطورية الرومانية الى شرقية وغربية ، وباحتدام الاختلافات المذهبية واستئناف الحروب بين البزنطيين والساسانيين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثم جاء الإسلام . فتولى العرب قيادة الشرق وتوحيد كلمته . والمؤرخون الغربيون لا يجدون تفسيراً للسرعة التي فتح بها العرب سورية ومصر (بين سنة ٦٣٤ و ٦٤٣) الا رغبة السكان السريان والأقباط « الشرقيين » في التخلص من الاضطهاد البزنطي « الغربي » . ولم يعترف الغربيون بأن الإسلام إنما أراد إتمام ما بدأته الديانات السماوية السابقة ، ونسوا أن المسيحية نفسها كانت قد جاءت إليهم من الشرق ، فاعتبروا الدين الجديد مظهراً للثورة الكبرى تقوم بها آسيا ضد سيطرة اليونان والرومان ، وصاروا منذ ذلك الوقت يصورون الاختلاف بين الشرق والغرب كصراع بين الإسلام والمسيحية . هكذا يصفون صمود القسطنطينية لحصار العرب (سنة ٧١٧ — ٧١٨) ، أو انتصار (شارل مارتيل) في بواتيه (سنة ٧٣٢) على أنها عمليتا انقاذ للحضارة الغربية ـ المسيحية .

وقد بلغ النزاع بين الطرفين ذروته أثناء الحملات الصليبية التي قام بها الغرب فاستخدم العقيدة الدينية ستاراً ووسيلة لتحقيق مطامعه الاستعمارية . ولكن نجاح الصليبيين لم يستمر طويلا واستطاع المسلمون أن يسترجعوا بعد مائتي سنة كل البلاد التي فقدوها . وعلى الرغم مما اتصفت به الحملات الصليبية من تعصب وحقد وما رافقها من أعمال العنف والقسوة فقد لاحظ الغربيون ، بعد الاحتكاك المباشر ، أن الشرقيين يفوقونهم في جميع نواحي الحضارة . وكان طبيعياً أن يمتزج الخوف والبغض لديهم بشيء من الاعجاب ثم بالرغبة في المعرفة والميل إلى الاقتباس . إلا ان الحضارة العربية ــ الإسلامية كان لها تأثير أعمق في تطور الغرب عن طريقين آخرين هما : الأندلس وصقلية .

فقد كان ملوك النورمانديين في صقلية من (روجر) الأول إلى (فريدريك) الثاني إلى (مانفريد) يستعينون بالموظفين العرب في إدارة البلاد وتنظيم الشرطة والمالية ، كما انهم جمعوا حولهم كثيرين من علماء المسلمين ، واعتنوا بترجمة المؤلفات العربية في مختلف العلوم والفنون وتدريسها في الجامعات التي أسسوها على نمط المدارس الإسلامية .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكانت طليطلة في الأندلس من أكبر مراكز العلم عند العرب المسلمين ، فلما سقطت في أيدي الاسبان (سنة ١٠٨٥) أسرع اليها طلاب العلم من كل أنحاء أوربا ، وقام رئيس أساقفتها (ريموند) بين (١١٣٠ ــ ١١٥٠) فأسس فيهـــا المدرسة المشهورة للترجمة التي دامت حتى القرن الثالث عشر وساعدت على نقل أهم كتب الطب والفلك والطبيعة والفلسفة من العربية إلى اللاتينية . ومن اسبانيا انتقلت حركة الترجمة إلى إيطاليا ، حيث استمرت حتى منتصف القرن السادس عشر . وإذا ظل بعض العلماء في النمسا وألمانيا وفرنسا يعتمدون على مؤلفات الأطباء والصيادلة العرب في القرن السابع عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر فلا شك في أن الأوربيين لم يعودوا يشعرون

بالحاجة إلى التعليم من العرب بعد اختراع الطباعة وبعد اكتشافات (كوبرنيكوس) و (باراسلسوس) و (فيزاليوس) .

ومن جهة أخرى لاحظ رجال الكنيسة الغربيون منذ الحملات الصليبية أنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً واضحاً عن العقيدة الإسلامية وأنه لا بد لهم من ترجمة القرآن والأحاديث النبوية وأقوال العلماء المسلمين ليستطيعوا الرد عليها ومحاولة نقضها والحيلولة دون تأثيرها في نفوس شعوبهم . لذلك نرى المجمع الديني الذي عقد في (فيينا) سنة (١٣١١ — ١٣١٢) يدعو العلماء المسيحيين إلى الرد على آراء الفلاسفة المسلمين .

هكذا بدأت الدراسات الشرقية على أساس غير صحيح ، لأنها كانت منذ باديء الأمر خاضعة لفكرة الجدل الديني .

لم تنقض مدة طويلة على نهاية الحملات الصليبية حتى تجددت الحروب بين الشرق والغرب بعد قيام الدولة العثمانية التي استطاعت أن تفتح القسطنطينية ، والتي ظلت جيوشها تتوغل في قلب البلاد الأوربية حتى القرن السادس عشر . وكانت اوربا تعتبر الأتراك العثمانيين ممثلين لروح آسيا ولقوة الإسلام . وكان طبيعياً أن ينقلب الخوف والفزع من الأتراك إلى حقد على الإسلام وكره لآسيا ، فنرى الكتاب الأوربيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر يسمون محمداً (ﷺ) بنبي الأتراك ويسعون إلى مكافحة العثمانيين بالتهجم على الرسول والطعن في الإسلام .

ولكن في الوقت ذاته أخذ الأوربيون يفكرون في مهاجمة العالم الإسلامي من الخلف بالدوران حول افريقيا عن طريق البحر . ولا ننس ان فشل الحملات الصليبية ثم احتكار تجارة الهند من قبل المماليك كانا من العوامل التي دفعت الأوربيين الى البحث عن طريق آخر إلى الهند والشرق الأقصى ، فبدأت بذلك الرحلات والاكتشافات البحرية الكبيرة في أوائل القرن

السادس عشر . وقد جاء في البيان الذي أصدره القائد البحري البرتغالي (البوكرك) في (مالاقا) بالهند الصينية ، أن البرتغاليين بسيطرتهم على تجارة الأفاويه إنما يطمعون في إضعاف قوة المسلمين . وكان المبشرون البرتغاليون يقومون بحملة صليبية ضد الإسلام . وكانت الظروف في الهند خاصة ملائمة إذ ذاك للاستعمار البرتغالي . ولكن بعد قيام ملوك المغول الكبار واعادة توحيد المملكة الإسلامية في الهند تبدلت الحالة هناك في القرن السابع عشر . وانتهز الهولنديون والانكليز الفرصة ليحلوا مكان البرتغاليين فأخذوا يساعدون الهنود ضد هؤلاء. واتبعت الشركتان الهندية ـ الهولندية ، والهندية ـ الانكليزية سياسة سلمية ، تجارية بحتة في باديء الأمر ، والتزمتا الحياد التام تجاه سكان البلاد في المسائل الدينية كما انها كانتا ، تبعاً لعقيدتها البروتستانتية ، تكافحان من جهة ثانيــة الجمعيات الكاثوليكية التي كانت تقوم بالدعوة التبشيرية وتثير نفرة السكان .

ومنذ انكسار الأتراك العثمانيين في معركة (لبانتو) البحرية (عام ١٥٧١) أخذ خوف الأوربيين منهم يخف . وما كاد ينتهي القرن السابع عشر حتى تلاشى هذا الخوف بعد أن لاحظ الأوربيون اضطراب أحوال الدولة العثمانية وتدهور قوتها ، فاتجهت أطماعهم إلى سلب ممتلكاتها . وكانت أوربا في ذلك العهد تتقدم في طريق القوة العسكرية والازدهار الاقتصادي ، وأخذت تشعر بالحاجة إلى أسواق لتصريف منتوجاتها الصناعية . وبذلك بدأ التوسع الاستعماري واستيلاء الغربيين على آسيا وإفريقيا ، وتشابكت المصالح التجارية مع المطامع السياسية . وليس تاريخ هذا التوسع سوى سلسلة من أعمال العنف والخداع والخيانة ونقض العهود والمساومات الحقيرة والمؤامرات الدنيئة .

وكانت القيــادة قد انتقلت في القرن السابع عشر من البرتغاليين إلى الهولنديين . ثم برزت انكلترا وفرنسا اللتان استمر التنافس بينهما خلال القرن الثامن عشر وانتهى الأمر بسيطرة انكلترا في القرن التاسع عشر . وفي

أواخر ذلك العصر أخذت ألمانيـا وإيطاليا أيضاً تشتركان في التوسع الاستعماري بينما ظلت روسيا القيصرية منذ القرن الثامن عشر تطمع في ميراث الدولة العثمانية وتعمل على بسط سيطرتها ونفوذها في البلقـان والقفقاس وآسيا الوسطى .

وخلال جميع هذه المراحل لعب المستشرقون دوراً هاماً في التمهيد للتوسع الاستعماري وتوطيد سيطرة الغربيين في الشرق .

متى بدأ الاستشراق ؟

يقول بعض المستشرقين إن أول مدرسة للدراسات الشرقية في اوربا هي التي أسست في طليطلة سنة (١٢٥٠) ، وكانت تدرس فيها اللغة العربية والعبرية لإعداد رجال يستطيعون التبشير بين المسلمين واليهود .

ومن أشهر المبشرين الذين تخرجوا من هذه المدرسة (رايموندوس لوللوس) (Raymundus Lullus) حوالي سنة (١٣١٥) . وكان (لوللوس) يتقن اللغة العربية ويعرف المؤلفين العرب معرفة جيدة ربما لا يضاهيه فيها أحد من الغربيين حتى العصور الحديثة . فقد درس القرآن والحديث واطلع على كتب المتكلمين والفلاسفة . ونراه في مؤلفاته الجدلية للرد على المسلمين يستشهد بأقوال الفارابي وابن رشد وعلى الأخص الغزالي الذي اقتبس قسماً كبيراً من كتابه « تهافت الفلاسفة » .

ويبدو أنه كان هناك شعور عام بالحاجة إلى معرفة اللغات الشرقية والغربية . ومما يؤيد ذلك الرسالة التي نشرها الكاتب الفرنسي (بيير دوبوا Pierre Dubois) في سنة ١٣٠٦ بعنوان « استرجاع الأراضي المقدسة » فقد رسم فيها منهاجاً لاستعمار الشرق من قبل شعوب أوربا المسيحية بقيادة ملوك فرنسا . ويقتضي هذا المنهاج تأسيس مدارس لتعليم اللغات لا تقتصر

على اعداد ما تستلزمه هذه الخطة السياسية من موظفين وضباط وتراجمة ومفاوضين ومبشرين وأطباء ، بل تهيء كذلك الفتيات الأوربيات اللواتي يجب تزويجهن بالزعماء الشرقيين للقيام بالمهمة الملقاة على عواتقهن .

وفي سنة (١٣١١ - ١٣١٢) تقدم (رايموندوس لوللوس) إلى المجمع الديني الذي عقد في (فيينا) باقتراح يطلب فيه :

١ - تأسيس معاهد لتدريس مختلف اللغات واعـداد رجال يبشرون بالكتاب المقدس بين جميع الشعوب ؟

٢ - تكوين منظمة دينية من الفرسان تسعى إلى استرداد البلاد المقدسة .

٣ - العهدة إلى العلماء بتأليف الكتب للرد على العقائد المنافية للكاثوليكية .

وفي الواقع قرر مجمع (فيينا) تأسيس كرسيين لتعليم اللغات العربية والعبرية والكلدانية واليونانية في كل من جامعات (روما) و (بولونيا) و (باريس) و (اكسفورد) و (سلمنكا) . على أن هذه الكراسي ظلت شاغرة مدة طويلة من الزمن لفقدان المدرسين الأكفياء . وقد انصرفت الجهود حتى القرن السادس عشر إلى الترجمة عن العربية التي كان يتولاها في الغالب اليهود الاسبانيون . واتجهت العناية هنا إلى نقل الكتب الطبية والفلكية والفلسفية إلى اللغة اللاتينية والاطلاع على محتوياتها والاستفادة منها ، فلم يهتم الرأي العام بدراسة الشرق ذاته .

ومن جهة أخرى فإن فشل محاولات التبشير لم يكن من شأنه أن يشجع رجال الكهنوت على دراسة اللغات والديانات الأجنبية . لذلك لم تنشط الدراسات الشرقية إلا بعد القرن السادس عشر بتأثير عوامل عديدة.

(للبحث صلة) محمد كامل عياد

الكلام المولد في معاجمنا الحديثة

اللغات كالناطقين بها تنمو وتضمحلّ أو تتقدم وتتأخر تبعاً لناموس عامّ يشمل جميع الكائنات الحية . ويحدث النموّ في اللغة بتأثير عاملين رئيسين : أحدهما هو الكسب الخارجيّ أي مايتسرّب اليها من لغات أخرى ثم يتأصّل فيها حتى يصبح جزءاً ثابتاً منها . وقلّما تجد لغة لم تتأثر كثيراً أو قليلاً بسواها ، فلا بدعَ أن يكون في لغتنا العربية ألفاظ وأوضاع دخيلة استقرّت فيها على توالي العهود وأصبحت تمدّ بين الفصيح من كلامها ، وها نحن نستعملها في نثرنا وشعرنا دون أن نحسبها غريبة الأصل ، بل ان بعضها قد غلب على مايقابله من العربي الأصيل وأقصاه عن الاستعمال حتى أصبح في حكم الميت أو المهجور كهذه المعرّبات مثلا وهي قلٌّ من كُثر :

المسك	وفي العربية	الأصلية	المشموم
البلور	«	«	المها
فخّ	«	«	الطِرق
الترياق	«	«	المَسوس
العربون	«	«	المَسكان
الهندباء	«	«	اللّعاعة
الدسكرة	«	«	الدسيمة

على أن المعربات غير داخلة في بحثنا هذا ، وقد خصصناه للكلام المولّد . فحسبي الآن هذه الإشارة الوجيزة اليها . ولا يخفى انها تشمل المئات ان لم نقل الألوف من ألفاظ العلوم والفنون والحضارة والحياة العامة .

أما العامل الثاني فهو التولّد الذاتيّ أي ماينشأ في داخلها من ألفاظ استُحدِثت عفواً أو قصداً لأغراض ومعانٍ جديدة ، وقد كان ذلك على الطرق التالية :

(١) طريق التحوّل المعنوي : وهو أن تكتسب اللفظة معنى جديداً غير معناها الأصلي والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخنا اللغوي أكتفي منها للإيضاح بما يلي :

الكفر — والمعنى الأصلي التغطية : ثم اكتسبت معنى الإلحاد او الإنكار

التوقيع — « « التأثير : وهي الآن وضع اسم الكاتب على مايكتبه .

المقامة — والمعنى الأصلي المكان أو المجلس : فتحولت إلى نوع من القصص المسجع .

الدولة — والمعنى الأصلي انقلاب الزمن والحال : ونستعملها الآن للملك أو الحكومة .

فكّهُ — ومعناها الأصلي قدّم له الفاكهة : وتستعمل الآن للتسلية بكلام طريف .

القطار — ومعناها الأصلي صفٌّ مقطور من الجمال . وهي الآن سكّة الحديد .

السّجادة — معناها الأصلي ما يسجد عليه وقت الصلاة . وهي الآن الطنفسة أو البساط .

النظم — معناها الأصلي جمع اللؤلؤ في سلك . وتستعار الآن لنظم الكتابة أو الشعر .

النحو — معناها الأصلي القصد أو الجهة . واستعيرت لعلم العربية المعروف .

المُضيفة — معناها الأصلي من تستقبل الضيوف في المنزل . وأصبحت الآن للفتاة التي تعتني بركاب الطائرة .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحضارة ـ معناها الأصلي ضدّ البداوة . ويفهم منها الآن المدنية او العمران الاجتماعي والعلمي والصناعي .

وقس على هذه الأمثلة الدينية والإدارية والعلمية وسواهـا مما اكسبها الزمان وتطور الحياة معاني غير معانيها الأصلية .

(٢) طريق الوضع اللفظي : أي وضع ألفاظ جديدة لمختلف المعاني والأغراض . وقد توفر على ذلك أهل العلم والأدب قديماً وحديثاً فأضافوا إلى اللغة كثيراً مما لم تعرفه من قبل . وباب الوضع واسع يدخل فيه النحت والقياس والاشتقاق . وقد زاد اتساعاً إبّان نهضتنا الجديدة . وهاك بعض ألفاظ حديثة وهي نقطة من بحر مما وضعه المحدثون فضلاً عما سبق إليه السلف في شتى العصور .

العُضويّة ـ أي الانتساب إلى جمعية أو هيأة ذات نظام خاص .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

المنطاد ـ لما يعرف بالفرب بالبالون .

الدراجة ـ وهي ترجمة للبيسكلات

الشيوعية ـ للنوع المعروف من الحكم الاشتراكي .

التلاشي ـ الاضمحلال وهي منحوتة من لا شيء وقد ولّدت في عصر سابق .

التقاليد ـ الأمور أو السُّنن المتبّعة أو الموروثة عن السلف ، وقد استعملها بعضهم قبلاً .

الهاتف ـ للتلفون .

المذياع ـ لآلة الراديو المذيعة .

الميمطر ـ للثوب الواقي من المطر وهو توليد قديم .

المأساة ـ للرواية المسرحية المحزنة .

البستنة ـ علم زرع البساتين .

البَلاط ـ لقصر الملك أو مركز حكمه وإدارته للمملكة .

(٣) الوضع المجازي : أي توليد اصطلاحات مجازية للتعبير عن معانٍ خاصة كقولنا .

القوة الضاربة – أي السلاح الكافي لضرب العدو .
اجتمع المؤتمر على صعيد الوزراء أي كان مؤلفاً من وزراء الدول .
غسل يديه من المسألة – أي تبرأ منها .
ضرب الرقم القياسي – أي تجاوزه إلى حد أبعد .
السوق السوداء – السوق يتعامل بها خفية تهرباً من التسعير القانوني .
هو صاحب الكرسي – أي رئيس المجلس .
الشارع يناصر فلانا – أي السوقة وعامّة الناس .
أخذ المبادرة – أي سبق غيره في أمر ما .
انتهاك صارخ لحقوق الشعب – أي انتهاك واضح وشديد .
ركب رأسه – لمن تعسف وسار على هواه .
ناطحات السحاب – للأبنية الشاهقة العلو .
توترت العلاقات بينهم – أي ساءت واشتدت .
صوّت في الجلسة لفلان – أي كان من مؤيديه . اظهر تأييده له .
وقس على ما ذكر من مفردات ومصطلحات ما لا يمكن حصرة في مثل هذا المقام .

(٤) الاشتقاق الاسمي : أي اشتقاق صيغ من أسماء خاصة . ومن أمثلته :

قنّن – من القانون . نقول قنّن الطعام أي تناوله بحسب قانون محدّد.
موّل – من المال . موّل المشاريع أي قدم المال اللازم لها .
تطور – من الطّور . فنظام التطور هو التقدم من طور الى طور .
عيّد – من العيد . احتفل بالعيد أو هنأ به .
قوّم – من القيمة . تقويم الأشياء أي تقدير قيمتها .
استجوب – من الجواب . استجوب القاضي فلاناً أي طلب منه الجواب .

وقد شاع حتى كاد يصبح قياسياً وزن تفعّل من أسماء المدن والبلدان والأمم كقولهم : تمصّر أي اتخذ الجنسية المصرية ، وتفرنس اتخذ الجنسية الفرنسية ، وهكذا تأمرك وتألمن ، وتبلشف وتعرّب واشباهها .

فالتوليد في اللغة حركة نموّ متصلة الأسباب لم تنقطع في زمن من الأزمنة على أنها كانت تختلف قوةً واتساعاً من عصر إلى عصر . ولعلّ عصر العربية الذهبي أيام العباسيين وعصر نهضتنا الحديثة هما أكثر العصور انتاجاً في هذا الباب . ففي كليهما نشأت حاجات اجتماعية وفكرية دفعت أهل الأقلام إلى التوليد اللغوي . فلم يتلكأوا عن سدّ تلك الحاجات بألفاظ وأوضاع لم تُرو عمّن يُحتجّ بكلامهم من أهل اللغة الأقدمين . وهنا يمكن القول أن نظر القدماء من علماء اللغة إلى هذه المولّدات يختلف عن نظر المحدثين منهم . فالقدماء أوصدوا الباب دونها فلم تثبتها معاجمهم وهكذا بقيت خارج حرم اللغة الفصحى . وكانوا إذا ذكروا المولّد ذكروه على أنه غير عربي الأصل . وعليه يقول السيوطي في المزهر : « المولّد ما أحدثه المولدون الذين لا يُحتجّ بألفاظهم » . ويذهب الفارابي إلى أبعد من هذا فيصنّف الألفاظ بقوله : « هذه عربية وهذه مولّدة » . وكثيرون حاولوا وقف هذا التيار اللغوي الجديد فوضعوا الكتب في اصلاح ما خرج عن الأصول ، أو في تعريف المتأدبين ما يحتاجون إليه من قواعدَ وأحكامٍ تقيهم مغبّة الخطأ أو الانحراف عن طريق الصواب ، كما فعل ابن قُتَيبة في أدب الكاتب ، والحريري في درّة الغوّاص ، والجواليقي في التكملة ، وغيرهم من سابق ولاحق . وفي القرن الحادي عشر الهجري يضع شهاب الدين الخفاجي كتابه « شفاء الغليل في ما ورد في كلام العرب من الدخيل » . فيثبت من هـذا الدخيل ما يقارب مئة لفظة عربية مولّدة . ولم يكن الخفاجي من المترمّتين بدليل ما نرى له من مواقف في ردّه على أوهـام

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحريري في درّة الغوّاص ، ولكنه جارى الرأي العام القديم في نظره إلى الفرق بين المولّد والعربي الأصيل .

فاللغويون السالفون من مُعجَميين وسواهم ظلوا منذ أخذ الخليل بن أحمد في القرن الثاني الهجري يؤلف كتاب العين حتى بدء النهضة العربية في القرن التاسع عشر للميلاد لايرون في ما لم يُروَ عن عصر الاحتجاج مايؤهله لدخول المعاجم أو يرفعه إلى درجة الاستشهاد به ولو ورد في كلام كبار الكتبة والشعراء . فلما قام الرائد العلاّمة بطرس البستاني ووضع أول معجم حديث وهو المعروف بمحيط المحيط جعل معتمده القاموس المحيط للفيروزبادي كما جعل هذا الأخير معتمدَه المحكم لابن سيده والعباب للصاغاني وقد أدرك أن محيط الفيروزبادي وسائر المعاجم القديمة تخلو من معظم الكلام المولّد فأضاف إليه كثيراً من هذه المولّدات التي نشأت مع الزمن . على أنه لم يجرُؤ على الجزم بعدّها مساوية في الفصاحة للأصول المثبتة في الكتب القديمة فتراه يقف هنيهة عند نهاية حرف الراء من معجمه محيط المحيط ليقول معتذراً :

« وقد أضفت إلى أصول الأركان (أي مواد قاموس الفيروزابادي) فروعاً كثيرة وتفاصيل شتى . وألحقت بذلك اصطلاحات العلوم والفنون وكثيراً من المسائل والقواعد والشوارد مما لايتعلق بمتن اللغة . وذلك لكي يكون هذا الكتاب كاملاً شاملاً ، يجد فيه كل طالب مطلوبه من هذا القبيل . وبهذا الاعتبار تنازلت إلى ذكر كثير من كلام المولدين وألفاظ العامة ، منبهاً في أماكنها على أنها خارجة عن أصل اللغة . وعسى بذلك يتمهد لي العذر في هذا التساهل الذي ارتكبته .

وقد يتزيّا بالهوى غير أهله ويستصحب الإنسان من لايلائمه »

فالبستانيّ وهو رائد واضعي المعاجم الحديثة قد رأى الفائدة العامة من إثبات المولّد في « محيط المحيط » ولكنه عدّ إثباته تساهلاً ينبغي

الاعتذار عنه للمحافظين من أرباب اللغة . والواقع أنّ اعتذاره لم يذهب بفائدة ما فعل . فقد فتح باب المعجم العربي لغير ماروُيَ عن عصر الاحتجاج . وتبعه في ذلك ولكن بخطوات أبطأ سعيد الشرتوني في « أقرب الموارد » والشيخ عبد الله البستاني في معجمه البستان . وقد كتب مقدّمة البستان الخوري بطرس البستاني مصرحاً بأن « ما خطته يده فيها إنما هو من بحر أستاذه مؤلف المعجم المذكور » . وهو يعبّر عن الروح التي أخذت تتحرك في نفوس أدباء هذا العصر إذ يحمل على ما يسميه « تحرّج اللغويين القدامى وحرصهم على فُصَح اللغة في ما رُوي عن أهل الحجاز وبعض القبائل المتوغلة في البداوة دون سواها » فيقول :

« ولولا هذا التقصير لما كنّا اليوم على ما نحن عليه من العجز الفاحش عن تأدية كثير من المعاني والأدوات الحضرية بألفاظ نستخرجها من معدن اللغة نفسها » . إلى قوله : « على انهم لو وقفوا عند هذا الحد من التفريط لكانت البلية أخفّ وطأة وأيسر محملا . ولكنهم أعرضوا أيضاً عن أغلب الألفاظ التي جدّت في اللغة ، ولا سيما عهد العباسيين ، بحجة أنها من استنباط المولّدين لم تجر على ألسنة العرب الخلصاء لا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام » .

وكذلك أثبت معجم « المنجد » للأب لويس المعلوف عدداً غير قليل من الألفاظ المولّدة دون أن ينبّه اليها أو يبحث في حركة التوليد وأثرها . فهو كما قال واضعه مؤلف مدرسي وضع ليسدّ الحاجة الى معجم « ليس بالمخلّ المعوز ولا بالطويل المملّ المعجز يكون قريب المأخذ ممتازاً بما عرفت به المعجمات المدرسية في اللغات الأجنبيـــة من إحكام الوضع ووضوح الدلالة » .

ولبعض المستشرقين اهتمام خاص بالألفاظ والمصطلحات العربية الجديدة

نذكر منهم على سبيل المثال اللغوي الألماني هانز فهر Hans Weher الذي وضع في أعقاب الحرب الثانية معجماً بالمفردات العربية المستعملة في الكتابات الحديثة . وبعد سنوات قليلة اشترك مع لغوي آخر هو : ج . ملتون كَوَن G. Milton Cowan فنقله هذا الأخير الى الإنكليزية بعد أن نقّحاه وتوسّعا فيه ونشراه سنة ١٩٦١ باسم « معجم للعربية الكتابية الحديثة A Dictionary of Modern Written Arabic » وقد نظرتُ فيه فوجدته يحوي كثيراً من الكلمات المولدة التي يستعملها كتابنا في هـذا العصر (عدا كثير من المعربات والألفاظ العاميّة) . ومن أمثال ما ورد فيه :

المذهب التأثري .

أذونات البريد .

الأساسيات (المبادىء الأساسية) .

انسانيّة .

الإبداعية (الرومانسية) .

تجريدة (كتيبة من الجيش) .

جارور (للدرج) في المنضدة .

المعارضة (الحزب المعارض للحكومة في المجلس)

منزول منزل للضيوف .

ملخلخ ـ مهزوز ـ غير ثابت .

وقس عليها عشرات مما تقع عليه في الصحف أو كتب الأدب الحديثة .

ومهما يكن فالذي لا شك فيه أن معاجمنا الحديثة أكثر تساهلا من القديمة في النظر الى المولدات . على أن هذا التساهل ظلّ غير قائم على دراسات وافية تعالج الموضوع من أساسه ، الى أن ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى هيئات لغوية « رسمية » فاضطلعت بهذه المهمّة ، كالمجمع

العلمي العربي في دمشق ، ومجمع اللغة العربية في القاهرة والمجمع العلمي العراقي ببغداد . وكان لكل منها يد تذكر في ذلك . على أن أنظار أرباب اللغة كانت بالأكثر متجهة الى مجمع القاهرة أولاً لما يتمتع به من صفة التمثيل العام ، وثانياً لأنه جعل غايته وضع معجم كبير للغة العربية جامع لجميع موادّها الأصلية والمولدة والمعربة من قديمة ومحدثة مع شرح واف لها ، وتاريخ للدخيل منها ، وتبيان لأصولها وطرق استعمالها .

والذي يراجع مقرراته والأسس التي وضعها ليبني عليها هذا البناء العظيم يجد أنه مع حرصه على سلامة اللغة ومحافظته على تراثها القديم لم يقف إزاء التطوّر العام وقفة المستنكر ، ولا تردّد في اقتباس الجديد الموافق ، ولا سمح للعاطفة القوميّة أن توجه نظره الى ما وراء فقط ، فتعميه عن رؤية ما هو أمام ، بل جابه مشكلات اللغة بحسّ عاليٍ سليم في أكثر الأحيان ، وناقش حلولها بصراحة وحرية تامة . ولا ينكر أنه كان يتعثّر أحياناً في طريقه فيتعسّف في بعض مقرراته ، ولكنه لم يكن يأبى النقد العام ، أو يأنف من أن يتراجع عن الخطأ .

ويدلك على أخذه بأسباب التطوّر في نظره الى الكلام المولّد أن المعجم الوسيط الذي صدر بإشرافه سنة ١٩٦٠ قد شمل من هذا الكلام أكثر مما شمله أي معجم آخر . فلا عجب أن يقول أمين سرّ المجمع في تصديره للوسيط مشيراً الى منهج المجمع فيه : « وتوسع في المصطلحات العلمية الشائعة ، ودعا الى الأخذ بما استقرّ من ألفاظ الحيـــاة العامة ، وخطا في سبيل التجديد اللغوي خطوات فسيحة ففتح باب الوضع للمحدثين ، شأنهم في ذلك شأن القدامى سواء بسواء . وعمّم القياس فيما لم يُقَس من قبل ، وأقر كثيراً من الألفاظ المولدة والمعربة والحديثة وشدّد في هجر الحوشي والغريب » .

ولقد جهدت أن أتحرّى الشائع على أقلام كتابنا وشعرائنا من الألفاظ والأوضاع المولدة (غير الدخيلة وغير المصطلحات العلمية والفنية الخاصة) فوجدت منها مايقرب من ستمائة كلمة ومصطلح . ثم راجعت من معاجمنا الحديثة محيط المحيط وأقرب الموارد ، والبستان ومتن اللغة ، والمنجد ، والوسيط ، فإذا هي تشمل منها مايلي :

محيط المحيط ٢٧٥ ، أقرب الموارد ١٥٢ ، البستان ١٦٥ ، متن اللغة ٢٣٧ ، المنجد ٢٢٥ ، الوسيط ٥٥٠ . ولم يرد منها في القاموس المحيط للفيروزابادي أكثر من ٦٠ . أما معجم Cowan Weher فيشتمل على نحو ٥٢٠ .

وقد يكون هناك ألفاظ فاتتني في كل من هذه المعاجم ، على أني لا أعتقد أن مافاتني يغيّر كثيراً من هذه الأعداد . فإذا أضفنا إليها مئات الألفاظ الدخيلة ومئات الأوضاع العلمية الخاصة ، ثم اعتبرنا ما بطل استعماله من ألفاظ قديمة وما تحوّل من معنى إلى آخر ، اتضح لنا أن العربية ليست كما يتوهم بعضهم لغة جامدة ، بلى هي ككلّ اللغات الحيّة لغة متطورة ، وستبقى سائرة في طريق التطوّر إلى ماشاء الله . وإذا قيل إن أثر التطور فيها قليل بالنسبة إلى بعض اللغات الأوربية كالانكليزية مثلا فهي اليوم تختلف نطقاً وتهجئةً في كثير من ألفاظها عما كانت عليه قبل أربعة أو خمسة من القرون ، وقل كذلك في الفرنسية وسواها . أما العربية فهي هي منذ بزوغ الإسلام حتى الآن . قلنا إن ذلك لايعني جموداً أو توقّفاً عن السير في سبيل التطور ، بل يعني أن سبيلها لم يكن كسبيلهن ، بل كان نمواً مستمراً حافظت في أثنائه على شخصيتها ، ولكنها كانت في الوقت نفسه تهذّب ألفاظها فتحوّلها من الحوشيّ إلى المأنوس ، وتتنكب بها عن الإبهام إلى الوضوح ، وعن الإسراف الذهني إلى الاقتصاد . وعلى ذلك وضعت أسس بلاغتها وجمال مبانيها .

وهذا يحتّم على أرباب اللغة عند وضع الكلام توليداً وتعريباً مراعاة ما يتطلبه ناموس التطور المذكور ، فلننظر قليلاً إلى أي حدّ بلغت هذه المراعـاة في عصرنا الحاضر . ولنحصر نظرنا الآن في الكلام المولّد دون المعرّب .

عالج التوليدَ اللغوي منذ فجر القرن العشرين عدد من الأفراد والمجامع وسنكتفي للتمثيل بذكر أربعة من الأفراد وأربعة من المجامع . فمن الأفراد ابراهيم اليازجي ، وأحمد تيمور ، وأنستاس الكرملي ، وأحمد رضا . ومن المجامع مجمع نادي دار العلوم (أسس بمصر ١٩١٠) ، والمجمع العلمي العربي (بدمشق ١٩١٩) ، ومجمع اللغة العربية (بالقاهرة ١٩٣٢) ، والمجمع العلمي العراقي (١٩٤٧) .

ومما لا ريب فيه أنهم أفراداً ومجامع قد بذلوا جهوداً مشكورة في هذا السبيل ، وأدوا خدمات جلّى للغة العربية . على أنهم لم يأمنوا العثار أحياناً فعرّضوا كثيراً من آرائهم ومقترحاتهم لنقد حادّ من الرأي الأدبي العام وذلك لتكلفهم في بعض أوضاعهم ما لا ينسجم مع مقتضيات النموّ السويّ في الحياة اللغوية .

وقد ظهر لي من معارضة العمل الفردي بالعمل الجمعي أن نسبة ما مات من المولدات الحديثة إلى ماعاش أو مايمكن أن يعيش أقل في الأخير منه في الأول . وبكلمة أخرى أن ما وضعته أو أقرته المجامع كان على العموم أكثر ملاءمة للذوق الأدبي العام ، وأحرى بسد حاجات العصر . وإيضاحاً لذلك نوازن بينها ضمن منطقة واحدة فقط من مناطق التوليد اللغوي أعني منطقة الحضارة والحياة العامة التي تعنى بها أقلام الكتاب عادةً غير متعرضين للأوضاع العلمية والفنية الخاصة التي قلما يستعملها جمهرة المتأدبين . في هذه الموازنة نجد مايلي :

لإبراهيم اليازجي	نحو ٥٥	كلمة	لم	يعش	منهـا	غير	٢٠
ولأنستاس الكرملي	« ٦٠	«	«	«	«	«	١٨
ولأحمد تيمور	« ٣٠	«	«	«	«	«	١٢
ولأحمد رضا	« ١٢٣	«	«	«	«	«	١٤

أما المجامع فنسبة الوفيات فيها الى المواليد هي كما يلي :

نادي دار العلوم	وضع أو أقرّ ١٢٣	عاش منها نحو	٨٠
المجمع العلمي العربي	« « ١٤٧	عاش أو سيعيش منها نحو	١٢٠
المجمع العلمي العراقي	« « ٢٣٠	« «	١٩٠
مجمع اللغة العربية	« « ٢٤٦	« «	٢٠٠

ولا أدعي قطّ أن هذه الأرقام بالغة كال الصحة ، فهي تقريبية ، ولكنها مهما عدلت فلا إخالها تبتعد عن حقيقة مانروم إيضاحه هنا .

وليس بغريب أن يرتفع معدل الألفاظ الحية في مقررات المجامع ، لما يتهيأ فيها من مناقشة وغربلة وتصفية . ولولا ذلك لما كان لها هذا الحظ من التفوّق على أوضاع الأفراد . ولعلّ من المفيد أن أذكر بعض أمثلة مما رفضه الرأي الأدبي العام فمات معظمه ، وما بقي منه ففي حالة الاحتضار . وهذه الأمثلة مأخوذ بعضها مما وضعه الأفراد وبعضها مما أقرته المجامع أو مما اقترحته أولاً ثم عدلت عنه . وأكثرها من باب الحياة العامة .

الطّرر — لما يعرف عند الافرنج بالفيلاّ (Villa) .

الفرّوج — للسترة أو القباء المشقوق .

دسار — بعضهم وضعه للدبّوس وبعضهم للمسمار (١) .

---

(١) الدّسار في اللغة المسمار . وقد وضعت لما يسمى بالفرنسية Rivet ، وهي بالعامية البرْشام والبَجَّن . ودَسَرَ هو بالفرنسية River و Riveter . وهو عند العامة بَرْشَمَ وبَشْمَ وبَجْنَ . وأنواع الدُّسُر في المعجم العسكري كثيرة . (لجنة المجلة)

الأَجَمِيَّة - للحمّى المعروفة بالملاريا (Malaria) .
المثعب - لما يعرف في الأبنية بالسيفون (Siphon) .
الإذاعة - للراديو والمذياع .
السفير - للتلفون ، أو الهاتف .
الراجبيات - للبكتريا (Bacteria) أو الجراثيم المسبّبة للأمراض .
مِيدره - للذي يتعاطى المحاماة (Avocat) .
الجديلة - للزيّ العام أو الموضة (Mode) .
حذاقة - لشهادة المدرسة كالبكالوريا وسواها .
الرِّميز - للعالم المتفنن . فالرمازة عند الواضع تقابل Technicology .
النابل - لسائق المركبة أو السيارة .
الجهبذ - لأمين الصندوق في مؤسسة ما .
الخضخاض - للمازوت (النفط غير المصفّى) .
البزيع - لما يقابل لفظة جنتلمان Gentleman عند الانكليز .
الدَّلَق - للجبّة التي يلبسها القاضي أو المحامي .
الضاغط - لرئيس قلم التحصيل .
النُّثور - للمضرب الذي يستعمل في لعبة التنس (Racket) (١) .
الحسبان - للمدفع الرشاش .
الدِّحال - لخنادق الحرب .
الإرذبّة - للبالوعة التي تتصل بها أنابيب الماء من مرافق البيت .
المشجر - شمّاعة تكون في مدخل المنزل وفيها مرآة .
المِثبرة - الطراحة التي تفرش للجلوس .

(١) وقد أشار معجم وبستر الانكليزي الى أن (راكت) من العربية (راحة) لأنها تشبه الراحة التي قد يضرب بها . (لجنة المجلة)

العُقابية ـ الأداة التي يكشط بها الخشب وسواه .

الميدعة ـ ما تلبسه الفتاة فوق الثوب في أثناء عملها (المريول) .

وهناك كثير غيرها مما لم يلبث أن ولد حتى مات (١) .

ومما ينبغي ذكره ان المولّد في اللغة نوعان ـ نوع مقصود وهو الذي يتولّد من إعمال الفكر في اللفظة المناسبة للمعنى ، ويعنى به أفراد متخصصون أو مجامع لغوية كالذي سلف النظر ذكره فيه ، ونوع غير مقصود وانما تسوق اليه الحاجة سوقاً طبيعياً لا كلفة فيه ولا بحث ، فيجري على الألسنة والأقلام منبثقاً عن سليقة لغوية حساسة كقول المتنبي مثلاً :

تقصّده المقدار بين صحابه على ثقة من دهره وأمان

وقوله :

إذا أنفس الأنيس سباعٌ يتفارسن جهرة واغتيالا

فليس في المعاجم صيغة تقصّد ولا تفارس ، ولكن السليقة دفعت الشاعر إلى استعمالها فلم يتردد .

وكذلك فعل ابن المعتز فاستعمل (أثر) متعدياً إذ قال :

فأثر همّاً لا يبيد وحسرة لقلبيَ يجنيها بأيدي الخواطر

والبحتري في حمله اغترب على استغرب اذ قال :

وضحكن فاغترب الأقاحي عن ندٍ غض وسلسال الرضاب برود

وعمر بن أبي ربيعة (٢) في استعماله تبدّى بمعنى بدا فقال :

وتبدّت لي فأبدت واضحاً منها نحيضا

---

(١) راجع ما أثبته أحمد رضا في كتابه معجم متن اللغة من أوضاع المعاجم والأفراد . في مقدمة الجزء الأول .

(٢) وقبله قال الشاعر الحماسيّ :

وبدت لميس كأنها قمر السماء إذا تبدى (لجنة المجلة)

وابن نباتة [١] في استعمال التلاشي المولدة من لا شيء . فقال في خطبة له « بقايا جسوم متلاشية »

والطغرائي في استعمال التشويش إذ قال :

وإن قدرت على تشويش طُرته فشوّشيها ولا تبقي ولا تذري

والغزالي في استعمال الصفة حذور اذ قال في مقدمة المنقذ من الضلال : أخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور .

وابن خلدون في قوله : حتى يتأذن الله بهلاكهم ، بدلَ حتى يأذن .

ومثل ذلك غير نادر في أقوال المتقدمين من الشعراء والكتبة . ومنه في عصرنا الحاضر استعمال كلمات واصطلاحات جاءت عفواً فعبّرت عن الفكر تعبيراً حسناً . كقولهم :

ARCHIVE

فنّان ــ للماهر في الفنون ولم ترد أصلا بهذا المعنى .

حدا به إلى كذا ــ والاستعمال الأصولي حداه .

احتج على أمر ما ــ أو قدّم احتجاجا بمعنى أنكره ووضع فاعله موضع اللوم

اكتشف الأمر ــ أي كشفه وأظهره لأول مرة .

خابره ــ أي فاوضه أو بادله الخبر ومنه قلم المخابرات .

حكم على المجرم بالإعدام ــ أي بالموت . والإعدام أصلا فقدُ المال فحولوها إلى فقد الحياة .

النظام الوحدوي ــ نسبةً إلى الوحدة ، والأصل أن يقال وحدي .

ومثلها الكتلوي نسبةً إلى كتلة . وكانوا بالسليقة يقولون الثوروي نسبة إلى الثورة عدلوا عنها إلى الثوري .

---

(١) والتلاشي مستعملة في نهج البلاغة المنسوب لعلي بن أبي طالب قبل عصر ابن نباتة . (لجنة المجلة)

احتفل الشعب بالعيد ـ بمعنى احتفى به .

تكرير الشراب ـ أي تصفيته بتكرير نقله من حال إلى حال .

المظاهرات الشعبية ـ أي التظاهر بمناصرة قضية ما .

الدعايات ـ لما يقابل بروباغندا عند الافرنج .

وقس على ما ذكر كثيرا من الأوضاع الشائعة التي عاشت وستبقى حية لأن السليقة السوية هدت الناس اليها .

ولا شك ان المعجم الكبير الذي يسعى مجمع اللغة العربية بالقاهرة الى إخراجه سيعنى بالمولدات عناية خاصة . وسيختار منها ما هو أمس بحياة العصر وأدل على الأغراض المنشودة ، وأكثر نصاعة وخفة في الاستعمال . وعلى كل حال فالزمان هو المهذب الأكبر لكل لسان .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أنيس المقدسي

المُعجم العربي

حروف المعجم وترتيبها – بناة المعجم العربي – المعجم الحديث بين الصناعة والفن

١ ـ الإعجام في المعجمات

قال ابن فارس في «مقاييس اللغة»: العين والجيم والميم ثلاثة أصول: أحدها يدلّ على سكوت وصمت، والآخر على صلابة، والآخر على عضّ ومذاقة.

وذكر ابن جني في مقدمة «سر الصناعتين»: إن مادة ع ج م وقعت في لغة العرب للإبهام والإخفاء وضد البيان.

قال الجوهري: الأعجم: الذي لا يفصح ولا يبين كلامه وإن كان من العرب، والأعجم أيضاً الذي في لسانه عجمة وإن أفصح بالعجمية.

وأعجم الكتاب: خلاف أعربه، وفي الصحاح: قال رؤبة:

الشعر لا يسطيعه من يظلمه   يريد أن يعربه فيعجمه[1]

أي يريد أن يبينه فيجعله مُشْكِلاً لا بيان له، وقيل: يأتي به أعجمياً

(١) نسب الجوهري الشعر الى رؤبة، وتابعه صاحب اللسان. وقال الصاغاني: الشعر للحطيئة، وكذلك ورد في العمدة وفي ديوان الحطيئة، وأوله، كما في التاج:

الشعر صعب وطويل سلمه   إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

زلت به الى الحضيض قدمه

يعني يلحن فيه ، وقال ابن فارس : ومعناه : يريد أن يُبين عنه فلا يقدر على ذلك ، فيأتي به غيرَ فصيح دالٍّ على المعنى .

والأعجم أيضاً : المستعجم الأخرس ، والمرأة : عجماء ، والعجماء : كل بهيمة ، وفي الحديث « جُرح العَجماء جُبار » أي لا دية فيه ولا قَوَد ، وفي الحديث أيضاً : « بعدد كل فصيح وأعجم » قيل : أراد : بعدد كل آدمي وبهيمة .

واستَعْجَم الرجل : سكت ، واستعجمت عليه قراءته : انقطعت ، فلم يقدر على القراءة من نُعاس ونحوه ، ومنه حديث عبد الله : « إذا كان أحدكم يُصلّي فاستعجمت عليه قراءته فليَنَم » .

وكذلك استعجمت الدار عن جواب سائلها : سكتت ، قال امرؤ القيس :

صَمّ صداها وعفا رسمُها واستعجمت عن منطق السائل

قال الجوهري : والعَجْم : النَقط بالسواد . مثل التاء عليها نقطتان . يقال : أعجمت الحرف : نقطته ، والتعجيم مثله . وقال الأزهري : سمعت أبا الهيثم يقول : مُعْجَم الخط : هو الذي أعجمه كاتبه بالنقط ، تقول : أعجمت الكتاب أعجمه إعجاماً ، ولا يقال : عجمته ، إنما يقال عجمت العود : إذا عضضته لتعرف صلابته من رخاوته .

وأعجم الكتاب وعجّمه : نقطه . قال ابن جني في « سر صناعة الإعراب » : أعجمتُ الكتابَ : أزلتُ استعجامه ، وهو عنده على السلب لأن افْعَلتُ ، وإن كان أصلها الإثبات ، فقد تجيء للسلب ، كقولهم : أشكيتُ زيداً : أي زُلت له عما يشكوه ، ولقوله تعالى : « إن الساعة آتيةٌ أكاد أخفيها (١) » تأويله ، والله أعلم ، عند أهل النظر : أكاد أظهرها . وتلخيص هذه اللفظة : أكاد أزيل عنها خفاءها ، أي سترها .

(١) سورة طه : ١٥ .

وقالوا : عجَمْت الكتاب ، فجاءت فَعَلْت للسَّلب أيضا ، كما جاءت أفْعَلْت ، وله نظائر .

٢ ــ حروف المعجم في المعجمات

حروف المُعْجَم : هي الحروف المقطعة التي يختص أكثرها بالنقط من بين سائر حروف الأمم . قال ابن الأثير : حروف المعجم : حروف أ ب ت ث . . سميت بذلك من التَّعجيم ، وهو إزالة العُجْمَة بالنقط . وإذا قلت كتابٌ مُعَجَّمٌ . فإن تعجيمه تنقيطُه لكي تستبينَ عُجْمَتُه ويَضِحَ .

وقالوا : حروف المُعْجَم ، فأضافوا الحروفَ إلى المُعْجَم ، فإن سأل سائل فقال : ما معنى قولنا حروف المُعْجَم ، هل المعجم صفةٌ لحروف هذه ، أو غيرُ وَصْفٍ لها ؟

قال ابن سيده في « المحكم والمحيط الأعظم » ومثله في اللسان : إنَّ المُعْجَم ، من قولنا : حروف المُعجم ، لا يجوز أن يكون صفة لحروف هذه ، من وجهين : أحدهما : أن حروفاً هذه ، لو كانت غير مضافة إلى المعجم لكانت نكرة ، والمعجم ، كما ترى معرفة ، ومحالٌ وصف النكرة بالمعْرِفة ، والآخر : أن الحروف مضافة ، ومحالٌ إضافة الموصوف إلى صفته ، والعلة في امتناع ذلك : أن الصفة هي الموصوف ، على قول النحويين ، في المعنى ، وإضافة الشيء إلى نفسه غير جائزة ، وإذا كانت الصفة هي الموصوف عندهم في المعنى ، لم يَجُز إضافة الحروف إلى المعجم ، لأنه غير مستقيم إضافة الشيء إلى نفسه . قال : وإنما امتنع ذلك من قِبَل أن الغرض في الإضافة ، إنما هو التخصيص والتعريف ، والشيء لاتعرّفه نفسُه ، لأنه لو كان معرفة بنفسه ، لما احتيجَ إلى إضافته ، وإنما يُضاف إلى غيره ليعرّفه . .

وذهب محمد بن يزيدَ إلى أن المعجم مصدر ، بمنزلة الإعجام ، كما تقول : أدخلتُه مُدْخَلا ، وأخرَجْتُه مُخرَجاً ، أي إدخالاً وإخراجاً . وحكى الأخفش أن بعضهم قرأ « وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فما لهُ من مُكْرَمٍ (١) » . بفتح الراء ، أي : من إكرام ، فكأنهم قالوا : هذه حروف الإعجام .

ويرى ابن سيده ، وتابعه ابن بريّ في رأيه ، أن ماذهب اليه محمد ابن يزيد المبرّد ، أسَدُّ وأصوبُ من أن يُذهب إلى أن قولهم «حروف المُعْجَم » بمنزلة قولهم : صلاةُ الأولى ومَسْجِد الجامع ، لأن معنى ذلك : صلاة السّاعة الأولى أو الفريضة الأولى ، ومسجد اليوم الجامع ، فالأُولى غير الصلاة في المعنى ، والجامع غير المسجد في المعنى ، وإنما هما صفتان حُذِفَ مَوْصُوفاهما ، وأقيا مُقامَهما ، وليس كذلك حروف المُعْجَم ، لأنه ليس معناه حروف الكلام المُعْجَم ، ولا حُروف اللّفظ المعجم ، إنما المعنى أن الحروف هي المُعْجَمة ، فصار قولنا حروف المعجم ، من باب إضافة المفعول إلى المصدر ، كقولهم : هـذه مطيّة رُكوب ، أي من شأنها أن تُركب ، وهذا سَهْمُ نِضال ، أي من شأنه أن يُناضل به ، وكذلك حروف المعجم : أي من شأنها أن تُعجَم .

قال ابن فارس : والذي عندنا في ذلك أنه أريد بحروف المُعْجَم : حروف الخط المعجم ، وهو الخط العربي ، لأنّا لانعلم خطّاً من الخطوط يُعجم هذا الإعجام حتى يدلّ على المعاني الكثيرة ؛ فأما أنه إعجام الخطّ بالأشكال فهو عندنا يدخل في باب العضّ على الشّيء لأنّه فيه ، فسمي إعجاماً لأنه تأثير فيه يدلّ على المعنى .

قال ابن سيده : فإن قيل : إن جميع هذه الحروف ليس مُعجماً ، إنما المعجم بعضُها ، ألا ترى أن الألف والحاء والدال ونحوها ليس مُعجماً ،

(١) سورة الحج : ١٨ .

فكيف استجازوا تسمية جميع هذه الحروف حروف المعْجَم ؟ قيل له : إنما سميت بذلك : لأن الشكل الواحد إذا اختلفت أصواته ، فأُعجمتَ بعضَها ، وتركت بعضَها ، فقد عُلِم أن هذا المتروك بغير إعجام ، وهو غير ذلك الذي من عادته أن يُعجم ، فقد ارتفع أيضاً بما فعلوه الإشكال والاستبهام عنها جميعاً ، ولا فَرْق بين أن يزول الاستبهام عن الحرف بإعجام عليه ، أو يقوم مَقام الإعجام في الإيضاح والبيان ، ألا ترى أنك إذا أعجمت الجيم بواحدة من أسفل ، والخاء بواحدة من فوق ، وتركت الحاء غُفلا ، فقد عُلِم بإغفالها أنها ليست بواحدة من الحرفين الآخرين ، أعني الجيم والخاء ، وكذلك الدال والذال ، والصاد والضاد ، وسائر الحروف ، فلما استمرّ البيان في جميعها ، جاز تسميتها : « حروف المُعْجَم » .

٣ ـ حروف الهجاء في المعجمات

قال أبو زيد : الهجاء : القراءة ، قلت لرجل من بني قيس : أتقرأ من القرآن شيئاً ؟ فقال : والله ما أهجو منه حرفاً ، يريد ما أقرأ منه حرفاً ؛ قال : ورويت قصيدة ، فما أهجو اليوم منها بيتين ، أي ما أروي .

قال ابن فارس : الحاء والراء والفاء ثلاثة أصول : حدّ الشيء ، والعدول ، وتقدير الشيء ، فأما الحد فحرف كل شيء حده ، كالسيف وغيره ، ومنه الحرف وهو الوجه ... وهَجّاه إذا وقّع فيه بالشعر .. والهِجاء : المهاجَاة . ومما شذّ : هجاء الحروف ، يقال : تَهَجَّيْتُ .

قال الجوهري : حرف كل شيء طرفه وشفيره وحدُّه ، ومنه حرف الجبل ، وهو أعلاه المحدّد ، والحرف : واحد حروف التهجي . وهجوت الحروف هجواً وهجاء وهجيتها تهجية ، وتهجيت كله بمعنى .

قال ابن سيده : والهجاء تقطيع اللفظة بحروفها ، وهجوت الحروف وتهجيتها هجواً وهجاءً ، وهجيتها تهجية وتهجيت كله بمعنى .

وتقطيع الحروف على أبجد : حساب الجُمَّل ، بتشديد الميم . قال ابن دريد : لا أحسبه عربياً . وحساب الجُمَّل : حساب مبناه الحروف المقطعة على أبجد . كل حرف يدل على رقم من الأعداد ، آحادها ، وعشراتها ، ومئاتهـــا .

٤ ـ حروف الهجاء العربية وترتيبها

ظهر الإسلام ، في القرن السابع للميلاد ، وعرب الحجاز شعب أميّ لا يقرأ ولا يكتب ، إلا بضعة عشر رجلاً من قريش وبعض أهل المدينة ، عرفوا الكتابة بالحروف التي كانت شائعة في الأقطار العربية الأخرى كالشام والعراق واليمن(١) ، حتى أن بعض من كان يكتب ، كان يصور حروف الكلمات العربية بصور الحروف النبطية أو السريانية ، كما كان الذين تلقوا الكتابة عن يهود يكتبون بحروف عبرية(٢) .

وكان العرب في الأقطار التي كانت الكتابة شائعة فيها ، اقتبسوا من الأبجدية الفينيقية ترتيبها للحروف(٣) ، ذلك الترتيب الذي ورثته عنها جميع

---

(١) في كتب اللغة والأدب أخبار كثيرة عن أول عهد العرب بالكتابة وبدء انتشارها بينهم ، منها ما أورده السيوطي : « .. قال أبو بكر ابن أبي داود في « كتاب المصاحف» قال سألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا تعلمنا من أهل الحيرة ، وسألنا أهل الحيرة من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : من أهل الأنبار .. » انظر المزهر ج ٢ ص ١٧٥ طبعة ١٢٨٢ هـ .

(٢) انظر جرجي زيدان في كتابه « تاريخ الآداب العربيـــة » ج ١ ص ٢٧ و ٢٠٣ القاهرة ١٩١١ م .

(٣) الأبجدية نسبة إلى كلمة « أبجد » وهي أولى الكلمات الست : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، وهي الكلمات التي جمعت فيها حروف الهجاء الفينيقية الاثنان والعشرون بترتيبها المأخوذ من تسلسل الحروف في الكلمات نفسها .

الأبجديات السامية الأخرى [١] ، وكانوا يلحقون الأحرف العربية الزائدة بما يشبهها في رسمها من حروف تلك الأبجديات [٢] .

إن عدد حروف الهجاء في الأبجدية الفينيقية اثنان وعشرون حرفاً هي : أ ب ج د ، هـ و ز ، ح ط ي ، ك ل م ن ، س ع ف ص ، ق ر ش ت ، أما الأحرف العربية الزائدة فست [٣] هي : ث خ ذ ، ض ظ غ ، وقد ألف العرب منها كلمتين ، أطلقوا عليها اسم « الروادف » لأنهم أردفوها بالكلمات الست الأولى ، وأطلق على هذه الكلمات الثمانية اسم « الأبجدية العربية » [٤]

---

(١) انظر René Dussaud في كتابه « Les Arabes en Syrie avant l'Islam » ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد مصطفى زيادة ص ٥٥ القاهرة ١٩٥٩ م . وانظر E. H. Minns في بحثه « الحروف الهجائية ـ أصولها وأهميتها بالنسبة للحضارة » ترجمة عبد الحافظ معوض في مجموعة « تاريخ العالم » ج ٢ ص ٣٦٤ القاهرة .

(٢) انظر جداول مختلف الأبجديات في المصادر السابق ذكرها .

(٣) الإجماع منعقد بين علماء العربية على أن أصل حروفها ثمانية وعشرون يتألف منها الكلام كله . انظر أحمد بن فارس في كتابه « الصاحبي » ص ٧١ القاهرة ١٩١٠ م ـ على أن بعض العلماء جعل حروف العربية تسعة وعشرين معتبرين الهمزة حرفاً مستقلاً عن الألف ، ومن هؤلاء الخليل والقالي ، وقال سيبويه مثل قولهما وأضاف : وتكون ـ الحروف ـ خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هن فروع وأصلها من التسعة والعشرين الخ .. انظر « الكتاب » ج ٢ باب الإدغام ص ٤٠٤ ـ ونقل القلقشندي عن أبي العباس البوني صاحب كتاب « أسرار الحروف » حديثاً منسوباً إلى أبي ذر الغفاري جعل حروف العربية تسعة وعشرين عدّ معها لام ألف حرفاً واحداً ـ انظر صبح الأعشى ج ٣ ص ١١ ، وهـذا الحديث المتحول ورد بصيغة أخرى في مقدمة كشف الظنون ص ٢٥ .

(٤) وهم بعض علماء العربية فسجلوا اسطورة عن كلمات الأبجدية ، فقال الفيروزابادي مثلاً : أبجد إلى قرشت وكلمن رئيسهم ملوك مدين ، ووضعوا الكتابة العربية على عدد حروف أسمائهم هلكوا يوم الظُّلة ... ثم وجدوا بعدهم ثخذ ضظغ فسموها الروادف ـ انظر القاموس المحيط مادة ب ج د ـ وبلغ الوهم بعلماء آخرين فزعموا أن كلمة أبجد عربية النجار وأصلها « أبو جاد » انظر تاج العروس مادة ب ج د ـ ونقل ـــ

وإلى الحروف المقطعة لهذه الأبجدية يستند «حساب الجُمَّل» على خلاف في ترتيبها بين العرب من أهل المشرق واخوانهم المغاربة (١).

وكان من آثار انتشار الإسلام، أن كثر سواد الكاتبين بين المسلمين، وفي عهد عثمان بن عفان (رض) تم جمع القرآن في مصحف واحد، بعد أن كان محفوظاً في الصدور أو مسطوراً في العُسب واللخاف والأكتاف من قبل كتاب الوحي.

وكانت كتابة القرآن في أول عهدها بحروف خالية من أي إعجام أو شكل، فلما زاد اختلاط العرب بغيرهم من المسلمين فشا اللحن بينهم، فخيف على القرآن من قراءة غير العلماء له، فقام أبو الأسود الدؤلي (٢)، في زمن معاوية بن أبي سفيان، بضبط أواخر الكلم في المصاحف بالنقط، فجعل علامة الفتحة نقطة من فوق الحرف، وعلامة الكسرة نقطة من أسفله، وعلامة الضمة نقطة بين يديه، ونهج الناس هذا النهج، واستعملوا مداداً أحمر في النقط مخالفين بذلك لون الحروف.

http://Archivebeta.Sakhrit.com

--- القلقشندي عن الجوهري قصة آل مرامر بن مرة الذي سمّى كل واحد من أولاده بكلمة من «أبي جاد» وهم ثمانية ـ كما ذكر أن الأبجدية العربية كانت تعلم في زمن عمر بن الخطاب (رض) مستشهداً بقول الأعرابي:

أتيت مهاجرين فعلموني ... ثلاثة اسطر متتابعات

وخطوا لي أبا جاد وقالوا ... تعلم سعفصاً وقريشات

أنظر صبح الأعشى ج ٣ س١٣ و ٢٣ ـ وانظر صحاح الجوهري مادة م ر ر. ونقل السيوطي عن أبي سعيد السيرافي أن سيبويه فصل بين أبي جاد وهوز وحطي فجعلهن عربيات، وبين البواق فجعلهن أعجميات.. والمهم أن أبا سعيد المذكور قال: إن هذه الحروف عليها يقع تعليم الخط السرياني. انظر المزهر ج ٢ س ١٧٨.

(١) انظر مقدمة ابن خلدون «فصل علم اسرار الحروف» وانظر صبح الأعشى ج ٣ س ٢٢ ـ وانظر أيضاً Encyclopédie de l'Islam مادة Abdjad باريس ١٩١٣.

(٢) ابو الأسود واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي الكناني من فقهاء التابعين، وهو مؤسس علم النحو ولد قبل الهجرة بسنة واحدة (٦٢١ م) وولي إمارة البصرة في خلافة علي وتوفي فيها سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) انظر ترجمته في أعلام الزركلي ج ٣ س ٣٤٠.

وإذا كان من شأن عمل أبي الأسود أن يحول دون اللحن الناشىء عمّا نسميه اليوم الجهل بالإعراب ، فإنه ما كان ليحول دون تحريف الكلم ، نظراً لتشابه كثير من حروف العربية في رسمها ، فالجيم كانت تلتبس على القارىء بالحاء أو بالخاء ، والدال بالذال ، والراء بالزاي ، والسين بالشين ، والعين بالغين ، وكان ممن انتبه إلى هذا الأمر وخشي مغبته ، الحجاج بن يوسف الثقفي [١] ، أمير العراق في خلافة عبد الملك بن مروان [٢] ، قال ابن خلكان [٣] : وحكى ابو احمد العسكري [٤] في كتاب « التصحيف » أن الناس غبروا [٥] يقرأون في مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه نيفاً وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ففزع الحجاج بن يوسف إلى كتابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات ، فيقال إن نصر بن عاصم [٦] قام بذلك ، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً ، وخالف بين أماكنها ، فغبر [٥] الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً ، فكان

ARCHIVE

(١) الحجاج الثقفي أحد دهاة العرب ولد في الطائف سنة ٤٠ هـ (٦٦٠ م) ولاه عبد الملك بن مروان امارة العراق فثبت له الملك ، توفي في واسط سنة ٩٥ هـ (٧١٤ م) انظر ترجمته في أعلام الزركلي ج ٢ ص ١٧٥ .

(٢) عبد الملك بن مروان خامس خلفاء بني أمية وهو من أعاظمهم ودهاتهم وفي أيامه عربت الدواوين وأعجمت الحروف وصكت الدنانير . ولد سنة ٢٦ هـ (٦٤٦ م) وتوفي في دمشق سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) انظر ترجمته في أعلام الزركلي ج ٤ ص ٣١٢ .

(٣) أحمد بن محمد بن خلكان المؤرخ الحجة صاحب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، وهو أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطاً واحكاما . توفي في دمشق سنة ٦٨١هـ (١٢٨٢ م) انظر ترجمته في أعلام الزركلي ج ١ ص ٢١٢ .

(٤) الحسن بن عبد الله العسكري من أئمة اللغة ولد سنة ٢٩٣ هـ (٩٠٦ م) وتوفي سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٣ م) انظر ترجمته في أعلام الزركلي ج ٢ ص ٢١١ .

(٥) غبر كقعد مكث وبقي ومضى . وقد حقق هذه الكلمة فريد رفاعي في طبعته لوفيات الأعيان ج ٤ ص ٥٤ وفي طبعة سنة ١٢٩٩ هـ وما نقل عنها وردت كلمة عبر بعين مهملة تصحيفاً ــ انظر ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي ج ١ ص ١٥٥ .

(٦) نصر بن عاصم الليثي ترجم له ياقوت في ارشاد الأريب فقال : « كان فقيهاً عالماً بالعربية ، من فقهاء التابعين ، وكان يسند الى أبي الأسود الدؤلي في القرآن والنحو مات بالبصرة سنة تسع وثمانين وقيل سنة تسعين » انظر معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٢٤.

مع استعمال النقط أيضاً يقع التصحيف ، فأحدثوا الإعجام ، فكانوا يُتبعون النقط الإعجام ..»[(١)] .

أما ما صنعه نصر بن عاصم ، فهو أنه أخذ من كلمة « أبجد » حرفيها الأولين ، وألحق بثانيهما كلاً من التاء والثاء ، لتشابه رسمها مع رسم الباء ، معجماً الباء بنقطة من تحتها ، والتاء باثنتين من فوقها ، والثاء بثلاث نقط من فوقها أيضاً ، ثم عاد نصر إلى كلمة « أبجد » فأخذ الجيم ووضعها بعد الثاء ثم ألحق بها كلا من الحاء والخاء لتشابهها في الرسم ، معجماً الجيم بنقطة من تحتها ، والخاء بواحدة من فوقها ، تاركاً الحاء مهملة بين شبيهتيها بحكم التناظر ، ثم وضع بعدها دال « أبجد » مهملة وألحق بها الذال بعد أن أعجمها بنقطة من فوقها ، وهكذا أنهى ترتيب تسعة أحرف من حروف الهجاء .

ثم نظر نصر في كلمة « هوز » ثاني كلمات الأبجدية ، فوجد أن كلا من الهاء والواو حرف منفرد في رسمه ولا مثيل له بين حروف العربية فأخرهما ، واثبت الزاي في ترتيبه الجديد ، بعد أن أعجمها بواحدة من فوقها ، وجعل الراء ، وهي تماثل الزاي في الرسم ، مهملة وتسبق شبيهتها المعجمة في الترتيب ، وذلك اتباعاً لترتيب كل من الدال والذال ، وقبلها الحاء والخاء .

---

(١) في كلام ابن خلكان التباس بين النقط والإعجام ، فالنقط كان من عمل أبي الأسود الدؤلي ، والإعجام كان عمل نصر بن عاصم ، وأما ما صُنع بعد نصر فهو الشَّكْل ، وفي أصح الأقوال أن الخليل بن أحمد لم يستعمل النقط للدلالة على حركات الإعراب ، انما استعمل الشكل بصور تدل على الحركة الصوتية للحرف ، فاختصر من الألف الفتحة بشكلها القائم ، ومن الواو الضمة ، ومن الياء الكسرة ، أما العلامات الأخرى ، كالمدة والوصلة والشدة ، فقد وضعت في العصر العباسي . انظر وقارن : جرجي زيدان في « تاريخ التمدن الإسلامي » ج ٣ ص ٦٠ طبعة جديدة ـ والزيات في « تاريخ الأدب العربي » ص ١٥٢ القاهرة ١٩٣٠ .

وكأن ارداف كل من الحاء والدال والراء بشبيهه المعجم ، جعل نصراً يلزم نفسه بهذا النهج في ترتيب الحروف الباقية ، فيتبع كل مهمل من الحروف بشبيهه المعجم ، لأن ذلك أدعى إلى زيادة التناسق في الترتيب والجمال في تلاؤم الجوار ؛ وهكذا اختار نصر بما تبقى من حروف العربية ما له نظير في الرسم ، فكانت لديه كل من : السين والصاد والطاء والعين فألحقها بهذا الترتيب بحرف الزاي مردفاً كل حرف منها بما يشبهه بعدأن أعجمه تمييزاً له عن المهمل ، وقد أعجم الشين بثلاث نقط مجتمعات من فوقها ، خوفاً من التباس أحد أسنانها بحرف آخر إذا ما أعجمها بواحدة أو باثنتين ، وأعجم الضاد بواحدة من فوقها ، وكذلك أعجم الظاء والغين ، ثم ألحق بالغين الفاء والقاف معجماً القاف باثنتين من فوقها بعد أن رأى ضرورة اعجام الفاء بواحدة خوفاً من التباسها بالميم إذا ما توسطتا في كلمة من الكلمات .

وانتهى الترتيب بنصر بن عاصم إلى أحرف « كلمن » فوضعها متلاحقة كما هي ، بعد أن أعجم النون بواحدة من فوقها ، حتى لا تلتبس بمثل الباء أو التاء ، ثم ختم ترتيبه لحروف العربية بالباقي منها وهي : الهاء والواو والياء ، بعد أن أعجم الياء بنقطتين من تحتها ، خوفاً من التباسها بالباء أو بالتاء أو بالنون إذا ما توسطت الكلمة .

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

وإذا كان المعجم العربي مديناً لنصر بن عاصم بترتيب حروفه إلى يومنا هذا ، فلا بد من الإشارة إلى أن ترتيبه لم ينتشر إلا في أواخر القرن الثاني للهجرة (١) وكان لأبي عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢٠٦ هـ (٨٢١ م)

---

(١) إن تأخر انتشار ترتيب نصر كان ـ في رأينا ـ بسبب طبيعة المعاصرة عند الناس ، وهذا الخليل بن أحمد ـ على ما يبدو لنا ـ لم يلجأ الى اختراع ترتيب الحروف بحسب مخارجها ، وهو العبقري الفذ ، إلا ليبتعد عن الأخذ بترتيب عرف معاصروه مبتدعه نصراً ، وكأن هذه الطبيعة نفسها ، هي التي دفعت علماء الأندلس لمخالفة ترتيب نصر لحروف الهجاء ، كما دفعتهم لتغيير نقط الإعجام في بعض الحروف . إذ جعلوها تحت الحرف لا فوقه ،

الفضل في دعم انتشار ترتيب نصر للألف باء العربية (١) ، بتأليفه أول معجم بالترتيب نفسه (٢) ، كما لا بد لنا من الإشارة إلى أن ترتيب نصر لم ينتشر في الأندلس والمغرب العربي ، إذ وجد هنالك ترتيب لحروف الهجاء العربية يختلف بعض الاختلاف عن ترتيبها في المشرق ، كما هو الحال في اختلاف ترتيب حروف كلمات الأبجدية (٣) .

هذا وقد وضعنا جدولاً خاصاً بالحروف العربية ، بينا فيه موضع كل حرف في أي نهج عرف في مشرق البلاد العربية وفي مغربها ، وقيمة كل حرف في حساب الجُمَّل .

---

(١) « الألف باء » اصطلاح عمّ جميع اللغات التي تتصل حروف كتابتها بنسب إلى الأبجدية الفينيقية ، وذلك للدلالة على حروف الهجاء جميعها ، وهذا الاصطلاح مركب من اسمي الحرفين الأولين من حروف الأبجدية ، وكثير من كتاب العصر الحديث يكتبون هذا المصطلح موصولاً فيقولون « الألفباء » وكان ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٦ م) سابقاً إلى استعمال هذا المصطلح متصلاً تعريباً عن الإغريقية ، فذكر عند كلامه على أسرار الحروف قوله : « إذا أردت أن تعلم قوة كل حرف من حروف الألفبيطوس ، أعني أبجد إلى آخر العدد .. » انظر المقدمة ص ٥٨٧ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ .

(٢) يبدو أن ترتيب حروف الهجاء العربية ، من قبل أمثال الخليل وسيبويه وغيرهما ، ظل ينافس ترتيب نصر بن عاصم بعض المنافسة لمدة قرون ، بدليل أن الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٤ م) وهو الذي أخذ بترتيب عاصم مثنياً عليه ، قال في مقدمته لأساس البلاغة : « وقد رُتِّب الكتـــاب على أشهر ترتيب متداولاً ، وأسهله متناولا » .

(٣) انظر ص ١٩٤ والمصادر المذكورة في الهامش رقم ١ . هذا وإن القلقشندي عند كلامه على ترتيب الحروف يذكر أن ترتيبها على ضربين : مفرد ومزدوج ، وهو يقصد بالمفرد الترتيب الذي نسميه اليوم « ترتيب الألف باء » أما المزدوج فهو ما نسميه « الترتيب الأبجدي » انظر صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٢ .

حروف المعجم وترتيبها

العدد	الأبجدية	الأبجدية السامية بعد إلحاقه الزوائد العربية بأشباهها	أبجدية حروف الهجاء العربية			حروف المعجم كما رتبها نصر بن عاصم	ترتيب الحروف بحسب مخارجها			الحروف كما شاع ترتيبها في الأندلس
	عند الشعوب السامية		عند المشارقة	عند المغاربة	قيمة الحرف في حساب الجمل		عند الخليل	عند سيبويه	عند القالي	
١	ا	ا	ا	ا	١	أ	ع	ء/ا	هـ	ا
٢	ب	ب	ب	ب	٢	ب	ح	هـ	ح	ب
٣	ج	ج	ج	ج	٣	ت	هـ	ع	ع	ت
٤	د	د	د	د	٤	ث	خ	ح	خ	ث
٥	هـ	ذ	هـ	هـ	٥	ج	غ	غ	غ	ج
٦	و	هـ	و	و	٦	ح	ق	خ	ق	ح
٧	ز	و	ز	ز	٧	خ	ك	ق	ك	خ
٨	ح	ز	ح	ح	٨	د	ج	ك	ض	د
٩	ط	ح	ط	ط	٩	ذ	ش	ج	ج	ذ
١٠	ي	خ	ي	ي	١٠	ر	ض	ش	ش	ر
١١	ك	ط	ك	ك	٢٠	ز	ص	ي	ل	ز
١٢	ل	ظ	ل	ل	٣٠	س	س	ض	ر	ط
١٣	م	ي	م	م	٤٠	ش	ز	ل	ن	ظ
١٤	ن	ك	ن	ن	٥٠	ص	ط	ن	ط	ك
١٥	س	ل	س	ص	٦٠	ض	ت	ر	د	ل
١٦	ع	م	ع	ع	٧٠	ط	د	ط	ت	م
١٧	ف	ن	ف	ف	٨٠	ظ	ظ	د	ص	ن
١٨	ص	س	ص	ض	٩٠	ع	ذ	ت	ز	ص
١٩	ق	ع	ق	ق	١٠٠	غ	ث	ز	س	ض
٢٠	ر	غ	ر	ر	٢٠٠	ف	ر	س	ظ	ع
٢١	ش	ف	ش	س	٣٠٠	ق	ل	ص	ذ	غ
٢٢	ت	ص	ت	ت	٤٠٠	ك	ن	ظ	ث	ف
٢٣	٠	ض	ث	ث	٥٠٠	ل	ف	ذ	ف	ق
٢٤	٠	ق	خ	خ	٦٠٠	م	ب	ث	ب	س
٢٥	٠	ر	ذ	ذ	٧٠٠	ن	م	ف	م	ش
٢٦	٠	ش	ض	ظ	٨٠٠	هـ	ي/ء	ب	و	هـ
٢٧	٠	ت	ظ	غ	٩٠٠	و	و	م	ا	و
٢٨	٠	ث	غ	ش	١٠٠٠	ي	ا	و	ء/ي	ي

٥ ـ المعجم فى الاصطلاح

كان علماء العربية الأوائل ، يصفون هذا الخط العربي الذي نكتب به ، بأنه « معجم » لأنه لا يبين إلا بالإعجام تنقيطاً وشكلا ، وكانوا إذا ما أضافوا كلمة « معجم » إلى الحروف ، اعتبروا الكلمة صفة لموصوف محذوف هو « الخط » وأرادوا من التركيب الإضافي لهاتين الكلمتين : حروف العربية المرتبة ترتيبها المشهور ، ثم أخذ بعض العلماء من المؤلفين ، يرون في ترتيب الحروف نهجاً يمكن التزامه في عرضهم للمعلومات التي يريدون تدوينها ، فيسهلون بذلك الرجوع إليها ، إذ يكتفي المُراجع بالنظر في المعلومات المدونة في الفصل المعقود للحرف الذي تبتدىء به الكلمة الدالة على الموضوع ، ويكون هذا في الموضوعات التي يمكن ترتيبها تبعاً للحرف الذي تبتدىء به أول كلمة في الموضوع أو أي كلمة أخرى تدل عليه ، كما في ترتيب الأحاديث النبوية ، أو تراجم الرجال من صحابة وعلماء وشيوخ ، أو كما في تقويم البلدان والأمصار .

وكان أن أطلق أحد العلماء على كتاب ألفه بترتيب المعجم ، أو كان أن أطلق بعض الناس على كتاب مؤلف بحسب النهج المذكور ، اسم « المعجم » اصطلاحاً ، ثم شاع هذا الاسم وانتشر ، وأصبح كل كتاب رتبت المعلومات فيه بترتيب حروف الهجاء يسمى عند الناس « معجماً » . وإذا كان من غير الممكن معرفة أول من أطلق كلمة « معجم » على الاصطلاح المذكور ، ولا أول كتاب سمي « معجما » فيكاد يكون من المتفق عليه ، أن رجال الحديث هم الأوائل الذين ألفوا الكتب بترتيب حروف الهجاء ، وكان الإمام البخاري

صاحب الصحيح ، وهو من رجال القرن الثالث للهجرة [١] ، من رواد التأليف المعجمي ، وقد ألف كتباً كثيرة منها : كتاب التاريخ الكبير الذي قال في مقدمته [٢] : « قال أبو عبد الله محمد بن اسماعيل : هذه الأسامي وضعت على : أ ، ب ، ت ، ث ، وإنما بدىء بمحمد من بين حروف أ ، ب ، ت ، ث لحال النبي ﷺ .. فإذا فُرغ من المحمدين ابتدىء في الألف ثم الباء ثم التاء ثم الثاء ثم ينتهي بها إلى آخر حروف أ ، ب ، ت ، ث ، وهي : ي » .

وقيل إن الإمام البخاري كان نفسه أول من أطلق لفظة « معجم » وصفاً لأحد كتبه المرتبة على حروف المعجم [٣] .

ومن أوائل المؤلفات ، التي وصل خبرها الينا ، وهي تحمل اسم « معجم » كتاب أبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي [٤] ، واسمه « معجم الحديث » وقيل إن البغوي نفسه ألف كتاباً آخر باسم « معجم الصحابة » كما أن أبا بكر محمد بن الحسن النقاش [٥] ، ألف معجماً كبيراً في أسماء القراء ، واختصره في معجم صغير ، وألف ابراهيم بن أحمد البلخي المعروف بالمستملي [٦] معجماً للشيوخ ، ووضع أبو عبد الله محمد بن عمران المرزباني [٧] ، معجماً

(١) الإمام محمد بن اسماعيل البخاري ، ولد سنة ١٩٤ للهجرة (٨١٠ م) وتوفي سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) انظر أعلام الزركلي : ج ٦ ص ٢٥٨ .

(٢) انظر التاريخ الكبير ص ١١ طبعة حيدر آباد الدكن سنة ١٣٦١ هـ .

(٣) انظر احمد عبد الغفور عطار في « الصحاح ومدارس المعجمات العربية » ص ٥٣ القاهرة ١٩٥٦ م .

(٤) توفي في بغداد سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) انظر أعلام الزركلي ج ٤ ص ٢٦٣ .

(٥) توفي سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) انظر الأعلام ٣١٠/٦ .

(٦) توفي سنة ٣٧٦ هـ (٩٨٦ م) انظر الأعلام ٢٣/١ .

(٧) توفي سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) انظر الأعلام ٢١٠/٧ .

للشعراء ، ذكر فيه اسم نحو من خمسة آلاف شاعر رتب أسماءهم بترتيب حروف المعجم .

وشاعت بعد ذلك تسمية الكتب المرتبة على حروف الهجاء بالمعجمات ، حتى أن واحداً من علماء القرن الخامس للهجرة ، وهو علي بن الحسن المشهور بابن عساكر[١] ، اطلق على عديد من مؤلفاته اسم « معجم » فمن معجم للصحابة ومعجم للشيوخ ، إلى معجم للنسوان ورابع لأسماء القرى والأمصار .

وتتالى بعد القرن الرابع للهجرة تأليف المعاجم في أغراض علمية شتى ، حتى يكاد يكون حصر ما ألف منها من الصعوبة بمكان كبير ، على أن علماء العربية الذين ابتدعوا فكرة « المعجم » ودونوا مفردات اللغة في المعجمات العديدة التي ألفوها ، لم يطلق أي واحد منهم على مؤلفه اسم « معجم » بل اختار كل واحد اسماً خاصاً بمعجمه فمثلاً :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أطلق الخليل على معجمه اسم « العين » ،

وأطلق الشيباني على معجمه اسم « الحروف » ،

وأطلق ابن دريد على معجمه اسم « الجمهرة » ،

وأطلق القالي على معجمه اسم « البارع » ،

وأطلق الأزهري على معجمه اسم « تهذيب اللغة » ،

وأطلق الجوهري على معجمه اسم « الصحاح » ،

وأطلق الأزدي على معجمه اسم « المنجد » ،

وأطلق ابن منظور على معجمه اسم « لسان العرب » ،

وأطلق الفيروزابادي على معجمه اسم « القاموس المحيط » .

---

(١) توفي سنة ٥٧١ هـ (١١٧٦ م) انظر الأعلام ٥/٨٢ .

٦ ـ بناة المعجم العربي

إذا كانت كلمة « معجم » تطلق اليوم على: كل ديوان يجمع مفردات اللغة ومرتب على حروف الهجاء، فإننا نهدف من قولنا « المعجم العربي »: مجموع الثروة العظيمة التي خلفها علماء العربية، على مدى العصور، فحفظوا لنا بها لغة العرب، لغة القرآن الكريم، اللغة التي نفخر بها ونعتز.

لقد ابتدأت الأبحاث اللغوية، في القرن الأول للهجرة، مستهدفة تفسير غريب القرآن ومشكله، وغريب الحديث، وغريب ما ورد في الشعر العربي ونوادره، وكان أن فكر رجل من نوابغ العرب، هو الخليل بن احمد الفراهيدي[1]، في أسلوب يؤدي إلى جمع العربية وتدوينها بين دفتي كتاب، ووضع نهجاً يقوم على قواعد رياضية بحتة، إذا ما طبقت، أمكن إيجاد معجم يحفل بألفاظ اللغة العربية بأسرها.

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقام كثير من العلماء منذ القرن الأول للهجرة وحتى القرن الثاني عشر، يبحثون ويؤلفون ويجمعون، فجمع بعضهم غريب اللغة ونوادرها، وجمع آخرون ما يذكر ويؤنث أو ما يفرد ويثنى ويجمع من كلماتها، وقام البعض بجمع كل ما يتصل بصفات الإنسان، أو يتصل بالحيوان أو بالنبات، أو بالمطر والأنواء وما شابه ذلك، كما قام آخرون بالتأليف في الطبقات أو بالمواضع والبلدان، وهنالك من بحث الاشتقاق في اللغة، أو جمع المترادف أو المتشابه، أو عنى بما يُلحن فيه أو بالمعرب والدخيل، ومن العلماء من قام بجمع مفردات اللغة، وبيان معانيها، مرتباً إياها بترتيب حروف الهجاء، أو

---

(١) انظر « قصة عبقري » ليوسف العش في سلسلة إقرأ ١٩٤٦ م ـ وله أيضاً « أولية تدوين المعاجم » في مجلة المجمع العلمي العربي المجلد ١٦ دمشق ١٩٤١ .

بترتيب مخارجها ، كما فعل الخليل بن أحمد،وهؤلاء هم رواد المعجم العربي الأوائل ، وتكاد الإحاطة بكل ما ألفه علماء العربية في اللغة ، تكون مستحيلة ، لكثرة تلك المؤلفات ، واضياع قسم كبير منها ، ولأن بعضها لم يصل إلينا كاملا ، أو لم يصل إلينا منه غير خبره أو اسمه ، وغير ما استفاده منه من اطلع عليه من المؤلفين السابقين ، دون أن يشير فيما ألفه إلى المصدر الذي استقى منه العلم الذي تركه لنا .

وإذا كان مؤلفو المعجمات الأول ، هم بلا منازع روّاد المعجم العربي ، الذين وضعوا أسسه والقواعد التي يقوم عليها ، فإن بناة المعجم العربي ، هم في الحقيقة ، جميع اولئك العلماء الذين كتبوا وألفوا في أي ناحية من نواحي اللغة ، أو ساعدوا غيرهم في ذلك بالنقل أو الرواية أو بالتحشية أو بالتعليق ، أو بشرح بعض المسائل اللغوية أو بالاستدراك على من سبقهم من المؤلفين .

إن ثروتنا من كتب اللغة ، على اختلاف موضوعاتهـا والهدف منها وأساليبها ، إنما تؤلف وحدة ، كل كتاب منها بحسب قيمته ، يعتبر لبنة أو حجراً أو زاوية أو عموداً أو دعامة في بناء المعجم العربي ، وبناة هذا المعجم ، هم جميع الذي اشتركوا في أقامة هذا الصرح العربي الضخم ، وسنذكر أشهر من عرفنا منهم في جداول تتضمن موجزاً في التعريف بكل واحد منهم ، وأهم معطياته للمعجم العربي .

كما أننا سنضع لأمهات المعاجم العربية وأشهرها ، جدولاً مستقلا ، يتضمن تعريفاً مقتضباً لكل منها ، مع بيان النهج الذي اختاره المؤلف أو امتاز به .

أشهر المشتركين في بناء المعجم العربي

١

العصر	الشهرة	الاسم الكامل	الولادة	الوفاة	معطياته للمعجم وأهم مؤلفاته اللغوية	مرجع مختصر لترجمته
القرن الأول	الليثي	نصر بن عاصم	::	٨٩ هـ / ٧٠٧ م	ترتيب حروف الهجاء	الأدباء ٢٢٤/١٩
القرن الثاني الهجري	أبو مالك الأعرابي	عمرو بن كركرة النميري	::	::	خلق الإنسان . الخيل . النوادر .	البغية ٢٦٧/٢
	أبو خيرة	الأعرابي العدوي	::	::	الحشرات .	الفهرست ٤٥/١
	أبو عمرو	زبان بن العلاء عمار التميمي	٧٠ هـ / ٦٩٠ م	١٥٤ هـ / ٧٧١ م	النوادر	الأعلام ٧٢/٣
	الخليل	بن أحمد الفراهيدي أبو عبد الرحمن	١٠٠ هـ / ٧١٨ م	١٧٠ هـ / ٧٨٦ م	العين معاني الحروف . النقط والشكل .	الأعلام ٣٦٣/٢
	الليث	بن المظفر الخراساني أبو بشام	::	١٨٠ هـ / ٧٩٦ م	اتمام العين	الأدباء ٤٣/١٧
	يونس النحوي	ابن حبيب الضبي	٩٤ هـ / ٧١٣ م	١٨٢ هـ / ٧٩٨ م	معاني القرآن . اللغات .	الأعلام ٢٤٤/٩
	الكسائي	علي بن حمزة الأسدي أبو الحسن	١١٩ هـ / ٧٣٧ م	١٨٩ هـ / ٨٠٥ م	معاني القرآن . المصادر . الحروف . ما تلحن فيه العامة	الأعلام ٩٣/٥
القرن الثالث الهجري	النضر	بن شميل التميمي أبو الحسن	١٢٢ هـ / ٧٤٠ م	٢٠٣ هـ / ٨١٩ م	الصفات . السلاح . غريب الحديث .	الأعلام ٣٥٧/٨
	أبو عمرو	الشيباني اسحاق بن مرار	٩٤ هـ / ٧١٣ م	٢٠٦ هـ / ٨٢١ م	الحروف غريب الحديث . النخلة . الإبل . الخيل . النوادر . خلق الإنسان .	الأعلام ٢٨٩/١
	الفراء	يحيى بن زياد الديلمي أبو زكريا	١٤٤ هـ / ٧٦١ م	٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م	معاني القرآن . اللغات . ما تلحن فيه العامة . مشكل اللغة .	الأعلام ١٧٨/٩
	اللحياني	علي بن حازم أبو الحسن	::	٢٠٧ هـ / ٨٢٢ م	النوادر	معجم المؤلفين ٥٦/٧
	أبو عبيدة	معمر بن المثنى التيمي	١١٠ هـ / ٧٢٨ م	٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م	ما تلحن فيه العامة . الإنسان . الزرع . الشوارد . معاني القرآن . غريب الحديث .	الأعلام ١٩١/٨
	أبو زيد	الأنصاري سعيد بن أوس	١١٩ هـ / ٧٣٧ م	٢١٥ هـ / ٨٣٠ م	النوادر . المطر . المياه . خلق الإنسان . الشجر . غريب الأسماء .	الأعلام ١٤٤/٣
	الأخفش الأوسط	سعيد بن مسعدة المجاشعي أبو الحسن	::	٢١٥ هـ / ٨٣٠ م	تفسير معاني القرآن . الاشتقاق .	الأعلام ١٥٤/٣
	الأصمعي	عبد الملك بن قريب أبو سعيد	١٢٢ هـ / ٧٤٠ م	٢١٦ هـ / ٨٣١ م	غريب الحديث . الإبل . الأضداد . النخل . الإنسان . النوادر . النبات . الخيل .	الأعلام ٣٠٨/٤
	ابن سلام	القاسم الهروي أبو عبيد	١٥٧ هـ / ٧٧٤ م	٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م	الغريب المصنف غريب القرآن . غريب الحديث . الأنساب .	الأعلام ١٠/٦
	أبو مسحل	الأعرابي عبد الوهاب بن حريش	::	٢٢٨ هـ / ٨٤٣ م	النوادر . الغريب .	معجم المؤلفين ٢١٨/٦
	ابن الأعرابي	محمد بن زياد أبو عبد الله	١٥٠ هـ / ٧٦٧ م	٢٣١ هـ / ٨٤٥ م	أسماء الخيل . البئر . النوادر . الصرع .	الأعلام ٣٦٥/٦
	الباهلي	أحمد بن حاتم أبو نصر	::	٢٣١ هـ / ٨٤٦ م	اشتقاق الأسماء . ما تلحن فيه العامة . الزرع والنخل . الشجر والنبات . الجراد .	الأعلام ١٠٤/١
	ابن السكيت	يعقوب بن اسحق أبو يوسف	١٨٦ هـ / ٨٠٢ م	٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م	الألفاظ اصلاح المنطق . الأضداد . الحشرات . غريب القرآن . النبات والشجر .	الأعلام ٢٥٥/٩
	ابن حبيب	محمد البغدادي أبو جعفر	::	٢٤٥ هـ / ٨٦٠ م	المحبر . خلق الإنسان . المنمق . الأمثال على أفعل .	الأعلام ٣٠٧/٦
	السجستاني	سهل بن محمد الجشمي أبو حاتم	::	٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م	ما تلحن فيه العامة . الشجر والنبات . الأضداد . الطير . الوحوش . الحشرات . العشب والبقل .	الأعلام ٢١٠/٣
	أبو اسحاق	ابراهيم بن سفيان الزيادي	::	٢٤٩ هـ / ٨٦٣ م	أسماء السحاب والرياح والأمطار .	الأعلام ٣٤/١
	المازني	بكر بن محمد أبو عثمان	::	٢٤٩ هـ / ٨٦٣ م	ما تلحن فيه العامة .	الأعلام ٤٤/٢
	الهروي	شمر بن حمدويه أبو عمرو	::	٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م	الجيم غريب الحديث . السلاح . الجبال والأودية .	الأعلام ٢٥٣/٣
	ابن قتيبة	عبد الله بن مسلم الدينوري	٢١٣ هـ / ٨٢٨ م	٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م	غريب الحديث . الاشتقاق . مشكل القرآن . النبات . غريب القرآن . أدب الكاتب .	الأعلام ٢٨٠/٤
	الدينوري	أحمد بن داود أبو حنيفة	::	٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م	النبات . ما تلحن فيه العامة . اصلاح المنطق .	الأعلام ١١٩/١
	المبرد	محمد بن يزيد الأزدي أبو العباس	٢١٠ هـ / ٨٢١ م	٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م	الكامل . المذكر والمؤنث . اعراب القرآن . المقتضب .	الأعلام ١٥/٨
	ثعلب	أحمد بن يحيى الشيباني أبو العباس	٢٠٠ هـ / ٨١٦ م	٢٩١ هـ / ٩٠٤ م	الفصيح . المجالس . معاني القرآن . معاني الشعر . ما تلحن فيه العامة .	الأعلام ٢٥٢/١

أشهر المشتركين في بناء المعجم العربي ٢

العصر	الشهرة	الاسم الكامل	الولادة	الوفاة	مطبوعاته للمعجم وأهم مؤلفاته اللغوية	مرجع مختصر للترجمة
القرن الرابع الهجري	كراع النمل	علي بن الحسن الهنائي أبو الحسن	..	بعد ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م	المنجد . المنضد . المجرد . غريب اللغة .	الأعلام ٥/٧٩
	الأخفش الأصغر	علي بن سليمان النحوي أبو الحسن	..	٣١٥ هـ / ٩٢٧ م	المهذب . الأنواء . التثنية والجمع .	الأعلام ٥/١٠٣
	الهمذاني	عبد الرحمن بن عيسى	..	٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م	الألفاظ الكتابية .	معجم المؤلفين ٥/١٦٣
	ابن دريد	محمد بن الحسن الأزدي أبو بكر	٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م	٣٢١ هـ / ٩٣٣ م	الجمهرة الاشتقاق . الملاحن . السرج واللجام . المطر والسحاب . اللغات .	الأعلام ٦/٣١٠
	نفطويه	إبراهيم بن محمد الأزدي أبو عبد الله	٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م	٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م	غريب القرآن	الأعلام ١/٥٧
	الأنباري	محمد بن القاسم أبو بكر	٢٧١ هـ / ٨٨٤ م	٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م	الزاهر . الأضداد . غريب الحديث . شرح المعلقات .	الأعلام ٧/٢٢٦
	قدامة	بن جعفر البغدادي أبو الفرج	..	٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م	جواهر الألفاظ .	الأعلام ٦/٣١
	الزجاجي	عبد الرحمن بن إسحق أبو القاسم	..	٣٣٧ هـ / ٩٤٩ م	الإبدال والمعاقبة والنظائر . الأمالي . معاني الحروف .	الأعلام ٤/٦٩
	غلام ثعلب	محمد بن عبد الواحد أبو عمر	٢٦١ هـ / ٨٧٥ م	٣٤٥ هـ / ٩٥٧ م	اليواقيت في غريب القرآن . غرائب الحديث . المداخل . المشترك .	الأعلام ٧/١٣٢
	البشتي	أحمد بن محمد الخارزنجي	..	٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م	تكملة العين .	الأعلام ١/٢٠٠
	الفارابي	إسحق بن إبراهيم أبو إبراهيم	..	٣٥٠ هـ / ٩٦١ م	ديوان الأدب .	الأعلام ١/٢٨٤
	أبو الطيب	اللغوي عبد الواحد بن علي الحلبي	..	٣٥١ هـ / ٩٦٢ م	الإتباع . المثنى . الإبدال . الأضداد . الفروق .	الأعلام ٤/٣٢٥
	الأصبهاني	علي بن الحسين الأموي أبو الفرج	٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م	٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م	الأغاني .	الأعلام ٥/٨٨
	القالي	إسماعيل بن القاسم البغدادي أبو علي	٢٨٨ هـ / ٩٠١ م	٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م	البارع . الأمالي . الممدود والمقصور . الإبل .	الأعلام ١/٣١٩
	الأزهري	محمد بن أحمد الهروي أبو منصور	٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م	٣٧٠ هـ / ٩٨١ م	تهذيب اللغة . غريب الألفاظ .	الأعلام ٦/٢٠٢
	علي أبو القاسم	ابن حمزة البصري اللغوي	..	٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م	التنبيهات على أغاليط الرواة . رد على إصلاح المنطق . الفصيح .	الأعلام ٥/٩٤
	الزبيدي	محمد بن الحسن الأندلسي أبو بكر	٣١٦ هـ / ٩٢٨ م	٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م	مختصر العين . لحن العامة .	الأعلام ٦/٣١٢
	العسكري	الحسن بن عبد الله أبو أحمد	٢٩٣ هـ / ٩٠٦ م	٣٨٢ هـ / ٩٩٣ م	تصحيفات المحدثين . المختلف والمؤتلف .	الأعلام ٢/٢١١
	الرماني	علي بن عيسى أبو الحسن	٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م	٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م	الألفاظ المترادفة .	الأعلام ٥/١٣٤
	الصاحب	بن عباد إسماعيل أبو القاسم	٣٢٦ هـ / ٩٣٨ م	٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م	المحيط . جوهرة الجمهرة .	الأعلام ١/٣١٢
	ابن جني	عثمان الموصلي أبو الفتح	..	٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م	الخصائص . سر الصناعة .	الأعلام ٤/٣٦٤
	الجوهري	إسماعيل بن حماد أبو نصر	..	٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م	الصحاح .	الأعلام ١/٣٠٩
	ابن فارس	أحمد بن زكريا القزويني أبو الحسين	٣٢٩ هـ / ٩٤١ م	٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م	مقاييس اللغة . مجمل . الصاحبي . التصحيح . فقه اللغة .	الأعلام ١/١٨٤
	العسكري	الحسن بن عبد الله أبو هلال	..	بعد ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م	الفروق . أسماء الأشياء . ما تلحن فيه الخاصة .	الأعلام ٢/٢١١
	البرمكي	محمد بن تميم أبو المعالي	..	بعد ٣٩٧ هـ / ١٠٠٧ م	المنتهى في اللغة . ترتيب الصحاح بحسب أوائل الكلمة .	معجم المؤلفين ٩/١٣٨
القرن الخامس الهجري	الهروي	أحمد بن محمد أبو عبيد	..	٤٠١ هـ / ١٠١١ م	غريب القرآن . غريب الحديث .	الأعلام ١/٢٠٣
	الإسكافي	محمد بن عبد الله الخطيب	..	٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م	غلط العين . مبادئ اللغة .	الأعلام ٧/١٠٢
	الثعالبي	عبد الملك بن محمد أبو منصور	٣٥٠ هـ / ٩٦١ م	٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م	فقه اللغة . المتشابه . المضاف والمنسوب .	الأعلام ٤/٣١١
	ابن التياني	تمام بن غالب الأندلسي	..	٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م	الموعب .	الأعلام ٢/٧٠
	ابن سيده	علي بن إسماعيل أبو الحسن	٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م	٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م	المحكم والمحيط الأعظم . المخصص . شرح مشكل شعر المتنبي .	الأعلام ٥/٦٩

أشهر المشتركين في بناء المعجم العربي ٣

العصر	الشهرة	الاسم الكامل	الولادة	الوفاة	مصنفاته للمعجم وأهم مؤلفاته اللغوية	مرجع معجمي لترجمته
القرن السادس الهجري	الراغب الأصفهاني	حسين بن محمد أبو القاسم	..	٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م	المفردات في غريب القرآن. تحقيق البيان.	الأعلام ٢/٢٧٩
	التبريزي	يحيى بن علي الشيباني أبو زكريا	٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م	٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م	تهذيب إصلاح المنطق، وتهذيب الألفاظ لابن السكيت.	البغية ٢/٤١٣
	الحميري	نشوان بن سعيد	..	٥٧٣ هـ / ١١٧٨ م	شمس العلوم.	الأعلام ٨/٣٣٦
	ابن القطاع	علي بن جعفر السعدي أبو القاسم	٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م	٥١٥ هـ / ١١٢٢ م	التنبيه والإيضاح عما وقع في كتاب الصحاح. تهذيب الأبنية والأفعال.	معجم المؤلفين ٧/٥٢
	الحريري	القاسم بن علي البصري أبو محمد	٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م	٥١٦ هـ / ١١٢٢ م	مقامات أبي زيد. درة الغواص في أوهام الخواص.	الأعلام ٦/١٢
	البطليوسي	عبدالله بن محمد أبو محمد	٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م	٥٢١ هـ / ١١٢٧ م	المثلث. الاقتضاب.	الأعلام ٤/٢٦٨
	ابن الأشتركوني	محمد بن يوسف التميمي الأندلسي	..	٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م	المسلسل في غريب اللغة.	الأعلام ٨/٣٢
	الزمخشري	محمود بن عمر أبو القاسم	٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م	٥٣٨ هـ / ١١٤٤ م	أساس البلاغة. مقدمة الأدب. الفائق في غريب الحديث.	الأعلام ٨/٥٥
	الجواليقي	موهوب بن أحمد أبو منصور	٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م	٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م	المعرب. تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة.	الأعلام ٨/٢٩٢
	البيهقي	أحمد بن علي	٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م	٥٤٤ هـ / ١١٥٠ م	تاج اللغة. المحيط بلغات القرآن. تاج المصادر.	الأعلام ١/١٦٨
	الأنباري	عبدالرحمن بن محمد الأنصاري أبو البركات	٥١٣ / ١١١٩	٥٧٧ هـ / ١١٨١ م	أسرار العربية. لمعة الأدلة.	الأعلام ٤/١٠٤
	ابن بري	عبدالله بن بري المقدسي أبو محمد	٤٩٩ هـ / ١١٠٦ م	٥٨٢ هـ / ١١٨٧ م	حواشي على الصحاح. حواشي على درة الغواص.	الأعلام ٤/٢٠٠
القرن السابع الهجري	ابن الأثير	مجد الدين مبارك بن محمد الجزري	٥٤٤ هـ / ١١٥٠ م	٦٠٦ هـ / ١٢١٠ م	النهاية في غريب الحديث. الأثر على حروف المعجم.	الأعلام ٦/١٥٢
	ابن الأثير	محمد بن نصر الله الشيباني	٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م	٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م	نعت الفواكه والثمار.	الأعلام ٧/٣٤٧
	الصاغاني	الحسن بن محمد العمري	٥٥٧ هـ / ١١٨١ م	٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م	العباب. مجمع البحرين. التكملة والذيل. الشوارد في اللغات. الأضداد.	الأعلام ٢/٢٣٢
	الزنجاني	محمود بن أحمد أبو المناقب	..	٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م	تهذيب الصحاح. تنقيح الصحاح.	الأعلام ٨/٣٧
	الرازي	زين الدين محمد بن محمد	..	بعد ٦٦٦ هـ / ١٢٦٨ م	مختار الصحاح. غريب القرآن.	الأعلام ٦/٢٧٩
	الشاطبي	محمد بن علي الأنصاري أبو عبدالله	٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م	٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م	حواشي على صحاح الجوهري.	الأعلام ٧/١٧٣
القرن الثامن الهجري	ابن منظور	محمد بن مكرم الأنصاري	٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م	٧١١ هـ / ١٣١١ م	لسان العرب.	الأعلام ٧/٣٢٩
	أبو حيان	محمد بن يوسف الأندلسي	٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م	٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م	تحفة الأريب في غريب القرآن. ارتشاف الضرب من لسان العرب.	الأعلام ٨/٢٦
	الفيومي	أحمد بن محمد المقري أبو العباس	..	٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م	المصباح المنير.	الأعلام ١/٢١٦
القرن التاسع	الفيروزابادي	مجد الدين محمد بن يعقوب أبو طاهر	٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م	٨١٧ هـ / ١٤١٥ م	القاموس المحيط. الجليس. البلغة. تحبير الموشين. المثلث. اللامع. المعجم. الإشارات.	الأعلام ٨/١٩
القرن العاشر	السيوطي	جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر	٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م	٩١١ هـ / ١٥٠٥ م	المزهر. الأشباه والنظائر. بغية الوعاة. أسماء الأسد.	الأعلام ٤/٧١
القرن الحادي عشر	الخفاجي	شهاب الدين أحمد بن محمد	٩٧٧ هـ / ١٥٦٩ م	١٠٦٩ هـ / ١٦٥٩ م	شرح درة الغواص. شفاء الغليل.	الأعلام ١/٢٢٧
القرن الثاني عشر	الزبيدي	مرتضى محمد بن محمد الحسيني	١١٤٥ هـ / ١٧٣٢ م	١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م	تاج العروس. مختصر العين. التكملة والصلة والذيل. القاموس. الروض المعطوف [illegible] أسماء الأنوف.	الأعلام ٧/٢٩٧

أمهات المعاجم العربية وأشهرها مصنفة بحسب نهجها

النهج	المعجم	المؤلف	وفاة المؤلف	مكان الوفاة	الميزات	ملاحظات
معجمات نهجت طريق الاعتماد على حرف الكلمة الأول بحسب مخرجه مع الأخذ بنظام الأبنية ومقلوبات الكلمة.	العين	الخليل	١٧٠ هـ ٧٨٦ م	البصرة	المؤلف مبتدع فكرة المعجم لحصر ألفاظ اللغة ومبتكر الترتيب على حروف المعجم. وقد جعل لكل حرف كتاباً ذكر فيه الثنائي المضاعف أولاً فالثلاثي الصحيح ثم اللفيف ثم الرباعي فالخماسي، وهو يذكر الكلمة ثم مقلوباتها.	طبعت منه مختارات والباقي مفقود والشيء المطبوع منه في ...
	البارع	القالي	٣٥٦ هـ ٩٦٧ م	قرطبة	رتب القالي معجمه ترتيباً خاصاً فقسمه الأبنية أبواباً وأعد الكتب، الثنائي المضاعف والثلاثي الصحيح والثلاثي المعتل والحواشي أو الأوشاب والرباعي والخماسي، وقد أخذ بنظام المقلوبات تبعاً للخليل.	نشر جزء منه وتوجد بعض أجزائه مخطوطة.
	تهذيب اللغة	الأزهري	٣٧٠ هـ ٩٨١ م	خراسان	التزم المؤلف ترتيب الخليل للحروف وجعل لكل حرف كتاباً وفي الكتاب ستة أبنية الثنائي المضاعف والثلاثي الصحيح والثلاثي المهموز والثلاثي المعتل والرباعي والخماسي وتابع الخليل في نظام المقلوبات.	طبع حديثاً.
	المحيط	الصاحب	٣٨٥ هـ ٩٩٥ م	الري	التزم المؤلف ترتيب الخليل والأزهري والتزم الثاني في ترتيب الأبنية ووافقهما في نظام المقلوبات إلا أنه اختصر وأطال في مواد كثيرة.	مخطوط وفي القاهرة قسم منه.
	المحكم والمحيط الأعظم	ابن سيده	٤٥٨ هـ ١٠٦٦ م	دانية	أخذ المؤلف بترتيب الخليل ونظام المقلوبات وجعل لكل حرف كتاباً وقسم كل كتاب إلى أبواب الثنائي المضاعف الصحيح والثلاثي الصحيح والثنائي المضاعف المعتل والثلاثي المعتل والثلاثي اللفيف والرباعي ثم الخماسي.	طبع أخيراً جزء من منه.
معجمات اعتمدت على الموضوعات ومعاني الكلمات دون مراعاة لتقلبات الحروف ومخارجها.	الغريب المصنف	ابن سلام	٢٢٤ هـ ٨٣٨ م	مكة	معجم مختصر مقسم بحسب المعاني والموضوعات المختلفة ويضم أكثر من سبعة عشر ألف حرف.	بعض بعض المستشرقين على نشره.
	الألفاظ	ابن السكيت	٢٤٤ هـ ٨٥٨ م	بغداد	معجم مطول مقسم إلى أبواب بحسب المعاني وهو من أدق وأوثق كتب العربية.	مطبوع والتهذيب مطبوع والمختصر منه مطبوع أيضاً.
	المخصص	ابن سيده	٤٥٨ هـ ١٠٦٦ م	دانية	أوسع المعجمات العربية المفسرة بحسب المعاني والموضوعات.	مطبوع
معجمات اعتمدت ترتيب نصر بن عاصم للحروف ونظمتها بحسب أوائل الكلمات دون الخضوع لنظام الأبنية والمقلوبات.	الحروف	الشيباني	٢٠٦ هـ ٨٢١ م	بغداد	معجم مختصر ومؤلفه أول من أخذ بترتيب نصر بن عاصم فرتب معجمه فجعل لكل حرف باباً والتزم الحرف الأول من الكلمة دون بقية الحروف.	مخطوط بطريق ... في جمعه بعناية المستشرق كنز.
	أساس البلاغة	الزمخشري	٥٣٨ هـ ١١٤٤ م	خوارزم	معجم جديد في العربية التزم مؤلفه ترتيب نصر بن عاصم بحسب أول حروف الكلمة وثانيها وثالثها مع تقديم الواو على الياء في الأبواب دون المواد، ورتب المؤلف في هذا الترتيب البرمكي في ترتيب الصحاح.	مطبوع
	المصباح المنير	الفيومي	٧٧٠ هـ ١٣٦٨ م	حماة	معجم مختصر لكتاب مؤلفه في غريب شرح الوجيز للغزالي، مرتب على حروف المعجم بحسب أوائل الكلمات وثانيها وثالثها.	مطبوع
معجمات اعتمدت ترتيب نصر بن عاصم بحسب أوائل الكلمات الأصول مع الاستئناس بنظام الأبنية.	الجمهرة	ابن دريد	٣٢١ هـ ٩٣٣ م	بغداد	أخذ المؤلف ترتيب نصر بن عاصم للحروف بحسب أوائل الكلمات وما يليها وراعى ترتيب الخليل للأبنية ونظامه في المقلوبات.	مطبوع
	المجمل	ابن فارس	٣٩٥ هـ ١٠٠٤ م	الري	معجم رتب على حروف المعجم لكل حرف كتاب وفي الكتاب ثلاثة أبواب بحسب الأبنية أولها الثنائي المضاعف والمطابق ثم الثلاثي ثم ما جاء على أكثر من ثلاثة ويبدأ بالكلمة المبدوءة بحرف الباب وترتيب الحرف الثاني له ثم يذكر الحروف السابقة عليه مع طرح نظام المقلوبات.	مخطوط وقد طبع الجزء الأول منه.
	المقاييس	ابن فارس	٣٩٥ هـ ١٠٠٤ م	الري	اتبع المؤلف ما التزم به نفسه في المجمل وزاد عليه دقة في بحث الاشتقاق والتوقف في نقد ما لا يرى صحته.	طبع حديثاً
معجمات اعتمدت ترتيب نصر بن عاصم بحسب آخر الكلمة فتجعل حرف الباب آخر الكلمة وتجعل الحرف الأول فالثاني من الكلمة وتسلسله في الأبواب ... وأسماء الكلمات المنتهية بالحرف ... الفصول.	ديوان الأدب	الفارابي	٣٥٠ هـ ٩٦١ م	زبيد	معجم مقسم إلى ستة كتب هي السالم والمضاعف والمثال وذوات الثلاثة والأجوف وذوات الأربعة والهمزة. وقد قسم كل كتاب شطرين أسماء وأفعالاً وفي كل شطر أبواب بحسب الأبنية ورتب الأبواب بحسب الحروف بحسب أواخر الكلمة ثم أوائلها وهو معجم طرح نظام المقلوبات ...	مخطوط وقد اختصر وهذب ونشرت مقدمته حديثاً.
	الصحاح	الجوهري	٣٩٣ هـ ١٠٠٣ م	نيسابور	رتب الجوهري ما صح عنده على حروف المعجم بحسب أواخر الكلمات وجمع الواو والياء في باب واحد، وألحق بعد باب الألف الهمزة وقسم الأبواب إلى فصول بحسب الحرف الأول، واتبع الترتيب نفسه في الحرفين الثاني والثالث، ويضم الصحاح أربعين ألف مادة.	مطبوع وله مختصرات أشهرها مختار الصحاح منه طبعات بعضها مرتب بحسب أوائل الكلمات.
	العباب	الصاغاني	٥٥٧ هـ ١١٨١ م	بغداد	معجم جمع المؤلف فيه ما تمكن من جمعه ملتزماً خطة الجوهري في صحاحه.	مخطوط وفي القاهرة جزء منه.
	لسان العرب	ابن منظور	٧١١ هـ ١٣١١ م	القاهرة	أضخم معجم موسوعي التزم مؤلفه ترتيب الصحاح وعمل على استقصاء اللغة من الأمهات، ويضم اللسان ثمانين ألف مادة.	مطبوع وله تهذيبان طبع من أحدهما خمسة أجزاء.
	القاموس المحيط	الفيروزابادي	٨١٧ هـ ١٤١٥ م	زبيد	جمع مؤلفه ما في العباب والمحكم وكثيراً مما في الكتب الفاخرة مختصراً إياها ناقداً ما في الصحاح من أوهام ملتزماً ترتيبه، والقاموس من أحسن المعجمات نظاماً وترتيباً وإيجازاً واستقصاء وإن لم يخل من أوهام، وهو يضم نحواً من ستين ألف مادة.	مطبوع وطبع حديثاً ترتيب له بحسب أوائل الكلمات.
	تاج العروس	الزبيدي	١٢٠٥ هـ ١٧٩٠ م	القاهرة	أضخم معجم عربي شرح فيه مؤلفه القاموس جامعاً ما تفرق في مؤلفات كل من سبقه من علماء اللغة والنحو والأمثال والطبقات والحديث والبلدان والحيوان والنبات والطب والسدادين، ويضم التاج شرحه ومئة ألف مادة.	مطبوع

٧ ــ المعجم العربي في العصر الحديث

أفاق العرب في القرن الماضي ، بعد رقاد دام قروناً اضمحلت خلالها دولتهم ، وفسدت لغتهم ، وتقهقرت آدابهم ، فرأوا الأوربيين في أوج الحضارة والمدنية ، مما حمل الزعماء منهم على الدعوة إلى النهوض واللحاق بركب العالم المتمدن ، وأخذوا ينشرون الوعي بين الناس ، ويبثون بينهم حب العلوم والآداب ؛ وكان لا بد للنهضة اللغوية والأدبيـة من الاستعانة بالمعاجم لإحياء اللغة وآدابهـا ، مما دعا إلى الاعتماد في بادىء الأمر على المعجمات القديمة ، وإلى ظهور طبعات لكل من القاموس المحيط ولسان العرب وأساس البلاغة ومختار الصحاح والمصباح المنير ، وقام بعض العلماء بإعادة ترتيب بعض هذه المعاجم بحسب أوائل الكلمات ، ولكن جميع المعاجم التي ظهرت طبعاتها كانت قاصرة عن مسايرة النهضة العلمية التي استجاب العرب للدعوة إليها ، لأنها معاجم ألفت في عصور تختلف الحضارة فيها عن مفهومها في العصر الحديث ، ولأنها تبعاً لذلك كانت محشوة ببعض الأوهام والأخطاء السائدة في عصور مؤلفيها ، مما دفع بعض العلماء الغيارى على العربية ، إلى حمل العبء ، والقيام بإعداد المعاجم الحديثة ، ناقلين أكثر موادها من المعجمات القديمة ؛ فوضع المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٩ م المعجم الذي أسماه « محيط المحيط » وقد التزم فيه عبارة القاموس المحيط مع شيء من التصرف والتهذيب واتباع ترتيب حروف الهجاء بحسب أوائل الكلمات ، ثم جاء المعلم الشرتوني فوضع معجمه « أقرب الموارد » آخذاً إياه من الأمهات ، وإن كانت عبارة القاموس فيه أغلب ، مع دقة في التهذيب وسلامة في الترتيب بحسب أوائل الكلمات ، وتتالى بعد ذلك تأليف المعاجم ، وكانت كلها تحذو حذو محيط المحيط وأقرب الموارد ، وأشهر المعاجم التي ما زالت تخدم طلاب العربية معجم الأب لويس معلوف ، وقد أسماه بـ « المنجد » وظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٠٨ م ،

ويعتبر المنجد اليوم خير معجم مدرسي للعربية في ترتيبه وإخراجه ، إذ هو يحاكي في ذلك أحدث المعاجم الأوربية فناً ، خاصة" بعد أن أضاف اليه الأب فرديناند توتل سنة ١٩٥٦ م ملحقاً باسم « المنجد في الأدب والعلوم » وهو معجم لأعلام الشرق والغرب ، وذلك رغم ما في المعجم وملحقه من مآخذ ، وما يرد عليهما من ملاحظات ، إنما يؤمل من المشرفين على إخراج « المنجد » تلافي ما يشوبه من نقص وهنات في طبعاته المتلاحقة .

على أن جميع المعاجم المذكورة ، على عظم الخدمة التي أدتها للعربية وما زالت تؤديها حتى هذا العصر ، ظلت عاجزة عن مسايرة النهضة الحديثة للبلاد العربية ومتابعة التطور الكبير في مختلف العلوم العصرية ، مما زاد العرب في مختلف ديارهم شعوراً بالحاجة الشديدة إلى معجم حديث يضاهي المعاجم المعروفة في اللغات الأجنبية ، ويتسع لمصطلحات العلوم وألفاظ الحضارة المعاصرة ، على أن هذا الشعور مشروط بوجوب إغناء المعجم العربي الحديث بطريق الإفادة من الثروة الطائلة التي تشتمل عليها المعجمات القديمة وكتب اللغة العديدة ، استناداً إلى خصائص العربية ومرونتها إلى حد يمكن معه أن تستوعب كل جديد تدعو اليه ضرورة أو مصلحة أو يتطلبه علم أو فن ، ولا ضير على العربية من أن يحوي معجمها أي لفظ مولد أو معرب أو دخيل ، إذا جرى اشتقاقه وفق القواعد القياسية أو كان لفظه لا يخالف النطق بالفصيح من الكلمات ، وأخذ كثير من العلماء ينادون إلى العمل من أجل المعجم المطلوب ، كما نادى بعضهم بوجوب إعادة النظر فيما ورد في المعجمات القديمة ، عند الاقتباس منها ، من أوهام وأخطاء وتصحيف ، مع اهمال الغريب الحوشي ، وتضييق دائرة الكلمات المترادفة والمشتركة والأضداد ما أمكن .

وحمل مجمع اللغة العربية في القاهرة عبء العمل على سد هذه الثغرة ، فأخرج سنة ١٩٦٠ م « المعجم الوسيط » في جزأين ، وقد أشرفت على

اخراجه لجنة من أعضاء المجمع، فبذلت جهداً في صياغتها لكثير من مواد المعجم وفق القواعد والقرارات التي اتخذها المجمع في دوراته المختلفة، وبرغم ما أريد لهذا المعجم من أن يكون لغوياً، فإنه أخذ طابعاً علمياً في تعريف كثير من المصطلحات والأسماء مما يجعل له رجحاناً على غيره من المعجمات، وقد دفعتنا الرغبة في رؤية الطبعة الثانية من المعجم الوسيط أكثر كمالاً ودقة في ترتيب المواد وتعريف المصطلحات، إلى إلقاء نظرات عليه وتدوين الملاحظات التي أخذت مجلة مجمعنا تنشرها تباعاً في أعدادها الأخيرة.

ولا تفوتنا الإشارة إلى فضل بعض علماء العربية المعاصرين، الذين وضعوا اللبنات الأولى في المعجم العربي المنشود، من ناحية المصطلحات العلمية، ومن هؤلاء العلماء الفريق أمين المعلوف. وقد وضع معجم الحيوان والمعجم الفلكي، بالإنكليزية والعربية، مراعياً جهده التعريفات العلمية وإحياء كثير من الكلمات العربية القديمة في معجميه المذكورين. ومنهم الدكتور محمد شرف مؤلف معجم العلوم الطبية والطبيعية، بالإنكليزية والعربية، وهو عمل ضخم رغم ما فيه من أخطاء وهنات.

ومن الرواد المعجميين الأول، وأوثقهم في اختصاصه، الأمير مصطفى الشهابي، في معجم الألفاظ الزراعية، بالفرنسية والعربية، وفي معجم المصطلحات الحراجية، بالفرنسية والإنكليزية والعربية، وفي المصطلحات والتصويبات التي ينشرها في مجلة المجمع العلمي العربي، وفي منشورات مجمع اللغة العربية في القاهرة.

ومن رواد المعجم العربي الحديث، الشيخ عبد الله العلايلي، الذي قام، فيما نشره حتى اليوم، بجهد يقدر في خدمة العربية، وكان آخر ما نشره المجلد الأول من معجمه «المرجع» وهو معجم وسيط، وعلمي بمقدار ما هو لغوي، وقد رتبه وفق المفرد بحسب لفظه، وبالرغم من أن الشيخ العلايلي اعتمد الأمهات من معاجم العربية، ونقل التعريفات العلمية

عن أوثق معاجم المصطلحات ، كان من الطبيعي أن تكثر هنات معجمه ، لأنه ألزم نفسه بعمل لايستطيع فرد واحد أن يضطلع به دون أن تزل قدمه .

٨ ـ المعاجم بين الفن والصناعة

يقول الدكتور ابراهيم مدكور الأمين العام لمجمع اللغة العربية في القاهرة ، في تصديره المعجم الوسيط ، الذي أخرجه المجمع : « للمعاجم فن يسير بسير الزمن ، وقد خطا خطوات فسيحة في القرنين الأخيرين ، وكانت له آثار واضحة في المعاجم الغربية ، بين إنكليزية وفرنسية ، وألمانية وروسية » .

ويقول الدكتور مدكور أيضاً في دراسته عن المعجم العربي في القرن العشرين [(١)] : « والآن نستطيع أن نقرر أن فن المعجم العربي نما وتطور في القرن العشرين ، وأخذ يحاكي نظيره في اللغات الأوروبية الكبرى أو يزيد عليه ، وطرحت تلك النظرية التي كانت تقول بأن العربية لغة لا تقبل التجديد ولا التطور ، وأصبحنا نسلم بعربية معاصرة إلى جانب العربية القديمة ، وبكلاسيكية وكلاسيكية محدثة . وفتح باب القياس على مصراعيه في اللغة كما فتح في الفقه والتشريع ، ومن حقنا أن نبتكر ألفاظاً وعبارات كما ابتكر أجدادنا » .

إن الفن ـ في رأينا ـ مظهر لإرادة الكمال في أمر من الأمور ، فإذا هدف إنسان في عمل يؤديه ، إلى تصوير ما يشعر به من عاطفة ، أو تسجيل ما يعتلج في صدره من أحاسيس ، أو إبراز ما يتوخاه من دقة ، أو تحقيق ما يستلزمه العمل من إتقان ، فإنما هو يمارس فناً من الفنون ، وكلما اقترب الإنسان في عمله من الكمال ، زاد فنه سمواً ، ومن طبيعة هذا الكمال ومظهره ، أخذت بعض الفنون وصفها بالجمال .

---

(١) بحث ألقي بالفرنسية في مؤتمر المستشرقين بموسكو سنة ١٩٦٢ ، ونشر بالعربية ملخصاً في الجزء ١٦ من مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٦٣ .

ونحن نحب أن نتساءل عن حظ المعاجم ، عربية كانت أو أجنبية ، من « الفن المتطور » بالمقاييس التي أشرنا اليها ؟

إن فن المعاجم ، في هذا العصر ، على نموه وتطوره ، إنما يتمثل بالدقة في ترتيب المواد وتنسيقها وضبطها ، كما يتمثل بالجهد في توضيح مواده بالأمثلة الدقيقة وبالرسوم المعبرة ، ويتمثل فن المعاجم أخيراً في إتقان الإخراج الذي يشمل جودة الطباعة ، وحسن المظهر ، فهل هذا هو كل ما يجب أن يستهدفه واضعو المعاجم العربية اليوم ؟

إن العرب في حاجة إلى معاجم جديدة تمتاز ، بالإضافة إلى مقتضيات « الفن المتطور » التي ذكرناها ، بما فيها من مواد جديدة تفي بمتطلبات مختلف العلوم والفنون ، على أن يتوصل إليها باتباع قواعد سليمة يمكن معها ، بقدر ما تدعو اليه الضرورة ، التوسع في قياسية صيغ الزوائد والمصادر ، وبذلك تغنى العربية بالاشتقاق في يسر وسهولة ، مع ضبط هذا الأمر حفاظاً على سلامة اللغة وصحتها .

كما يجب أن تمتاز المعاجم الحديثة ، بما تحويه من تعريفات علمية صحيحة ، يستبعد معها ، جميع ما ورد في المعجمات القديمة من أخطاء وأوهام وتصحيف ومجانبة للدقة في التعريف .

إن معجماً بالصفات المذكورة ، إذا أريد له أن يفي بحاجات العصر ، لا يمكن أن يكتفى فيه بمسايرة « فن المعاجم الحديث » إنما يجب أن يكون وضعه في مستوى « الصناعة » ولسنا نعني بالصناعة هنا ، المعنى الشائع لهذه الكلمة ، أي مجرد العمل الذي يمارسه الإنسان ، وقد يحترفه ، مستنداً فيه إلى جهد عضلي ، أو نظام آلي ، أو إلى قواعد رتيبة ، لأن الصناعة بهذا المعنى ، تكاد تكون منبتة الصلة بالفن ، حيث يجري الإنسان فيـــه

وراء الجمال مدفوعاً بمشاعره وأحاسيسه غير متقيد بنظام أو قاعدة ، إنما نقصد بالصناعة ذلك العمل الذي يشعر القائم به رغبة في إجادته وإتقانه ، فيخطط له ثم يوفيه حقه من الدراسة والإعداد له ، يعرف الغاية منه ، فيسلك اليها أوضح نهج وأقوم سبيل ، ثم يجعله بالفن المتطور مع الزمن ، المصقول بالمران ، المهذب بالارتقاء ، حقيقة واقعة في أجمل صورها وأسمى معانيها ، إن مثل هذا العمل الجيد هو « الصناعة » كما يدل عليها جوهر اللفظة في متن العربية ، وكفى « الصناعة » بهذا المعنى ورودها في قوله عزّ وجلّ « صُنْعَ الله الذي أتقن كل شيء (١) » ، وقوله عزّ وعلا : « اصنع الفلك بأعيننا ووحينا (٢) » .

إن معاجم اللغات الحية ، اجتازت اليوم ، مرحلة الفنون ، وأصبحت صناعة ، تحشد للعمل فيها طوائف عديدة من العلماء الأعلام ، ومن رجال الفن الجهابذة ، كل منهم يعمل في نطاق اختصاص معلوم . والمعجم اللغوي أو العلمي الذي نريده للعربية . لا يكفيه تأليف لجنة من كبار علماء اللغة للإشراف على إخراجه ، بل لا بد له من علماء في اللغة ، الى جانب مختصين بمختلف العلوم الأخرى ، يتوازعون مواده ، ويسهمون في الإشراف على مختلف أقسامه ، كما لا بد له من رجال يتقن الواحد منهم فناً من الفنون اللازمة لإخراج معجم حديث ، يعملون جميعاً في تنسيقه وتبويبه وتزيينه وطباعته حتى يخرج للناس المعجم العربي المنشود .

عدنان الخطيب

---

(١) سورة النمل : ٨٨ .
(٢) سورة هود : ٣٧ .

تحقيق لغوي

في الصيغ والاستعمالات

هذا بحث حققت فيه طائفة من الصيغ والاستعمالات مما يكثر في عربيتنا الحديثة المعربة . وأقصد بهـذه العربية عربية الدواوين الرسمية ، وعربية الصحافة والإذاعة والمقالة الأدبية . على ان هذا البحث لا يقتصر على هذه النماذج من اللغة الحديثة ، بل يتعدى ذلك للتحقيق في طائفة من الاستعمالات العربية التي عرفت في عربيتنا الفصيحة القديمة . وأنا إذ أبحث في هذا اللون من العلم اللغوي لا أقصد أن أشير إلى مكان التجاوز ، أو قل مواطن الخطأ في هذه العربية الحديثة ، ولكني أريد أن أشير إلى أن هذه العربية الحديثة هي لغة هذا العصر الحاضر بحاجاته العديدة ووسائله المختلفة وما جد فيه وما يجد من أشياء ومستحدثات . وهي استعمالات وصيغ قائمة دائمة أردنا أم لم نرد خضعت لسنة التطور شأن جميع اللغات في هذا الموضوع .

ومن الواجب أن نسجل هذا التجاوز ، أو قل هذا الجديد لنربط بينه وبين عربيتنا الفصيحة القديمة عملاً بالمنهج اللغوي التاريخي . وسنجد أن علم اللغة في العربية لا يتنكر للجديد المولد أو قل لا يريد أن ينسب الى الخطأ مواد كثيرة . فالشذوذ في العربية والقول باللغات الخاصة ومسائل التوهم يؤيد ما نذهب اليه في هذه الحقيقة اللغوية .

وسأتناول في هذا البحث طائفة من الصيغ تشتمل على جموع مختلفة وأفعال وغير هذا مما دخله شيء من الجديد صرفه عن الوجه الفصيح المشهور .

ألفاظ الجمع

(١) لقد شاع جمع « مدير » بصيغة اسم الفاعل من « أدار » على « مدراء » في لغة الدواوين الرسمية ، وكأنهم لا يعرفون ان الكلمة تجمع جمع تصحيح على « مديرون » . وأغلب الظن أن الذي سهل هذا التجاوز أنهم حملوا « مدير » على « فعيل » التي تجمع على « فعلاء » . وربما لم يبق « مدراء » مكاناً لـ « مديرين » في الاستعمال الجاري في العراق .

(٢) ورد في لغة الصحف استعمال « شُقاة » جمعاً لـ « شقي » والصحيح أن الكلمة تجمع على « أشقياء » كما هو مشهور معلوم ، فاستعمالهم « شُقاة » من باب الخطأ إذ ليس المفرد « شاقي » كما تقول : غازي غزاة ووزنه « فُعَلة » .

(٣) ومثل هذا الخطأ الجديد استعمالهم « ثقاة » بالتاء المربوطة وهم يريدون بها جمع « ثقة » فكأن المفرد من ذلك « ثاقي » وهي تجيء في نطقهم بضم الثاء .

(٤) ويجمعون « سائح » على « سوّاح » فكأن الكلمة جاءت من فعل أجوف واوي والصحيح أن يقال « سُيّاح » ويبدو أن الذي جر الى هذا الخطأ ضمة السين في الكلمة المجموعة « سُيّاح » على « فُعّال » .

(٥) ويجمعون « مدينة » على « مدائن » بالهمز ، ومثلها « مصيدة » على « مصائد » بالهمز والصحيح أن تثبت الياء لا الهمزة ذلك أن ما كان فيه الياء أو الواو أصلية لم يجز أن تبدل همزة ؟ وعلى هذا حملت « معائش » في قراءة نافع على الخطأ في قوله تعالى : « ولقد مكنّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون »(١) . وعن ابن عامر : أنه

---

(١) الأعراف .

همز على التشبيه بصحائف . (١) وقد خرج اللغويون والنحويون قراءة نافع هذه بالهمزة على أن « معيشة » وهي « مفعِلة » شبهت بـ « فعيلة » .

وقد جدّ في لغتنا العربية الحاضرة جموع لم تعرف في المأثور من نصوص اللغة ، ولكن البحث يهدي إلى شيء يمكن أن ترد إليه هذه المولدات ومن ذلك استعمالهم « مشاكل » جمعاً لمشكلة و « مهامّ » جمعاً لمهمة ولم ترد « مفاعل » جمعاً لـ « مفعلة » صيغة اسم الفاعل . وجمع المؤنث السالم يغني عن هذا التجاوز . غير أن كتب النحو تورد قول أبي ذؤيب الهذلي :

وان حديثاً منك لو تبذلينه جنى النحل في ألبان عوذ مطافل (٢)

فالمطافل جمع « مُطفل » وهي ذات طفل وقد جمعت « مطافيل » بالإشباع . وربما استطعنا حمل « المشاكل » على « المصائب » وعلى « المراضع » جمع « المرضعة » كما في قوله تعالى : « وحرمنا عليه المراضع من قبل » (٣) .

(٦) وقد يعرض لشيء من ألفاظ الجمع خطأ في الشكل فيقولون : « زخارف » بضم الراء و « تجارب » بضم الراء أيضاً و « قنابل » بضم الباء وبذلك خرجت هذه الجموع عن الصيغة الصحيحة الفصيحة ، وهي « فعالِل » بكسر اللام ، والذي أراه أن الضمة اجتلبت خطأ من ضمة المفرد فالمفردات هي « زخرف » بضم الراء و « تجرُبة » بضم الراء على النطق العامي السائر فكأنها ليست مصدر « جرّب » على « تفعِلة » . ومثلها « قنبُلة » بضم الباء بمفرد « قنابل » .

(٧) وربما تحول الجمع في هذه العربية الدارجة الى مفرد في الاستعمال .

---

(١) الزمخشري ، الكشاف ٨٩/٢ (طبعة الاستقامة القاهرة ١٣٦٥) .
(٢) الرضي ، شرح الشافية ١٤٥/٤ .
(٣) الزمخشري ، الكشاف ٣٩٦/٣ .

ومن ذلك استعمالهم «آونة» فكأنها تحولت عن جمع لـ «أوان» وهي لذلك تعقب في الاستعمال أحياناً لفظ «طوراً» أو «حيناً» ولذلك أيضاً خفيت على كثيرين من طلاب الدرس .

(٨) وقد يجمعون «حاجة» على «حاجيات» فيقولون «الحاجيات المنزلية» ولا ندري كيف جيء بهذه الياء .

(٩) وقد تنوهم صيغة الجمع في ألفاظ منها : «أثاث» فيقولون : أثاث فاخرة والصفة تشعر باستعمال الجمع . ودلالة «الأثاث» معروفة فهي تدل على مواد المنزل من رياش ومتاع . وفي كتب اللغة ان الأثاث المال أجمع ، الإبل والغنم والعبيد والمتاع . وقال الفراء : الأثاث لا واحد لها ، كما أن المتاع لا واحد له . وجاءت الكلمة في لغة التنزيل : «وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئيا» [(١)] ، وقوله : «ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً» [(٢)] .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

على أن هذا المعنى يثبت للكلمة في صورتها العبرانية אֵת . واذا تتبعنا فرائد العربية وجدنا شيئاً يدلنا على وجود هذه الكلمة في صورة أخرى في مادة عربية وهي «لات» النافية العاملة عمل «ليس» وكأن النحويين قد وقفوا على التاء في «لات» وفطنوا الى ان النافية هي «لا» ثم ركبت مع التاء ، ولكنهم لم يهتدوا الى حقيقة التاء فقد قال جماعة : انها تاء التأنيث ، وقال آخرون : إنها للمبالغة ، وقالوا انها لكليهما [(٣)] . والذي يرجحه التحقيق ان «لات» هي «لا ايت» ثم خففت وركبت على نحو ما ركبت «ليس» التي هي «لا ايس» و «ايس» تعني «وجود»

---

(١) مريم ٧٤ .

(٢) النحل ٨٠ .

(٣) ابن عقيل ، شرح ألفية ابن مالك .

فكأن « لا ايس » لا شيء ، ويدل على هذا ان العبرية « ايش » تعني وجود أو قل ان « شيء » مقلوب « ايش » .

ومثل « أثاث » في الإفراد « رفات » ولكن العربية الحديثة حملتها على جمع المؤنث لوجود الألف والتاء . والرفات الحطام من كل شيء تكسر . وفي التنزيل العزيز : « أئذا كنا عظاماً ورفاتاً »(١) وقد عرض هذا الخطأ للغة الحديثة فهذا السيد أحمد الصافي النجفي يستعمل الكلمة جمعاً غير مرة في شعره .

(١٠) وقد منعت لغتنا الدارجة الحديثة ـ ولا سيا ما نسمعه على ألسنة المذيعين في العراق ـ الصرف عن الجموع على زنة « أفعال » فقد منعوا « ألوان » و « أغراض » وغير ذلك من الصرف وكأنهم حملوا ذلك على « أشياء » وما علموا أن في منع « أشياء » من التنوين كلاماً كثيراً لا نرى حاجة لنعرض له في هذا المكان .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مواد أخرى

يقال الآن : « رجل مجرِّب » بصيغة اسم الفاعل وهو قياس صحيح ، فالرجل المجرِّب هو الذي عرف الأمور وجربها ، أما المجرَّب بالفتح فهو من جربته الأمور وأحكمته . والذي نعرفه ان الكلمة في صيغة المفعول هي التي تكلمت بها العرب وجاءت في كلامهم ، ولا بد أن نسجل هنا ان اللغة الحديثة عدلت عن اسم المفعول إلى اسم الفاعل وذلك لاختلاف النظر إلى الفعل وعلاقة الفعل بالفاعل من حيث الإيجاب والسلب وهذا لون من ألوان التطور اللغوي .

---

(١) الاسراء ٩٨ .

ندب

التزمت العربية المعاصرة بصيغة « انتدب » في حالة التعدي والفصيح المشهور هو الفعل الثلاثي « ندب » يقال : ندب القومَ إلى الأمر يندبهم ندباً ، وندبت فلاناً ولا يقول : انتدبته . أما « انتدب » فهو فعل لازم يقولون : انتدبوا إليه أي أسرعوا ، وانتدب القومُ من ذوات أنفسهم أيضاً دون أن يندبوا له .

قال الجوهري في الصحاح : ندبه للأمر فانتدب له أي دعاه له فأجاب وفي الحديث : انتدب الله لمن يخرج في سبيله أي أجابه إلى غفرانه . ويتبين من هذا أن استعمال الفعل « انتدب » بمعنى « ندب » كما في عربيتنا الفصيحة شيء لم تجر به لغة العرب الفصيحة القديمة . ولم يشذ عن أصحاب المعجمات في هذه المادة إلا الفيومي في « المصباح المنير » فقد أثبت أن « انتدب » مثل « ندب » ولم يشر إلى مرجع يؤيده في هذا على غير عادته في ذكر المراجع .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

استهتر

والاستهتار الولوع بالشيء والمستهتَر بزنة اسم المفعول المولع ، وفي الحديث المستهتَرون بفتح التاء الثانية المولعون بالذكر والتسبيح ، وجاء في حديث آخر : هم الذين استُهتِروا بذكر الله أي أولعوا ومنه : ان لله ملائكة مستهترين به . وأريد أن أقف على هذه المادة بصيغتها في البناء للمجهول وبصيغة اسم المفعول لأسجل أن عربيتنا المعاصرة بنتْ الفعل للمعلوم وبنتبنى على هذا أن الوصف منه بزنة اسم الفاعل وليس بزنة اسم المفعول ثم إن « المستهتِر » في لغتنا الحاضرة الخارج عن القصد والمتزيد من العبث واللهو

« فالمستهتِر » قد يكون المكثر من شرب الخمر والذي لا يحترم الحدود في عبثه ولهوه . وهذا التحول في المعنى والصيغة لون من ألوان التطور جاءت به عربيتنا الحديثة .

سهم

السهم النصيب والقِدح الذي يقارع به . واستهم الرجلان تقارعا . وساهم القومَ فسهمهم سهماً قارعهم فقرعهم ، وأسهم بينهم أي أقرع . هذا هو المعروف في كتب اللغة ، ولكن عربيتنا الحاضرة توسعت وأفادت من الاشتقاق فأخذت من « السهم » بمعنى النصيب « أسهم » أو « ساهم » بمعنى شارك وهذان الفعلان من المولدات الحديثة التي لا نجدها في الفصيحة القديمة . وهـذا التوليد باب يظهر غنى العربية في توليد الألفاظ للافادة منها في معان جديدة اقتضاها عصرنا الحاضر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هدف

والهدف : الغرض المنتَضَل فيه بالسهام . والهدف : كل شيء عظيم مرتفع ، وهو كل بناء مرتفع مشرف . هذا هو الذي نصت عليه مطولات اللغة ، والكلمة في عربيتنا الحاضرة من الكلمات التي كتب لهـا الشيوع واستخدمت استخداماً كثيراً ، ومن أجل هذا توسعت اللغة فيها فأخذت من الاسم فعلاً ثلاثياً هو « هَدَفَ » وهذا الفعل يتعدى بحرف الجر « إلى » فهم يقولون : « هذه الحركة تهدف إلى عدة أغراض » وكأنهم يريدون بذلك « تقصد » واشتقاق هذا الفعل واستعماله على هذا النحو شيء جديد لم يثبت في كلام العرب وهو من المولدات التي جدت في لغتنا الحاضرة فقد كانوا يستعملون الرباعي من هذه المادة ، فالإهداف عندهم الدنو والقرب ، وأهدف الشيء دنا وقرب ، ومثله استهدف الشيء أي انتصب .

طمن

وهذا فعل جديد شاع في لغتنا الحاضرة وهو مضعف على « فعّل » فيقولون « يطمن الرغبات » أي « يكفي الحاجات ويسد النقص » . وهذا الفعل لا وجود له في العربية الفصيحة القديمة ، وهو مولد على طريقة التضعيف والحزم من « طمأن »(١) والطمأنينة والاطمئنان معروفان .

قرن

ومن هذه المادة الفعل « قارن » وقارن الشيء الشيء مقارنةً وقراناً اقترن به وصاحبه . ولغتنا الحاضرة تستعمل الفعل « قارن » في قولهم : « قارن الشيء بالشيء » على نحو غير الذي أثبتته كتب اللغة وهو استعمال جديد . والمقارنة في لغتنا اليوم لا يراد بها الاقتران والمصاحبة وانما يراد بها « الموازنة » فهم إذا وازنوا بين موضوعين من الموضوعات أحدثوا « المقارنة » بمعناها الجديد . والموازنة هي الكلمة المقتضاة في هذا الباب ، فقد عرفنا « الموازنة بين أبي تمام والبحتري » للآمدي وهو من الكتب الشهيرة في النقد والبلاغة .

والاستعمال الحديث في موضوع « الأدب المقارن » هو من تحميل مادة « المقارنة » هذا المعنى الجديد ، فالموازنة فيما أسموه بالأدب المقارن حاصلة موضوعاً وتطبيقاً .

---

(١) لم يرد « طمأن » الرباعي على هذا النحو في معجمات اللغة وإنما ورد مقلوبه « طأمن » كما ورد المزيد « اطمأنّ » وذهب سيبويه الى أن « اطمأنّ » المزيد بالهمزة والتضعيف مقلوب ومعنى ذلك أن الأصل هو « طأمن » وحجـة سيبويه أن « طأمنَ » غير ذي زيادة . ويبدو لي من هنا أن « طأمن » بهذا الشكل جاء من « أمن » ثم زيدت الطاء على هذا النحو الذي لم يجر كثيراً في العربية .

برر

ومن هذه المادة فعل مضعف هو « برّر » على « فعّل » وهو من الأفعال الشائعة التي حفلت بها لغتنا الحديثة فهم يقولون مثلاً : « الغاية تبرر الواسطة » أي تجوزها وتحقها ، وهذا شيء جديد لم يرد في كتب اللغة .

عوض

والعِوض البَدَل . وهذه الكلمة لا تتبع إلا بحرف الجر « من » فيقال : « عوض من » على أننا لا نقول إلا : « عوض عن » في عربيتنا السائرة الدارجة . ومثل هذا التجاوز في استعمال حروف الجر قد حصل كثيراً في لغتنا الحاضرة بحيث خفي وجه الصواب في أفعال كثيرة وسنعرض لجملة من ذلك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كلم

وفي هذه المادة يرد الفعل « تكلم » فيعدونه بحرف الجر « عن » والوجه فيه أن يقال : « تكلم على الشيء » و « الكلام على الشيء » ولا نقول : تكلم عن الشيء كما هو شائع في لغتنا الحاضرة .

جوب

وفي هذه المادة يرد الفعل « أجاب » فيعدونه بحرف الجر « على » والوجه فيه أن يقال : « أجاب عن السؤال » و « الجواب عن السؤال » ولا نقول : أجاب على السؤال كما هو معروف في لغتنا الحاضرة .

ضلع

وفي هذه المادة يرد الفعل « تضلّع » فيعدونه بحرف الجر « الباء » فيقولون : « تضلع بالشيء » والوجه أن يقال : « تضلع من الشيء » و « هو ضليع من الشيء » .

عمق

وفي هذه المادة يرد الفعل (تعمق) وهو من الأفعال التي تتعدى بنفسها في لغتنا الحديثة ، فيقولون (تعمق الشيء) والوجه أن يُتعدى بحرف الجر (في) فيقال : (تعمق في الأمر) .

بدل

والفعل من هذه المادة (بدّل) مضعف على وزن (فعّل) و (تبدّل) و (استبدل) وهذه الأفعال ترد في لغتنا العربية في عصرنا الحاضر وهم يستعملونها على النحو الآتي : (بدّل الكتاب بكتاب آخر) و (استبدل الشيء بشيء آخر) وحرف الجر في هذا الاستعمال يباشر ما أخذ عوضاً من الشيء . وهذا الاستعمال لا يجري على ما جاء في لغة التنزيل فقد جاء في قوله تعالى : (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهن من أزواج)(١) وفي قوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيب)(٢) وفي قوله تعالى : (ومن يتبدّل الكفر بالإيمان)(٣) وفي قوله تعالى : (قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير)(٤) . على أن هـــذا الفعل قد يأتي في لغة التنزيل دون أن يتعدى بالحرف : (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً)(٥) .

(١) الأحزاب ٥٢ .
(٢) النساء ٢ .
(٣) البقرة ١٠٨ .
(٤) البقرة ٦١ .
(٥) النور ٥٥ .

كفأ

الكفيء : النظير وكذلك الكُفء ، والمصدر الكفاءة بالفتح والمد ، ويقال لا كِفاء له أي لا نظير له وهو في الأصل مصدر . ومن الكُفء الكفاءة في النكاح ، وهو أن يكون الزوج مساوياً للمرأة في حسبها ودينها ونسبها وبيتها وغير ذلك . وهكذا فان المعنى الذي تنصرف إليه هذه المادة وهو المساواة حاصل في كثير من المشتقات . غير أن عربيتنا الحاضرة قد عدلت عن هذا المعنى وصار الكفء فيها هو (الكافي) القدير فيقولون : هو كفء في عمله أي قادر ذو كفاية وكان الصحيح أن يقال : هو كاف في عمله . وعلى هذا فان (الكفاءة) قد أخذت هذا المعنى المولد الجديد وهو القدرة على الشيء و (فلان ذو كفاءة) يراد به (ذو كفاية) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والكفاية هي المتطلبة في هذا الاستعمال فقولهم : (رجل كافٍ وكفيٌ) أي يكفى الأمر ، ويقال : رجل كافيك من رجل .

وأرى أن سبب هذا الوهم الذي أدى الى أن يكون (الكُفء) (كافياً) عدم فهم هذه الكلمة حين وردت في كلام الله تعالى في سورة الاخلاص : (ولم يكن له كفؤاً أحد) (١) فقد وقعت الكلمة منصوبة خبراً لـ (كان) وقد سهلت الهمزة إلى الواو فصارت الكلمة ترسم بالواو خطأً (كفؤ) وقد حُرف معناها إلى معنى (الكافي) الذي أشرنا إليه . ومن الخطأ في الرسم بالواو وانحراف الهمزة عن مكانها على الواو تولدت كلمة جديدة لاوجود لها في مفردات العربية وهي (كَفوء) على وزن (فَعول) للدلالة على معنى القدرة والجدارة فقد قالوا : (فلان كفوء بين أقرانه)

(١) الإخلاص ٥ .

ثم حلا المتكلمين بهذه اللغة أن يؤنثوا الكلمة فيقولوا : (العناصر الكفوءة) وهكذا فقد ولد الخطأ في الرسم كلمة مولدة جديدة شاعت في كتابات أبناء هذا العصر ولا تعدم أن تجدها فيا يكتبه المتأدبون .

سبق

نقرأ في لغة الدواوين الرسمية في العراق كلمة (مُسبّق) وهي بزنة اسم المفعول المشتق من الرباعي (اسبق) فيقال مثلاً : (وكانت النتائج قد نشرت مسبقاً) والكلمة تستعمل ظرفاً . وإذا نظرنا إلى الفعل الرباعي (اسبق) في كتب اللغة وجدناه في قولهم : (أسبق القومُ إلى الأمر وتسابقوا بادروا) . وهذا الاستعمال بعيد عما يستعمل في لغة الدواوين الرسمية في أيامنا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فني

يقال : (التفاني في سبيل الوطن) والمراد : بذل النفس في سبيله ، وحقيقة التفاني لاتفيد هذا المعنى الذي شاع في عربيتنا الحاضرة ، فإذا قلنا : (تفانى القوم) فالمراد قتل بعضهم بعضاً .

وعي

وشاع منذ ما يقرب من سنتين مصدر جديد هو (توعية) على أن فعل هذا المصدر المضعف (وعّى) لم يشع بل لم يعرف . وهذا المصدر وفعله من المولد الجديد في عربيتنا الحاضرة . وقد استعملت ، (التوعية) لغرض سياسي فالمراد منها (ايقاظ الجمهور وتنبيهه) نحو الوطنية الجديدة القائمة على الاشتراكية والنظم الاجتماعية الأخرى .

كتف

وفي هذه المادة الفعل (تكاتف) وهو مادة جديدة استعملت في العربية الحديثة ، ولا أحسب أنه استعمل في الفصيح المأثور من العربية ، وقد خلت معجمات اللغة من هذا الفعل ، ولكن اللغة الحديثة تفيد من الاشتقاق فتتوسع فيه لمعنى من المعاني . ومن المفيد أن نقول : أن علاقة المعنى الجديد للفعل (تكاتف) بالأصل وهو (كَتِف) من مفردات (خلْق الإنسان) مفهومة معروفة .

ضمن

ومن هذه المادة الفعل (تضامن) والمصدر (تضامن) والفعل والمصدر من المواد التي تشيع في لغة الجيل الحاضر بمعنى (الاتحاد) فيقال مثلا : (إن الأمة بتضامنها تبلغ الآمال) . ومعنى (التضامن) في الفصيح المأثور (التكافل) وبعيد مابين (الاتحاد) و (التكافل) ومادة (ضمن) تعني (كفل) و (الضمين) (الكفيل) . ويبدو من هذا أن (التضامن) بمعنى (الاتحاد) شيء من المولد الجديد الذي جاءت به لغة العصر .

وأكبر الظن أن الذي حمل (التضامن) على معنى (الاتحاد) الخلط بين مادتين هما (تضامن) و (تضامّ) ذلك أن (التضامّ) مصدر الفعل (تضامّ) بتشديد الميم ، وأن المصدر (تضامّ) منوناً يجر إلى الخلط بينه وبين (تضامن) فقد توهمت نون التنوين نوناً أصلية فتولد هذا الخطأ .

اخصائي

يراد بالاخصائي الاختصاصي أو المختص ، والكلمة تستعمل وصفاً لأصحاب

العلوم والفنون فالطبيب الأخصائي هو الاختصاصي بمرض معين وكذلك يقال عن أصحاب العلوم الأخرى . ومن المفيد أن نذكر ان (إخصائي) لايمكن أن تسد سد الاختصاصي ولا يفهم منها ذلك إلا على سبيل شيوع الخطأ . فليس في مادة (خصص) شيء من هذه الكلمة . وإذا أردنا وجه الصواب فلا بد أن نقول : ان (الاخصائي) منسوب إلى (الإخصاء) وفرق بعيد بين (الاختصاص) المطلوب لأصحاب العلوم و (الاخصاء) مصدر أخصى يخصي باعتبار الفعل رباعياً وإن كان الثلاثي (خصى) هو الثابت الصحيح والمصدر خِصاء بالكسر والمد[1] .

رئيسي

والوصف بـ (الرئيسي) معروف كثير في عربيتنا الحاضرة ، يقال : (السبب الرئيسي) و (العنصر الرئيسي) وغير ذلك . والذي أراه أن الوصف بهذه الصفة المنسوبة غير صحيح ، والوجه أن يقال : (السبب الرئيس) دون نسبة (الرئيس) ولا حاجة هنا إلى أن ينسب الشيء إلى نفسه ، وأكبر الظن أن هذه الصفة المنسوبة هي من بقايا ما ورثته العربية من العصور التركية ، لأنه ليس المراد بهذا الوصف المنسوب كونه خاصاً بـ (الرئيس) ، فليس هو مثل الوصف بـ (الأساسي) المنسوب إلى الاساس . وإنما هو مثل قولهم (السبب المهم) .

حياتي

وتساهل أهل هذا العصر في لغتهم حتى ارتكبوا الخطأ فقد نسبوا إلى (الحياة) قالوا (حياتي) دون النظر إلى ألِف الحياة وعلامة التأنيث فيها فكما ينسبون إلى (وطن) ويقولون (وطني) كذلك نسبوا إلى (حياة)

---

(١) جاء في لسان العرب (أخصى الرجل) : تعلم علماً واحداً على سبيل المجاز . (لجنة المجلة)

فقالوا : (حياتي) وكأن (حيوي) ليست نسبة إلى (حياة) وقد بلغ من شيوع الخطأ أن صارت وزارة التربية التي تشرف على صيانة العربية تجعل في منهاج المدارس الابتدائية (العلوم الحياتية) . وربما كان (وحدوي) أخف وطأة من هذا الارتكاب الشنيع .

مصونه

اسم المفعول من (صان) وكأن هذه الكلمة في لغة الجرائد على وزن (فَعول) توهماً على الخطأ ، ومعلوم أن (فعول) يستوي فيها المذكر والمؤنث نحو عجوز وغيره ، ولذا فقد كتبوا في الصحف في الإخبار عن عقد قران مثلا : جرى يوم أمس عقد قران السيد فلان على الآنسة المصون ...!

وقد جر التوهم إلى أخطاء كثيرة ولذلك ينبغي ألا ينصرف الذهن إلى التوهم الذي أحدث مواد لغوية جديدة نحو توهم أصالة الياء في (قيمة) فقالوا في الفعل (قيَّم) بدلاً من (قوَّم) ومثله (عيَّد) من (عيد) .

أما التوهم الذي نباشره فهـــو من الأخطاء نحو توهم الياء أصلية في (يحيك) والذي جر إلى هذا (الياء) في المصدر (حياكة) . ومثله الواو في (سُوّاح) بدلاً من (سُيّاح) والعدول عن الياء إلى الواو في هذا الجمع كان بسبب ضمة السين . التي اجتلبت الواو من أجلها خطأً .

لا زال

من أفعال الاستمرار ومجيء (لا) قبل (زال) الفعل الماضي يمحضها للدعاء كما هو في العربية . قال ذو الرمة :

ألا يا اسلمي يا دار ميّ على البلى ولا زال منهلاً بجرعائك القطر

على أن هذا الدعاء لم تحتفظ به عربيتنا الحاضرة . وان متأدبي عصرنا لا يميزون بين (لا زال) و(ما زال) فيقولون : (لازالت الأنباء تتوارد) .

والانكى من ذلك

وهذا خطأ آخر في استعمال اسم التفضيل ، فالمعلوم ان اسم التفضيل إذا كان محلىّ بالألف واللام لا يؤتى بالمفضل عليه مجروراً بمن ، فالصحيح أن يقال :

(والانكى والأمرّ ، والأدهى) دون الإتيان بالمفضل عليه مجروراً بمن .

ولا حجة بالشاهد النحوي :

ولست بالأكثر منهم حصى   وإنما العزة للكاثر

فقد خرج على أن (من) ليست تفضيلية بل للتبعيض أي : لست من بينهم بالأكثر حصىّ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومعظم الاكتساب تؤكد ...

هذا باب عود الفعل على المضاف إليه وهو غريب في العربية الفصيحة إلا في شواهد سنعرض لها . أما في العربية المعاصرة فهو استعمال شائع . ولغة اليوم في الصحيفة والاذاعة والمقالة الأدبية تعطي مئات الشواهد على ذلك .

أما في المأثور الفصيح فمنه قوله تعالى : (وكنتم على شفا حفرة من النار . فأنقذكم منها) [1] .

وقال جرير :

رأت مرّ السنين أخذن مني   كما أخذ السرار من الهلال

وقال آخر :

وما حب الديار شغفن قلبي   . . . . . .

(١) آل عمران ١٠٣ .

وقال العجاج :

طول الليالي اسرعت في نقضي طوين طولي وطوين عرضي

ما دخلت الدار الا ورأيت الطفل يلهو

هذه جملة صدرت بالنفي ثم جيء بـ (إلا) بعدها وهي متلوة بالواو التي تفيد الحال . وهذه الواو ترد كثيراً في مثل هذه الجملة في لغتنا الحاضرة وربما وجدت في لغة العصر العباسي ولكن لغة التنزيل قد خلت من هذا الاستعمال . جاء في قوله تعالى : (ما تأتيهم آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) [١] وفي قوله تعالى : (وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) . [٢] وفي قوله تعالى : (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) [٣] .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجملة الواقعة في جواب اذا الفجائية

هذه الجملة تكون إسمية وهي في لغة هذا العصر تكون مصدرة بـ (باء) زائدة إذا كان المبتدأ ضميراً نحو : (خرجت فإذا به واقف في الباب) ، وقد خلت لغة التنزيل من هذه الباء في مثل هذا الاستعمال . فقد جاء في قوله تعالى : (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) [٤] وفي قوله تعالى : (فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) [٥] .

---

(١) الانعام ٤ .
(٢) الحجر ١١ .
(٣) الشعراء ٥ .
(٤) الزمر ٦٨ .
(٥) الصافات ١٩ .

اجتماع الشرط والقسم «لئن»

قالوا : ان اللام في «لئن» موطئة للقسم ومعنى ذلك أن الجواب لابد أن يكون للقسم نحو قول الشاعر :

فلئن عفوت لاعفونْ جللا ولئن وهنت لأوهنْنْ عظمي

ثم قال النحويون : وقد جاء قليلا ترجيح الشرط على القسم عند اجتماعها وتقدم القسم ، وان لم يتقدم ذو خبر ، ومنه قوله :

لئن مُنيتَ بنا عن غِب معركةٍ لاتلفنا عن دماء القوم ننتفلُ

أقول : إن هذا الاستعمال غير قليل وترجيح الشرط على القسم عند اجتماعها وتقدم القسم وارد منذ عصور العربية الأولى .

قال عمر بن أبي ربيعة :

لئن كان ماحدّثتَ حقا لما أرى كمثل الألى أطريت في الناس أربعا

وفي العصر العباسي نجد أبا تمام في مثل هذا المقام يأتي شعره على نحو ما أقره النحويون في استعماله «لئن» . قال يمدح محمد بن يوسف الطائي .

لئن عمت بني حواء نفعاً لقد خصت بني عبد الحميد

وعلى هذا جرى في جميع قصائده . غير أن البحتري في جميع قصائده يجعل الجواب في مثل هذا الاستعمال إلى الشرط ، فهو يقول :

لئن صنت شعري عن رجال أعزةٍ فان قوافيه بوصفك أليق

أما في شعر الشريف الرضي فالأسلوبان قد وردا ، فهو يقول :

لئن راب مني مايريب فانني على عدواء الدار غير مريب

وقوله :

لئن فارقتهم وبقيت حيا لقد فارقت أيام الشباب

أما شعراء هذا العصر فهم يجعلون الجواب في مثل هذا المكان للشرط ولا عبرة في هذه اللام الموطئة للقسم .

في الاستفهام

يستفهم كثيراً بـ « ما » وبـ « من » من أدوات الاستفهام . وقد يحصل أن يتوسط ضمير الغيبة المنفصل بين اسم الاستفهام والمستفهم عنه فنقول :

« ماهي المسألة ؟ » و« ماهو السبب ؟ » و« من هو المسئول »
وهذا الأسلوب شائع كل الشيوع في عربيتنا السائرة ، غير أن الاستقراء لايؤيد هذا الاستعمال ، والإيجاز الذي هو صفة العربية في بلاغتها يأبى هذا الحشو . قال تعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها »[1]
وقال تعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي »[2] .

لا يتفق والحالة الراهنة

الواو في هذه الجملة للمعية ومعنى هذا أن الاسم التالي لها منصوب على أنه مفعول معه ، ومثل هذه الجملة كثير غيرها مما يكون فيها الفعل دالاً على المشاركة . وهذه الأفعال لا يمكن أن تأتي بعدها واو المعية وانما تتمحض هذه الواو الى العطف . واذا صح العطف فلا يمكن عطف اسم ظاهر على ضمير مستتر وانما يجب أن يؤكد هذا الضمير المستتر بضمير منفصل حتى يتم العطف نحو :

(لا يتفق هو والحالة الراهنة) . ولكن الجملة كما أثبتناها في أعلاه شائعة في لغتنا الحاضرة .

وبعد فهذه جملة مواد أجريتُ فيها تحقيقات لغوية لأسجل شيئاً من التاريخ اللغوي وكيف يعرض له التبدل والتطور سلباً وإيجاباً .

الدكتور ابراهيم السامرائي

(١) البقرة ٦٩ .
(٢) البقرة ٦٨ .

الوهراني ورقعته

عن مساجد دمشق

كان عصر نور الدين محمود بن زنكي (المتوفى سنة ٥٦٩ ﻫ) بداية العصر الذهبيّ الثاني في تاريخ دمشق. فبعد عصر الأمويّين (٤٠ – ١٣٢ ﻫ)، لم تشهد هاذه المدينة حقبة أكثر ازدهاراً. ورخاءً، وأشدّ قوّة، وأحفل بالأمور الجِسام والحوادث الكبار، من عهد نور الدين والأيوبيين (٥٤٩ ﻫ – ٦٤٨) .(١)

في هاذا العصر الذهبيّ الثاني كانت دمشق قبلة الأنظار تهوي اليها أفئدة الناس من كل حدب وصوب، من المدن القريبة، والبلدان القاصية .(٢) وقد استهوت ألباب المغاربة والأندلسيّين خاصة فسارعوا اليها، وقالوا: «إنْ كانت الجنّة في الأرض فدمشق لا شكّ فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تسامتُها وتحاذيها»، (٣) بل أوصوا بقصدها

(١) عن هاذه الحقبة انظر كتابنا «دمشق في القرن السادس الهجري» والمصادر المذكورة فيه.

(٢) انظر مثلاً مقالتنا «دار الحديث العروية بدمشق»، في مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد ٢٩، الجزء الثاني؛ وجزء من الفوائد المنتقاة عن أبي العباس محمد بن يعقوب الأصم (مخطوط في الظاهرية، مجموع ٢٨، الرسالة الخامسة، ورقة ٥٦ آ).

(٣) القول لابن جبير، الرحلة ص ٢٣٥ (طبعة صادر، بيروت ١٩٥٩).

والسكنى فيها[١]. فزارها بعضهم زورة قصيرة تبرّكاً بها وبمشاهدها، أو أخذاً للعلم عن علمائها. وحلا العيش فيها لآخرين منهم وطاب، لِما وجدوه من إنعام، وإكرام، وترحاب، فأقاموا بها، واتخذوها وطناً. [٢]

فمِن هؤلاء المغاربة الذين رحلوا الى دمشق وأقاموا فيها محمد بن محرز بن محمد الوهراني[٣]. كان أديباً صناعته الإنشاء. أقدمُ مَنْ ترجم له هو القاضي ابن خلّكان قال عنه إنه «أحد الفضلاء الظرفاء، قدم من بلاده الى الديار المصرية في أيام السلطان صلاح الدين – وفنُّه الذي يتُ به صناعة الإنشاء. فلما دخل البلادَ ورأى بها القاضي الفاضل وعماد الدين الاصبهاني الكاتب وتلك الحلبة علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم، ولا تنفق سلعته مع وجودهم، فعدل عن طريق الجد، وسلك طريق الهزل ...» [٤].

فيُفهم من قوله أنّ الوهراني عدل عن طريق الجد بعد أن لقي العماد والفاضل عند صلاح الدين بمصر.

وهاذا الكلام يحتاج الى تصحيح. فسلوك الوهراني طريق الهزل كان قبل أن يصبح صلاح الدين سلطاناً. لأنه كتب كثيراً من مقاماته الهزلية ورسائله في أيّام نور الدين بدمشق كما سنرى. ولم يجتمع العماد والفاضل بمصر إلا بعد موت نور الدين.

(١) ابن جبير يقول: «فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل الى هاذه البلاد» الرحلة، ص ٢٥٨.

(٢) لزيادة التفصيل انظر كتابنا «دمشق في نظر المغاربة والاندلسيين».

(٣) وهران بلدة معروفة في المغرب الأوسط (الجزائر اليوم).

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٤ : ١٩ (طبعة محيي الدين عبد الحميد)؛ وقد تابع ابن خلكان على ما قال كل من ترجم بعده للوهراني.

ثم إن مجيئه من بلاده الى الشرق لم يكن في أيام صلاح الدين ، بل كان أيام نور الدين . وقد وصفه في إحدى رسائله عندما سئل عنه وهو في بغداد ، فقال عنه « سهم للدولة سديد ، وركنُ للخلافة شديد ، وأمير زاهد ، وملك مجاهد ، تُساعده الأفلاك وتخدمه الجيوش والأملاك . »(١)

وعجيب أن يخطيء ابن خلـّكان مثل هاذا الخطأ ، والأمر واضح ، على تتبعه وشدّة تحرّيه . وقد تبعه فيه الصفدي في « الوافي »(٢) فقال : « قدم من المغرب الى مصر وهو يدّعي الانشاء فرأى الفاضل والعماد ... »

والذي عرفناه عن سيرته ، بعد مطالعة آثاره المخطوطة ، خاصةً أنه زار دمشق في أيام نور الدين واتصل به (٣) . وأنه مرّ بصقلية ، وزار بغداد . ثم اتخذ دمشق داراً واستوطنها . وكان نور الدين شديد العطف على المغاربة ، فوُجِّهت اليه خطابة مسجد داريّا . فبقي فيها . وقد زار مصر . وترجّح أنه زارها بعد وفاة نور الدين . وعاد الى دمشق ، وبقي في داريّا حتى توفي سنة ٥٧٥ هـ ، أيام صلاح الدين . ودُفن على باب تربة أبي سليمان الداراني (٤) . وله رسالتان كتبها الى صلاح الدين « يتوقّع نظرة من سعوده ، أو درّة من نجار وعوده »(٥) .

---

(١) الوهراني ، جليس كل ظريف (مخطوطة جامعة برنستن ، ورقة ٤ آ) ؛ وأبو شامة الروضتين ٨٤/٢ (ط حلمي) .

(٢) الصفدي ، الوافي بالوفيات ٤ : ٣٨٦ (تحقيق ديدرنغ) ؛ وانظر أيضاً مثل هذا القول عند الزركلي في الأعلام ٢٤١/٧ ، وكحالة في معجم المؤلفين ١٧٤/١١ .

(٣) يذكر الوهراني في « منامه » الكبير حادثة وقعت في دمشق لأحد من يذكرهم ، في دار الفوّارة بجيرون ، في شهور سنة ٥٥٣ هـ .

(٤) ابن خلـّكان ، المصدر السابق . وعن داريا وأبي سليمان ارجع الى تاريخ داريا للخولاني .

(٥) جليس كل ظريف ، ورقة ٢٢ آ ـ ب .

استطاع الوهراني أن يجذب القلوب اليه . فقد كان « ظريفاً خفيف الروح » ، وكان بارعاً في الهزل والسخرية . فصبّ سخريته وتهكمه على كبار علماء دمشق وفقهائها وأطبائها وكُتّابها كالتاج الكندي ، والمهذّب ابن النقّاش ، والقاضي الفاضل ، والقاضي ضياء الدين الشهرزوري ، والقاضي ابن أبي عصرون ، وغيرهم . ولم يسلم من لسانه وقلمه علماء مصر ورجالها أيضاً ، كالخبوشاني ، وابن عمّاتي . فألّف رسائل هزلية مختلفة . وابتدع فن المنامات الأدبيّة . وقد شُهر « منامه » الكبير « الذي سلك فيه مسلك أبي العلاء في رسالة الغفران » [1] ، و « جمع فيه أنواعاً من المزاح والأدب » [2] . فتخيّل أنه رأى في المنام كأن القيامة قامت . ومنادياً يُنادي : هلموا الى العرض على الله . فخرج من قبره حتى بلغ أرض المحشر . فلقي هناك كثيرين ممن عاصره وعرفه ، أو مات قبل . فسخر منهم جميعاً وذكر ما حوسبوا عليه .

وقد جمع في كتابه « جليس كل ظريف » الكثير من رسائله ومناماته وفصوله الهزلية . [3]

والذي يُطالع آثار الوهراني هاذه تبدو له براعته في التهكم والتصوير الهزليّ . كان لا يتورع عن السخرية بنفسه . متخيّلاً ما يقوله أعداؤه عنه . وصف القاضي الفاضل فقال : « فلم أشعر إلاّ والحائط قد انشقّ ، وخرج منه شخصٌ عجيب الصورة ، ليس له رأس ولا رقبه ، وإنما وجهه في صدره ، ولحيته في بطنه » [4] ووصف مجلساً ضمّ القاضي الشهرزوري ،

---

(١) الصفدي ، المصدر السابق ، ص ٣٨٧ وقال : « لكنه ألطف مقصداً وأعذب عبارة » .

(٢) الذهبي ، العبر في خبر من غبر (بالغين المعجمة) ٢٢٦/٤ (تحقيقنا) .

(٣) وفي دار الكتب المصرية مجموعة من رسائله أيضاً . انظر فهرس دار الكتب ١٦٢/٣ ؛ وبروكلمن ، الذيل الأول ص ٤٨٩ .

(٤) من رسالته الى مجد الدين ابن المطّلب . وتصوير الوهراني هذا أبرع من هجاء ابن عنين للقاضي الفاضل وسخريته بحدبته .

وابن النقّاش ، وابن العميد ، جرى فيه حديث المغاربة الذين يأتون من الغرب الى الشام ، ومنهم هو نفسه فقال :

« فيقول ابن العميد : ضيّعتم الوقت في حديث الوهراني ، والله إن مُلْك المغرب نحس . ما جاءنا قطّ منهم إلاّ حارس كرم ، أو ناطور بستان [مع] الركوة والتاسومة ، وهاذا الوهراني من بينهم ، شهد الله ، أثقل على القلوب من الغدّة الخارجة في الحلق ، وأوحش من الورم النافر في الأوداج . فيندفعُ حينئذٍ ابن النقّاش بفلسفته فيقول : اللهم العن الوهراني من الجهات الستّ ، اللهم العن ما يُقابل الوهراني من الأوج الى الحضيض . اللهم العن الهيولى التي شاركت العناصر في تكوينه . والله ما أعرف في مقعر فلك القمر ، ولا على مُحدودَب هاذه الكرة الترابيّة شرّاً من ذلك الخبيث . . .

« فيقول أبو المعالي ابن العميد بفصاحته : بالله عليكم اقصروا واقتصروا ... ما للوهراني عرض يُثلم ، ولا مجد يُهدَم . وهو دون كل ما ترموه (كذا) به ، وإن اشتغالكم الوقت بحديثه يُضيع الزمان ، فإنه لا يصلح إلاّ لحمل المِشْعَل ، أو لنظارة القنّبيط . والمصيبة أنه مع هاذا يتَمَسْكَنَب ويتَمَشْعَر ، ويعمل أشياء تشبه جوف لحيته . . .

« ثم يشرع يجلو محاسن نفسه ، ويُظهر فضيلته التي تقدّم بها على الأقران فيقول : يا غلام ! اغسل حلوقَ القوم من ذكر الوهراني بشيء من الكمثرى : العَيْلاني ، والسُكَّري ، والعُثْماني ، والسمرقندي ، والخلاّني ، والعزّي ، والبيطاري ، والدينَوَري ، والبردي ، والديحوري ، والخنافسي ، والحدوني ، والصقلابي ، والمعنّق ، والملكي ، والذهبي ، والرحْبي ، وشيء من التفاح : البطيحي ، والبدمدى (كذا) ، والبربري ، والنبطي ، والصيفي ، والخشخاشي ، والفضّي ، والحلواني ، والجنابي ،

والقحابي ، والهامي ، والفتحي ، والحديثي ، والقبتلمامي ، واللبناني . . . (١)

« .. ثم يقعوا (كذا) في هاذا الوادي من الحديث ، فيشتغلوا (كذا) عن ذكر وهران » .

« هاذا إن صدق ظنّ الخادم وتخيله ، فالأمر يجري على هاذه الصورة »(٢).

وكتب الى رجل اسمه قسيم الأعور رسالة ، كلها سخرية ، خاطبه فيها بقوله:

« يا مولاي الشيخ الزاهد ! دبّوس الإسلام ، لتّ الشريعة ، قنطارية العلماء ، باقوروت (كذا) الائمة ، طبل باز السنّة ، نصر الله خاطرك ...! »(٣)

ووصف بعض ألفاظ قصيدة قالها التاج الكند ، في رسالة كتبها اليه ، فقال :

« ... ألا ترى أنها لا ينطق بها اللسان حتى ينخلع منها الفكّ ، مع ما فيها من التدقفرم (كذا) ، والرقاعة المعجونة بالتبظرم ، ولأجل ذلك جاوبتْها الألسن بأنواع من الضـ...»(٤).

وهاكذا نرى من النصوص التي سقناها أن الوهراني كان « صاحب دعابة ومزاح » على حد قول الذهبيّ ، وأنه « ما سلم من شرّ لسانه أحد

(١) هذا التعداد لأصناف التفاح والكمثرى ذو شأن كبير لمعرفة ما كان يوجد منها في دمشق أيام الأيوبيين . وما زال بعض هذه الأصناف موجوداً حتى يومنا . وقد تعمدنا نقل النص لمعرفتها وفي معجم الألفاظ الزراعية أن شجر الكمثرى اسمه Poirier بالفرنسية وهو الصحيح . وهـذا مدلول الكمثرى في مصر أما في الشام فيسمونه إجاصاً على حين أن الإجاص في اللغة هو ال Prunier بالفرنسية والبرقوق في مصر .

(٢) جليس كل ظريف ، ورقة ٣٣ آ ــ ٣٥ ب ، من رسالته إلى الأمير شمس الدين ابن الوزير البعلبكي .

(٣) جليس كل أنيس ، ورقة ٣٧ ب ، والأسماء المذكورة كلها أسماء لضروب السلاح .

(٤) المصدر السابق ، ورقة ١٧ ب .

ممن عاصره » ، على قول الصفدي . وأنه كان كاتباً في الهزل والسخرية والتهكم ، مقبول الكلام خفيف الروح ، على ما عنده من لذع وحدّة .
وهو ثاني اثنين سلّطها الله على أهل دمشق ايام الأيوبيين : ابن عُنَيْن في « مقراض الأعراض » شعراً ، وهو في « رسائله » و « منامه » نثراً .

ونعتقد أن السبب الذي دعاه الى اتباع هاذا الطريق هو طلب المال . فقد كان يسعى إلى جمعه . يحدثنا هو عن نفسه فيقول :

لما تَعذَّرَتْ مآربي ، واضطربتْ مغاربي ، ألقيتُ حَبْلي على غاربي ، وجعلتُ مذهبات الشعر بضاعتي ... فما مررتُ بأمير إلاّ حللتُ ساحته ، واستمطرتُ راحته ، ولا بوزير الاّ قرعتُ بابه وطلبتُ ثوابه ، ولا بقاضٍ إلا أخذت سيْبه ، وأفرغتُ جَيْبه ... » (١)

فهو يستمطر راحة الأمراء ، ويطلب ثواب الوزراء ، ويُفرغ جيوب القضاة .

ولم يغمز الوهراني نور الدين إلاّ لأنه كان لا يُعطي الأدباء والشعراء الأموال . فقد قال عنه : « عُرِف بالمَحْلِ الجديب للشاعر الأديب . فما يُرزَى ولا يُعتَرّى ، ولا لشاعر عنده من نعمة تُجزَى » (٢) .

وكيف كان أمر الوهراني فيا ابتغاه من سخريته ، فإنه يكاد يكون نسيج وحده في أدبنا العربي ، فيا كتب . وهو جدير بدراسات واسعة تُكتب عنه . وآثاره المخطوطة ينبغي أن تنشر .

---

(١) جليس كل ظريف ، ورقة ١ ب .
(٢) انظر الروضتين ٢/٨٤ (نشرة محمد حلمي) وقد أخطأ المحقق في ضبط اسم الوهراني ، فجعله يحيى بن محمد !

– ٢ –

أما الرقعة التي ننشرها ، والتي مهدنا لها بما ذكرناه ، فهي من مضمونات كتابه « جليس كل ظريف » . وهو كتاب نادر حلو وجدناه في مجموعة يهودا المخطوطة ، بجامعة برنستن بالولايات المتحدة الأميركية ، وهو محفوظ فيها (برقم 665 .ah /١) . ولم يعرف بروكلمن هذه المخطوطة .

وقد رأينا نشر هذه الرقعة لأنها من النصوص المتعلّقة بتاريخ مدينتنا دمشق ، وخاصة بتاريخ مساجدها . وخلاصتها أن مساجد دمشق والضياع التي من حولها أصابها في زمن نور الدين الخراب والضّياع . فاجتمعت هاذه المساجد ، ولجأت الى أميرها وسيدها جامع بني أمية . وكتب لها جامع النيرب قصة قدّموها اليه . ذكر فيها ما تلقاه المساجد من جور العمال ، ونهب الوقوف ، وخراب الحيطان والسقوف . ثم تكلّم جامع المزّة ، ثم مشهد برزة . فلما استمع مسجد دمشق الى الكلام أشار أن يكتبوا شكواهم الى قاضي القضاة أبي سعد بن عصرون . فقرأها وكتب على ظهرهـــا هجاء لمسجد دمشق . فغضب المسجد ، ورفع شكواهم مع شكواه الى الملك الزاهد نور الدين . فلما وقف نور الدين على ماكتبوا اهتمّ فأصلح أحوال المساجد . وعزل ابن عصرون .

هاذه خلاصة الرقعة . ومن الممكن أن يكون الوهراني قد كتبهـــا لعلمه بحالة المساجد يومئذ ، وقد كان – كما مرّ بك – خطيباً في مسجد داريّا . ولعله كتبها ودسّها الى نور الدين نفسه ، فكانت بعدها عنايته بإصلاح المساجد وتطييبها مما ذكر أخباره أبو شامة وابن كثير وابن واصل ، وسبط ابن الجوزي ، وابن قاضي شهبة ، وغيرهم فقد تقدّم بإحصاء ما في محال دمشق من المساجد الخراب فأناف على مئة مسجد ، فأمر بعمارة

ذلك كله . وعيّن له وقوفاً .(١) ورأى جامع دمشق داثراً فأتى بالقاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوريّ الموصليّ فولاّه قضاء قضاة دمشق ، وولاّه نظر الجامع فأصلح أموره . وكذلك وقف نور الدين عليه أوقافاً لتطبيبه . وذكر العماد الاصبهاني أنه عمر في سنة ٥٦٥ هـ جامع داريّا ، ومشهد أبي سليمان الداراني (٢) ، الى غير ذلك ، مما يدلّ على سوء حالة المساجد وصدق ما في الرقعة .

وتشير الرقعة أيضاً الى أن نور الدين عزل ابن عصرون بسبب إهماله المساجد . وابن عصرون هاذا هو شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد ابن أبي عصرون الموصلي المتوفى سنة ٥٨٥ هـ . قدم الى دمشق لما فتحها نور الدين سنة ٥٤٩ هـ فدرّس بالغزالية وولي أوقاف المساجد ثم سافر الى حلب ، ثم عاد الى دمشق بعد وفاة نور الدين ، سنة ٥٧٥ هـ . وهو الذي تنسب اليه المدرستان العصرونيتان بدمشق وحلب .(٣)

ولم يذكر ابن خلّكان ، ولا ابن كثير ، ولا ابن العماد صاحب الشذرات ، سبب تركه نظر أوقاف المساجد ، وهذه الرقعة تفيدنا في معرفة السبب .

وها هوذا نصّ الرقعة :

---

(١) ابن واصل ، مفرّج الكروب ٢٨١/١ ؛ ابو شامة ، الروضتين ١١/١ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٢١٢/٨ ؛ البدر ابن قاضي شهبة الكواكب الدريّة (مخطوط) .

(٢) ابن كثير ، البداية ٢٦١/١٢ ؛ النعيمي ، الدارس ٤٣٢/٢ . الأول نقلاً عن العماد ، والثاني نقلاً عن البدر ابن قاضي شهبة .

(٣) ابن خلّكان ، وفيات ٢٥٦/٢ (ط . محيي الدين عبد الحميد) ؛ وانظر الدارس ٣٩٨/١ .

نسخة الرقعة التي رفعها المساجد

الى جامع دمشق

لما تحكّمت يدُ الضّياع في مساجد الضّياع ، وأرتج بابُ العدل وأُغلق ، ونُبذَ كتابُ الله وخَلَق ، فزعت المساجدُ إلى جامع جِلّق ، وهو يومئذ أميرُها ، عليه مدارُ أمورها . فلما وصلوا إلى بابه ، واجتمعوا تحت قبّته ومحرابه ، كتب لهم جامعُ النّيْرَب قصّةً اليه ، وتوصّلوا إلى مَنْ عَرَضَها عليه . فكانت الرقعةُ مسطورةً على هاذه الصورة (١) .

« المماليكُ مساجدُ الكورة يُقبّلون الأرضَ بين يديْ الملكِ المعظم ، البديعِ الرفيعِ المكرّم ، كهفِ الدين ، جمال الاسلام والمسلمين ، بيتِ الأتقياء والصالحين ، مدفنِ الأنبياء والمرسلين ، مَعْبَدِ المِلّتَيْن ، صاحبِ الدولتيْن ، بُنْيَةِ أمير المؤمنين ، أعلا الله منارَه ، وأيّد أنصارَه ، وعَمَرَ بالتوحيد أقطاره .

(١) انظر جليس كل ظريف ، ورقة ٥ ب - ٧ ب .

« ويُنْهون اليه ما يُقاسونه من جَوْرِ العُمّال ، وتضييعِ الأعمالِ ، ونَهْبِ الوقوف ، وخرابِ الحيطان والسقوف .

قد ألِفَهُم الظُلْمُ والظلام ، وأنكرهم المؤذّن والإمام ، فلا يُسمعُ فيهم إلاّ أذانُ البوم ، وتسبيح الغيوم . قد ركعتْ أركانُها ، وسجدتْ سقوفُها وحيطانُها ، تبكي عليها النواقِس ، وترثي لها البِيَعُ والكنائس .

« يا ويح مَنْ يرثي له الشامتُ »

وقد فَزِعْنا ، أيها الملك ، إلى بابك ، وأوَيْنا تحت جَنابك ، فافعلْ بنا ما هو أوْلى بك .

والسلام . »

فلما وقف على هـــذه الحكاية ، وفهم مُقتضىٰ الكناية ، استوى جالساً في مقعده ، وضرب بيده على يده ، وقال : كيف وأنّىٰ ، أمْ للإنسان ما تمنّى ، ثم رفع رأسه وغنّى :

« وما شَرِبَ العُشّاقُ إلاّ بقيّتي
ولا وردوا في الحب إلاّ على ورْدي »

ثم أشرف على إيوانه ، بين حَفَدَته وأعوانه ، وأقبلَ يُقلِّبُ

طَرْفَه في الجموع ، ويكفكف انسرابَ الدموع ، لِما يرى من اختلالهم ، وفسادِ أحوالهم .

فابتدر جامع المزّة للمقال ، فتقدّم بين يديْ الملك وقال :

« الحمد لله الذي قضى علينا بالخراب ، وصيّر أموالنا كالسراب ، وجعلنا مأوىً للبوم والغُراب .

« أحمَدُهُ حَمْدَ مَنْ كان فقيراً ثم استغنىٰ ، وأدرك بمالِ الوَقْفِ ما تمنّىٰ . وأشهدُ أنْ لا إله إلاَّ الله ، وَحْدَهُ لا شريكَ له ، شهادةَ عالمٍ عاملٍ ، متحمّلٍ لثقل الأمانة حامل ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُه ، الصادقُ الأمين . صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الطيّبين الأكرمين .

« أما بعدُ أيُّها الملكُ السعيد ، ثبّت اللهُ قواعد أركانك ، وشيّد ما وَهىٰ من بنيانك ، فإنّ الخراب قد استولى على المساجد ، حتى خَلَتْ من الراكع والساجد ، وأصبحت جوامع الغوطة غيطان ، لا سقوفَ لها ولا حيطان . ومشاهدُ البقاع[1] ، صفصفاً كالقاع ، ومساجدُ حوران مخازن وأفران ، فكم بُنيـــة لعب

(١) يشير الى البقاع العزيزي ، في لبنان اليوم .

الجوْرُ بأربابها ، ونَسجَ العنكبوتُ على بابها ، وكم بيوت لله غلّقت دون أصحابها ، فَعَشْعَشَ الحمامُ في محرابها . ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فيها اسْمُه وسَعىٰ في خَرَابِها ﴾[1] . وقد دُخِلَ أيها الملك على الوقوف ، بحجّة العمارة والسقوف . فاتفقَتْ علينا الأهواء ، واختلفتْ فينا الامطارُ والأنواء ، فلا يزال المسجدُ يَنْهار ، وتأخذُهُ السيولُ والأنهار ، حتىٰ يُمحىٰ رسْمُه ، ولا يبقىٰ منه الا اسْمُه . وأنتَ ، أيُّها الملكُ ، عمادُنا ، واليك بعد الله معادُنا ، فالتَفِتْ الى حالنا ، وانظرْ في صلاح مآلنا ، يُصْلِح اللهُ أحوالك ، ويُسَدّد في الخير أقوالك وأفعالك . والسلام » .

ثم جلس .

فقال الملك : هاؤلاء المساجد ، فما بالُ المشاهد ؟

فبرزَ مشهدُ بَرْزَةَ متوكئاً على مسجد الاَرْزَة ، وهو يُصلصلُ ويصول ، ويلطمُ وجهه ويقول :

---

(١) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ١١٤ .

« كلّما حاولتُ أشكو قصّتي
لا أُلاقي غَيْرَ ذي قلبٍ جريح
يتشكّىٰ مثــلَ شكوايَ له
يا لقومي ما عليهـا مستريح ! »

« أمّا بعدُ ، أيها الملك السعيد ، أدام الله جمالَك ، وبلّغك في العدوّ آمالك ، فإنّ مقام ابراهيم أصبح في كلّ وادٍ يهيم ، ومغارةَ الدمّ ، لا تستفيقُ من الندم ، ومسجدَ الكهف ، لا يَفْتر من اللهف ، وقبرَ شيث ، قد استأصله الخبيث . وقبرَ نوحٍ ، يبكي وينوح ، وقبر جيلة مالنا فيه حيلة ، وقبر الياس تعوّضنا عنه بالّياس . وأمسَتِ المشاهدُ كأربابها ، وأصبحت رسماً كأصحابها . قد محتْها العوادي ، وحدا بها الحادي :

« جَرَتِ الرياحُ على رسومِ ديارهمْ
فكأنّما كانوا على ميعــادِ »

فقال الملكُ : رُبَّ طارقٍ على غير وعد ، وفي كلّ وادٍ بنو سعد .

ثم تنحنح عجبا ، وحرّك رأسه طَرَبا ، واستفتح المقال بأن قال :

« الحمدُ لله الذي لا يحمدُ على المكروه سواه . نَصَب العدلَ وسوّاه ، وأمدّه بعونه وقوّاه . فمَنْ أضلّ ممن اتّبع هواه ﴿ وأضلّه اللهُ عَلىٰ عِلمٍ ، وَخَتمَ عَلىٰ سَمْعِهِ وقَلْبِهِ ،وَجعَلَ على بَصَرِهِ غِشاوة ، فَمَنْ يَهْدِيه مِنْ بَعْدِ الله ﴾ (١) .

« أحمدُه على ما رزقني من الاحتمال ، وأشكرُه على ذهابِ العِرْضِ والجاه والمال . وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله ، وحدَه لا شريك له ، شهادةَ مَنْ أعطى الأمانةَ حقَّها ومُسْتَحقَّها ، وأنّ محمداً سيّدُ الأوّلين والآخرين رسولُ الله .

« أما بعد ، يا معشرَ المتكلّمين ، وطائفةَ المساجد المتظلّمين ، فإنه والله ما يصلُ اليكم من الجوْر إلا ّما يفضُل عني ، ولا ينتهي اليكم إلا ما يُستعار مني . ولولا أنّ أركاني سليمة ، وبُنْيَتي قديمة ، لأصبح جامع بني أمية ، يغنّي : يا دار مَيّة .

« وقد والله شرِقتُ بغصّتكم ، وحِرْتُ في قصّتكم ، إنْ رفَعْتُ أمركم إلى الملكِ العادل (٢) ، ردّكم إلى الشيخ العالم

(١) اقتباس من سورة الجاثية ، ٤٥ ، الآية ٢٣ .

(٢) يعني نور الدين .

العامل [١]، فلا يرعىٰ لكم حرمة، ولا يراقب فيكم إلاً ولا ذمّة،

«شكوىٰ الجريحِ إلى الغِرْبان والرَّخَمِ»

والرأيُ عندي أن تكتبوا للشيخ قصة، ولا تتركوا في صدوركم غصّة، وأن تجعلوا في الكتاب أنواعاً من العِتاب، فإن التأم رأيه برأيكم، وإلاّ فالسلطان من ورائكم.

«أقولُ قولي هاذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم.»

فنادوا بالغلام، فأتى بالدواة والأقلام، فقال: استَعِذْ بالله من الشيطان الرجيم، واكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

«من ملك الجوامع بجيرون الى أبي سعد بن عُصْرون [٢]

«لقــد أسمعتَ لو ناديْتَ حيًّا

ولاكنْ لا حياةَ لمن تُنادي»

«أما بعدُ يا غدّار، فقد هيّجتَ الألم، وأبهمتَ الظُلَم، ومن استرعىٰ الذيب فقد ظلَم. طالما تغاضَينا عن خياناتك، حتى اكتنَزْتَ الأموالَ وادّخرْتَها، وجَمعْتَ الذخاير واعتزلتَها.

(١) يعني ابن أبي عصرون.

(٢) كذا مشكولة في الأصل بضم العين.

أَمِنْ أجلِ هاذا كانتْ سياحتُك ، وبسببه كانت نياحتُك ؟ ولأجله كنتَ تسيح وتصيح ؟ حتى غَبَطَكَ المسيح . لقد عجبتُ أيها الشيخُ من مُحَالِك ، في ابتداء حالِك ، ومن فسادِ أمرِك عند آخرِ عُمرِك ، صَلَّيْتَ بالمسوح والقَيْد ، حتى ظفرتَ بأنواع الصَّيْد ، وتقلَّدتَ بالقرون والعِظام حتى تقلَّدت الذنوب[1] العِظام . إنْ كنتَ في هاذا العمل ، إلاَّ كما قيل في المَثَل :

«صَلَّى وصَامَ لأَمْرٍ كان يأملُهُ
حتى حواه ، فما صَلَّى ولا صاما »

« فعرِّفني ، أيها الشيخُ المفتون ، والبايع المغبون ، لِمَ بعْتَ الباقية بالفانية ، والقاصية بالدانيه ؟

إنْ فعلتَ ذلك إلاَّ لعلَّة ، أو لتحقيق ملَّة ، إمّا أن تكون استطَبْتَ السكباج ، واستَلْنْتَ الديباج ، وإما أن نصدِّق أهلَ الأحقاد ، في أنكَ نُصَيْرِيٌّ في الاعتقاد . لا تقولُ بالنجعة ، ولا تصدِّقُ بالرجعة . وكِلاهُما أنتَ فيه مَلُوم ، ومُعاقَبٌ

(١) في هامش الأصل : خ « الأمور » .

وَمذموم . وحسبُك قد بلغني ما أنتَ عليه من قِلة الوفا ، مع هاؤلاء الضُعَفا . فاحسمْ عنهم أذاهم ، ولا تُمَكِّنْ منهم أعداهم . والسلام » .

فلمّا وَصلت الرقعةُ اليه ، وقرأ ما قد انطوَتْ عليه ، ﴿ فَكَّرَ وقَدَّرَ ، فقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثم قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَر ، ثُمَّ عَبَس وبَسَر ، ثُمَّ أدْبَرَ واستَكبَرَ ﴾ (١) وشتم المساجدَ وبانيها ، ولَعَن المشاهد وقانيها ، وقَلَبَ الرقعةَ وكَتَبَ فيها :

وَصلَتْ رقعتُك ، أصلحك الله ، كأنها ضربةُ مَوتور ، أو نفثةُ مصدور ، تَخلطُ فيها الهزلَ بالجدّ ، وتُبدي غيْظَ الاسير على القدّ . وأيمُ الله ، لقد فَرَيْتَ بَرِيّا وقذفتَ سَرِيّا ، وجئت شيئاً فَرِيّا . فاشْدُد من عِقالك ، وتأيد في مَقالك ، فما كُلُّ شخص يُذَمُّ شكلُه ، ولا كُلُّ طائرٍ يجوزُ أكلُه ، وما كُلُّ بيضةٍ شحمة ، ولا كلّ سوداء فحمة . ولو كان لكَ عَقلٌ يهديك ، لوارَيْتَ أُوارَكَ ، ولستَرْتَ عُوارَكَ . أليس قد اشتهر عند الداني والقاصي ، بأنك قطبُ المعاصي ؟ حتى لقَبوك : بسوق الفسوق ، وميدان المردان ، ورِحاب القِحاب ، وحتى قال فيك الشاعر :

---

(١) اقتباس من سورة المدثر ، ٧٥ ، الآيات ١٨ – ٢٢

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

« تجنّبْ دمشقَ ولا تأتِها
وإن راقكَ الجامعُ الجامعُ
فسُوقُ الفسوقِ به قائم
وفَجْرُ الفجورِ به طالِـــعُ »

لا جَرَم أنّ الله قطعَك بالطريق ، وعاقبك بالحريق ، وعَذّبك بالنيران ، وقَرَنَك بشَرّ الجيران ، وجعل المِيَضَ على أبوابك ، والزُطّ في قبلة محرابك . وجعل خطيبك أفوهَ دايصا ، وإمامَك أعمى ناقصا . فلو أنك البيتُ المعمور لهُجرتَ ، أو بيتُ مَكّة لما حُجِجتَ . فتوقّفْ عند مقدارِك ، وانظر في ايرادِك وإصدارك . والسلام . »

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فلما وقف الجامعُ على رقعته ، ورأى ما فيها من رقاعته ، قام وقَعَد ، وأبرَقَ وأرعد ، وقال : اكتب يا غلام :

« باسم الملك العلاّم
منَ ٱلعاتبِ الواجد ، إلى الملك الزاهد .
قال الحائطُ للوَتد : لِمَ تشقّني ؟
قال : سَلْ مَنْ يَدُقّني .

أمّا بعدُ ، أيّها الملكُ العادل ، أدام الله أيامك ، ونَشَرَ في

الخافقَيْن أعلامك . فقد طاوَلتَ بعدلِكَ القَمَرَين ، وسِرْتَ سيرةَ العُمَرَين، فإنّ الله شرّف بُنْيَتي وحَرَمها ، وطهّر بُقْعَتي وكرّمها .

طالما زوحمتُ بالمناكب لمّا كنتُ هيكلاً لِلْكواكب .

وكمْ أمسيتُ مِشكاةً للأنوار وبيتاً لِعَبَدَةِ النار .

ثم انتقَلْتُ الى اليهود بَعْد انقِراضِ مِلّةِ هود ، فتأنستُ بالزبور ، وبالأنبياء في القبور .

ثم جاءتْ دولةُ الصلبان ، فقرّبتُ بالقربان ، ومعاشرة الرهبان.

ثم جاء الإسلامُ ، فتشرّفتُ بدين سيّدنا محمّد عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فأنا المعظّم في كل زمان ، والمقدّم في كلّ قِران .

وكيفَ يَسَعُكَ ، أيدك الله ، التغافلَ عن حالي ، والتحسين لنهب أموالي ، ويَدُك مبذولة في البلاد ، ومتحكمة في رقاب العباد ؟ وأيُّ شيء يكونُ جوابك يوم النشور ﴿ إذا بُعثِر ما في القُبُورِ ، وحُصِّلَ ما في الصُّدُور ﴾ [(1)] . وقد أوقفتُكَ موقفَ الذليل بيْن يَدَيْ الملكِ الجليل ، وأقولُ لَكَ : أيْ ربِّ ! سَلْ هاذا لِمَ أهمَلَني ، وسلّمني لِمَنْ أكلني ؟ فلا تردّ

(١) اقتباس من سورة العاديات ، ١٠٠ ، الآية ٨ ، ٩ .

جواباً ، ولا تحيرُ خطابا ، ولا آخذُ منك ضميناً ولا كفيلاً ، ولا أقبلُ عنك شفيعاً ولا وكيلاً . فتقول : ﴿ يا لَيْتَني اتَّخذتُ مَعَ الرَّسولِ سَبيلا . يَا وَيْلَتَىا ، لَيْتَني لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَليلاً . لَقَدْ أَضَلَّني عَنِ الذكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءني ، وَكانَ الشَّيْطَانُ للإنسانِ خَذُولا ﴾[1] .

فَقَدِّم ، أيها الملك ، لِنَفْسِكَ ما تجدْه غداً في رَمْسِك . وخُذْ هاذه التذكرة بالحساب ، قبل يوم الحِساب ، تبرأ من التباعة ، وتدخلْ في أهْلِ الشفاعة .

والسلام على مَنْ عَمَّرَ مساجدَ الاسلام ، ورحمة الله وبركاته » .

فلما وقف نور الدين على كتابه ، وتجرّع أليم عتابه ، التفتَ إلى المساجد ، فرثى لهم ، وسَدَّدَ أحوالهم ، وأسرَّها يوسف في نفسه ، ولم يُبْدِها لهم .

ثم نظر الى ابن عصرون فأنزله واعتزله ، وحجبه عن بابه واختزله ، وألقاه في سجن الصدود ، وخلّده فيه الى يوم الخلود ، وقرأ عليه : ﴿ ألا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُود ﴾[2] والسلام » .

* * *

(١) اقتباس من سورة الفرقان ، ٢٥ ، الآيات ٢٦ – ٢٨ .

(٢) اقتباس من سورة هود ، ١١ ، الآية ٩٥ .

ملحق

عن الأماكن المذكورة في نصّ الرقعة

حسب ورودها

جامع جلّق : هو المسجد الأموي . أنظر عنه :
ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلدة الثانية (تحقيقنا) ص ٥ وما بعدها (دمشق ١٩٥٤ م) .
المنجد ، خطط دمشق ، ص ٥٥ (بيروت ، ١٩٤٩ م) .
مجهول ، ذكر ما استقرّ عليه الجامع إلى سنة ٧٣٠ هـ . (تحقيقنا) ، دمشق ، ١٩٤٨ م
النعيمي ، الدارس (تحقيق الأمير جعفر الحسني) ٣٧١/٢ .
بدران ، منادمة الأطلال ، ص ٣٥٧ (نشرت بدمشق سنة ١٣٧٩ هـ على نفقة الشيخ عليّ بن عبد الله آل ثاني . وهي طبعة سيئة جداً) .

جامع النيرب : النيرب قرب الربوة ، معروف . وهما نيربان . أنظر عنهما : ابن طولون : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية . (تحقيق الأستاذ دهمان) .
وجامع النيرب وُصف بأنه كان حسناً تقام فيه الجمعة . ثم خرب ، في آخر العهد المملوكي ، وأخذت آلاته إلى عمارة تكية السلطان سليمان ، سنة ٩٦٥ هـ . أنظر : النعيمي ، الدارس ٤٣٨/٢ – ٤٣٩ .
وذكر ابن عساكر مسجدين في النيرب . سمّى الأول : مسجد في النيرب الأسفل . والثاني : مسجد النيرب من مساجد القرى (تاريخ دمشق ، المجلدة الثانية ص ٨٩ – ٩٠) .

جامع المزّة : المزّة قرية قرب دمشق معروفة . وكانت تسمى مزة كلب لنزول قبائل كلب بها . أنظر : المنجد ، منازل القبائل العربية حول دمشق . في مجلة المجمع العلمي العربي ، المجلد الثلاثون . الجزء الأول ؛ وياقوت ، معجم البلدان ؛ وصفي زكريا ، الريف السوري ١٠٦/٢ ؛ محمد كرد علي ، غوطة دمشق .

ليس عندنا نصوص عن جامع المزّة الذي عناه الوهراني . وتوجد نصوص عن جامع المزّة الذي عمره الصفيّ بن شكر سنة ٦٢٢ هـ . (الدارس ، ٤٣٢/٢) وجامع المرجاني بضواحي المزّة (الدارس ٤٤٢/٢) .

الغوطة : غوطة دمشق . معروفة . أنظر كتاب غوطة دمشق .

البقاع : هي البقاع العزيزي . في لبنان اليوم . معروفة .

حوران : معروفة ، جنوب دمشق .

مشهد بَرْزَة : بَرْزة قرية من غوطة دمشق . معروفة . أنظر : غوطة دمشق . ومشهد برزة هو الذي زعموا أنه مقام ابراهيم الخليل . أنظر : العدوي ، الزيارات بدمشق ، ص ١٦ (تحقيقنا) .

مسجد أرزة : أرْزة قرية كانت في محلة الشهداء ، على طريق الصالحية . دثرت منذ زمن بعيد . لم يبق من آثارها إلاّ قبور الشهداء . أنظر : العدوي ، الزيارات ص ١٥ ؛ ودهمان مقدمة القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، ص ١٨ ؛ وعلق في ص ٢٤٧ بقوله : « ومن كلام العوام : مابين برزة وأرزة أربعون ألف نبي » وفي قصيدة مصطفى البكري التوسلية ، ورد :

يارِبِّ بالذات العليّة وبسرّ أسرار الهويّة

. . . .

بالشام ثم ببرزةٍ مع أرزة والصالحيّة

مقام ابراهيم = مشهد برزة .

مغارة الدم : بجبل قاسيون . أنظر العدوي ، الزيارات ، ص ٥ ؛ والربعي ، فضائل دمشق (تحقيقنا) ص ٦٢ — ٦٧ .

مسجد الكهف : هو كهف جبريل . بجبل قاسيون . أنظر الزيارات ص ٦ .

قبر شيث : في قرية نبي شيث تبعد نحو (١٥) كم شرقي زحلة (البقاع) .

قبر نوح : في قرية كرك نوح شرقي زحلة وبجوارها (البقاع) .

قبر اليساس : في قرية قب لياس جنوب غربي شتورة (البقاع) .

جيرون : أنظر عنها ابن طولون ، قرّة العيون (تحقيقنا) ، وكتابنا خطط دمشق .

صلاح الدين المنجد

العربيـــة

وشقيقتها السريانية الوفية

إنها اللغتان العريقتان اللتان تفرعتا عن الدوحة السامية الكبرى لكي تظل الواحدة في معزل عن الأخرى دهراً طويلا ، ثم تصب الواحدة إلى الأخرى فتلتقيان لتعيشا متعانقتين متآزرتين متقارضتين .

لقد دخلت أمها في خبر كان منذ العصور السحيقة في القدم ، وعبثاً حاول الباحثون الوقوف على آثارها رغم تقريرهم أن كثيراً من عناصرها لا يزال محفوظاً فيها وفي شقيقتيها العبرية والحبشية اللتين تشكلان معها حلقات لسلسلة واحدة متماسكة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نستنتج مما ورد في سفر التكوين أن المشرق أي بلاد العراق اليوم ، هو الوطن الأول للدوحة السامية . قال الكتاب : وكانت الأرض كلها لغة واحدة وكلاماً واحداً . وكان أنهم لما رحلوا من « المشرق » وجدوا بقعة في شنعار فأقاموا هناك . . هناك بلبل الله لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض ، وبددهم وشتتهم على كل وجه الأرض ... ولذلك سميت بابل (تكوين ١١ : ١ — ٩) . من هنا رأى بعض أعلام الفكر وفي طليعتهم المستشرق الإيطالي الكبير أغناطيوس غويدي ، أن الجزء الأسفل من نهر الفرات هو المهد الأول للساميين ومن هنا كذلك قول العلامة ابن العبري في ترجمة ناحور جد ابراهيم ، أن . كتب الكلدانيين وعلومهم نقلت في عهده إلى مصر .

ان اللغة السريانية الآرامية تنسب الى آرام – أي بمد الهمزة والراء على الإطلاق – كما ترد في الكتاب العزيز ، لا إلى إرم كما ارتأى الأب أنـطاس الكرملي ، أو راما أي العالي السريانية كما ذهب بعض ذوي الاجتهاد . وآرام هو الابن الخامس لسام بن نوح كما ذكر سفر التكوين (١٠ : ٢٢) . من هنا كانت اللغة السامية الآرامية أكبر سناً من شقيقتها العربية التي تنسب إلى اللفظة السريانية ܥܪܒܐ (عَرَبا) أي الصحراء لا إلى لفظة ܥܪܒ (عرب) أي غرّب السريانية أيضاً كما ذهب بعض الباحثين .

بيد أن اللغة العربية أقرب من السريانية الحالية إلى اللغة الأم وأكثر منها شبهاً بهـا ، إذ بذتها باحتفاظها بكثير من العناصر اللغوية الأصلية المتحدرة اليها منها . والسبب في ذلك كما قرره الباحثون يعود إلى ان العربية عقيب انفصالها عن الأم ازوت دهراً طويلاً في بقعة قاصية عن العالم المعروف يومذاك مما ساعدها على التشبث بالأصول القديمة ، حتى إذا حان وقت انتشارها العظيم مع الفتوحات الإسلامية في القرن السابع للميلاد ، استطاعت ان تحتفظ بتلك العناصر الأصلية . أما السريانية الآرامية فقد تأثرت فور تفرعها عن دوحتها ، بألسنة شتى العناصر التي اصطدمت بهـا في طريق انتشارها الهائل . فبعد أن كانت في القرن الرابع عشر قبل الميلاد لغــة قبائل رُحّل تتنقل في الصحراء الواقعة غربي الفرات ، كقول المستشرق الفرنسي جان شابو ، إذا بها تضحي اللغة الرسمية لشعوب الشرق الأوسط قاطبة من فارس شرقاً إلى سورية غرباً ، ومن آشور شمالاً إلى فلسطين ومصر جنوباً . من هنا تطورها بل تباعدها عن أمها السامية الأصلية ، هذا مع العلم أن ما ورد منها في التوراة وفي حِكَم أحيقار وزير سنحريب ملك اشور (٧٠٥ – ٦٨١ ق . م) يطابق كل المطابقة لحالتها اليوم .

وإلى القارىء الكريم بعض العناصر اللغوية التي فقدتها :

١ ـ تبتدىء الكلمة في السريانية الحالية بالإسكان نحو ܠܡܐ ܫܒܩܬܢ lma chbaktan أي لِمَ تركتني . وذلك ليس من خصائص اللغة السامية الأم التي كانت الكلمة فيها تبتدىء بحركة على الإطلاق كما هي الحال في العربية وفي السريانية القديمة . ويتضح ذلك من لهجتها الفلسطينية نحو ܠܡܐ ܫܒܩܬܢܝ lama chabaktani

٢ ـ تسكّن السريانية الحالية نون الوقاية الفاصلة بين الفعل والضمير المتصل للمفرد المتكلم نحو ܫܒܩܬܢ chbaktan بينما كانت اللغة السامية الأم تكسرها تماماً كالعربية نحو ܫܒܩܬܢܝ chabaktani كما مر بك في اللهجة السريانية الفلسطينية . وكذلك تسكّن كاف المخاطب والمخاطبة رغم إضافة ياء المخاطبة نحو ܩܛܠܟ ܩܛܠܟܝ katlak, katlek بينما في اللغة الأم لم تكن بالإسكان بل بكسرها كالعربية ، كما تدل الياء المتصلة بكاف المخاطبة . وتسكّن أيضاً في أمر المخاطبة ما قبل الياء نحو ܩܘܡܝ koum بينما كان مكسوراً في اللغة الأم كالعربية كما تدل لهجتها الفلسطينية نحو ܛܠܝܬܐ ܩܘܡܝ Talitha koumi .

٣ ـ ان السريانية الحالية تسكّن أول المضارع في الأجوف نحو ܢܩܘܡ nkoum بخلاف ما كانت عليه اللغة الأم كما هو اليوم في العربية .

وقد ظلت خصائص السريانية هذه متغلبة حتى اليوم في سورية ولبنان على اللهجة العربية العامية التي حلت محلها .

٤ ـ إن حرف المضارعة للمفرد المذكر الغائب في السريانية الحالية هو نون نحو ܢܟܬܘܒ nektoub وفي هذا يتساوى والجمع المتكلم . بينما كان هذا الحرف في اللغة الأم ياء كما في العربية نحو ܝܥܩܘܒ yakoub من ܥܩܒ ekab عقب و ܝܘܣܦ yawsef من ܐܝܣܦ eisef ازداد ، وعلى

هذه القاعدة تمثت اللهجة السريانية الفلسطينية ولهجة معلولا اليوم كقولهم ܢܩܘܠ yakoul بدلاً من ܢܩܘܠ nekoul .

وقد توطدت علاقات وثيقة العرى ما بين اللغتين الشقيقتين ، تُقرض الواحدة الأخرى وتستقرض منها كما يتضح من الأمور التالية :

١ ـ لقد تأثر نحو اللغة العربية بالنحو السرياني . ذلك أن أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ استعان في وضع نحوه ببعض علماء اللغة السريانية في الكوفة ، ثم اقتبس النقاط السريانية التي تتميز بها الكلمات ، فالحركات التي كان قد استنبطها قبيل ذلك العلامة مار يعقوب الرهاوي (١) .

٢ ـ في القرن الأول قبل الإسلام اقتبست العربية من الخط السرياني الاسطرنجيلي ، أبجديتها ، وخطها الذي عرف بالكوفي . فاستعمل بعدئذ لكتابة القرآن الكريم شأن الاسطرنجيلي عند السريان (٢) .

٣ ـ لقد تشابهت في كلتا اللغتين مئات من الألفاظ معنى ولفظاً . وهي إما مما توارثناه عن اللغة الآكدية أو مما استقرضته كل منهما من الأخرى . ومما لاشك فيه أن السريانية نقلت إليها كثيراً من فرائد الأدب العربي ولا سيما بواسطة العلامة ابن العبري في القرن الثالث عشر . أما العربية فقد استقرضت من السريانية عن طريق الترجمات التي قام بها علماء السريان ، بضع مئات من ألفاظها ، أفعالاً وأسماء ، ولا سيما المعاني الاصطلاحية والعبارات العلمية والدينية ، بعد أن صقلتها بما يلائم قواعدها ، فجرت على يراع الكتّاب الثقات ، ودخلت المعاجم العربية . وقد سبق سلفنا

(١) الأدب العربي للأستاذ الزيات ص ١٤١ والآداب السامية تأليف محمد عطية الابراشي ص ٢٠٠ .

(٢) الآداب السامية للأبراشي ص ١٩٦ ـ ١٩٧ وتاريخ التمدن الإسلامي للعلامة جرجي زيدان ج ٣ ص ٥٤ ، واللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية للبطريرك أفرام الأول برصوم ص ٢٦ طبعة أولى .

الطبيب الذكر البطريرك أفرام الأول برصوم أن أبرز عدداً وافراً منها على صفحات هذه المجلة الغراء . وإذا كانت قد نُسيت من السريانية ألفاظ بعتق الزمان كما نوه اللغوي الكبير أنطون الفصيح التكريتي في القرن التاسع [١] ، فان العربية حفظت كثيراً من تلك الألفاظ الضائعة كما أثبت العلامة اللغوي مار سويريوس يعقوب البرطلي في القرن الثاني عشر [٢] . وقد كشفنا نحن أيضاً القناع عن وجه بعض هذه الألفاظ والمصطلحات في دراستنا للفيلسوف الكندي منها : إيسْ ، ليسْ ، هُويّة ، قُنية ، مائية ، إنيّة والكثات .

واليك جدولاً ببعض الألفاظ المتشابهة :

ܐܓܝܪܐ	agira	اجير [٣]	ܥܝܢܐ	aina	عين	ܟܬܒ	ktab	كتب
ܐܓܘܪܐ	agoura	آجر	ܒܝܫܐ	baicha	بائس	ܩܪܒ	kreb	قرب
ܐܓܢܐ	aggana	اجانة	ܐܣܝܪܐ	asira	أسير	ܚܟܡ	hakkem	حكم
ܐܕܢܐ	edna	اذن	ܕܡܥ	dammaa	دمّع			
ܐܝܕܐ	eada	يد	ܕܫ	dach	داس			
ܒܙ	baz	بزّ	ܬܪܥܐ	taraa	ترعة ، باب			
ܨܒܥܐ	ssebaa	اصبع	ܦܬܚ	ftah	فتح			

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

انا لن نحاول هنا أن نحاكي بعض من سبقنا الى بحث هذا الموضوع ، بل نبحثه بطريقة مبتكرة ، تاركين الحكم للقارىء الكريم أن يقول كلمته في اللغة التي اقتبست هذه الألفاظ من الأخرى . ولكننا في الوقت

(١) كتاب معرفة الفصاحة المقالة الأولى الفصل السادس والعشرون .
(٢) كتاب المسائل والأجوبة المقالة الرابعة المسألة الثانية عشرة .
(٣) لقد راعينا في الفرنجي اللفظة بحسب اللهجة الشرقية حفاظاً على تركيب اللفظة .

نفسه نؤكد جازمين في أن العربية اقتبست من السريانية الألفاظ التالية ܓܕܫ gaddech كدّس ܓܙܐ gazza كنز ܓܣܣ ghass كحص أي مر في الأرض لا يُرى ܓܠܐ gella كلأ ܓܢܛ gnat كنظ ، غمه الأمر ܓܢܣ gnass كنّس ، رفع أنفه استهزاء ܓܦ gaf كفّ ܓܦܐ gefa كهف ܓܘܦܪܐ goufra كَفَرّى ، وعاء طلع النخل ܬܓܪܝܬ tegrit تكريت ، المدينة المعروفة . ان هذه الألفاظ كما تبدو ، تبتدىء بالكاف ، ولكننا عند مقارنتنا اياها بالسريانية تأكد لدينا انها دخلت العربية كما هي في السريانية أي بالكاف الفارسية التي تلفظ كالجيم المصرية ، ومع تمادي الزمان انقلبت الى الكاف العربية كما هي اليوم .

على أن هنالك ألفاظاً أخرى انقلبت فيها الجيم السريانية إلى قاف كما هي العادة عند بعض العرب منها ܓܠܣ glass قلّص ܓܪܣܐ gerssa قرصة ܓܫܛ gchat قشط . كما انقلبت القاف السريانية في بعض الألفاظ إلى جيم نحو ܒܠܩ blak بلج أو انبلج ، ܕܩܠܬ Deklat دجلة .

للسريانية الحالية لهجتان فقط تعرفان بالشرقية والغربية ، اذ اندثرت اللهجة الفلسطينية التي تظهر بعض عناصرها في لغة معلولا . ومن ميزات اللهجة الشرقية لفظها حرف الفاء كحرف (P) الفرنجي ، والألفاظ العربية التالية تدل دلالة واضحة على انها اقتُبِست من السريانية عن طريق اللهجة الشرقية . وحيث ان الحرف (P) لا أثر له في الأبجدية العربية فقد انقلب فيها إلى حرف باء : ܐܦܐ apaa ضبع ܥܦܪܐ apra غبراء ܝܫܦܐ yachpa يشب ، حجر كريم ܣܪܦ srap شرب .

ومن ميزات اللهجة الشرقية أيضاً استعمالها الشدة كما في العربية ولها وزن فعّل . أما اللهجة الغربية فلها وزن فاعل . وتمتاز عن الشرقية بحركة الزقاف التي تلفظ كحرف (O) الفرنجي . وقد جمعت العربية هاتين اللهجتين مقتبسةً من كلتيهما ، مثال ذلك كلمة ܥܦܪܐ afra فاللهجة الشرقية تلفظ فاءها كالحرف (P) بعكس الغربية . أما العربية فقالت في اللهجة الأولى غبراء وفي الثانية عفر وعفَر .

وفضلاً عن تشابه كثير من الألفاظ معنى ولفظاً في اللغتين كما أسلفنا فان هنالك كثيراً غيرها يتبدل فيها حرف الشين غالباً سيناً في العربية وبالعكس نحو ܫܡܫܐ chemcha شمس ܪܫܐ richa راس ܢܦܫܐ nafcha نفس ܠܒܘܫܐ lboucha لباس ܫܗܪܐ chahra سهر ܣܗܪܐ sahra شهر (قمري) ܣܗܕܐ sahda شاهد أو شهيد ܣܒܥ sbaa شبع . وهنالك أيضاً ألفاظ تنقلب فيها العين غالباً غيناً أو ضادا وأحياناً همزة نحو : ܥܪܒ erab غرب ܥܒܐ aaba غابة ܨܒܥ ssbaa صبغ ܥܢܐ ani غنّى ܒܥܬ baet بغت ܡܥܪܬܐ maarta مغارة . ܐܪܥܐ araa ارض ܪܥ raa رضّ ܒܥܬܐ beita بيضة ܪܚܥ rhaa رحض . ܓܥܪ gaar جار . وهنالك ألفاظ تتبدل فيها الجيم (الجيم المصرية) غالباً جيماً عربية وأحياناً غيناً نحو : ܓܡܠܐ gamla جمل ܒܘܪܓܐ bourga برج ܡܓܕܠܐ magedla مجدل ܪܓܠܐ regla رجل ܓܡܘܫܐ gamoucha جاموس ܓܫܡ gachem جسّم ܓܘܫܡܐ gouchma جسم ܓܙ gas غزا ܓܫܡ gcham غشم ܓܫܐ gcha غشي ܓܪܦ graf غرف ܓܡܨ gmass غمض .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما حرف الطاء فهو أحياناً كثيرة ظاء في العربية نحو ܛܒܝܐ tabia ظبي ܩܝܛܐ kaita قيظ ܛܦܪܐ tefra ظفر ܛܠܡ tlam ظلم ܓܢܛ gnat كنظ . وأما حرف الحاء فهو غالباً خاء في العربية وأحياناً همزة نحو : ܚܡܪܐ hamra خمر ܚܠܐ hala خل ܚܠܬܐ halta خالة ܚܡܫܐ hamcha خمسة ܦܫܚ fchah فسخ ܐܚܕ eihad اخذ ܚܪܬܐ harta آخرة ܐܚܪ eihar اختر ܪܚܦ rhaf رأف .

وهنالك ألفاظ كثيرة تغير تركيبها كقولنا ܓܫܚ gchah سحج ܥܡ am مع ܣܒܪ sabbar بشر ܨܩܥܬܐ skaata صاعقة ܟܘܒܐ couva كوفة (المدينة) .

فلا بد والحالة هذه لمن يريد التعمق في أصول اللغة العربية من اتقان السريانية ، فضلاً عن أن هنالك ألفاظاً كثيرة دخلت المصنفات العربية ولا يمكن التوصل الى معناها الصحيح إلا بمعرفة السريانية ومنها : « زقفونا » ܙܩܦܘܢ zakfoun أي صلبونا الواردة في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، و « اللصوت » ܠܣܛܝܐ lestayé أي اللصوص الواردة في عهد عمر بن الخطاب لأهل إيلياء ، و « النيران » ܢܗܝܪܐ nahiré أي الشموع أو المصابيح الواردة في كتاب أهل دمشق لأبي عبيدة ، و « فاروق » ܦܪܘܩܐ farouka اللقب الذي أطلقه السريان على عمر بن الخطاب ومعناه مخلص ، و « يقلسون » ܡܩܠܣܝܢ mkalsin و « المقلسين » ܡܩܠܣܢܐ mkalsané أي يمدحون والمادحون الواردتان في تاريخ البلاذري ، و « الحيرة » ܚܝܪܬܐ hirta أي القصر ، و « المعرة » ܡܥܪܬܐ maarta

أي المغارة ، و « الكرخ » ܟܪܟܐ karka أي المدينة المدورة ، و « تدمر » ܬܕܡܘܪ tedmour أي أعجوبة ، و « الكوفة » ܟܘܒܐ couva أي الشوكة وعاقولا ، و « تكريت » ܬܓܪܝܬ Tegrit أي التجارة ، و « مكة » ܡܟܐ makka أي الأرض المنخفضة والمنبسطة ، وما اليها من أسماء عشرات من المدن والقرى في سورية ولبنان وفلسطين والعراق . أجل ، إن من أتقن السريانية أدرك سبب استعمال القرآن الكريم للألفاظ حيوة ، وصلوة وزكوة بالواو لا بالألف ، ولفظة سرط بدون ألف ، وذلك كما هي في السريانية ܚܝܘܬܐ hayouta ܨܠܘܬܐ slouta ܙܟܘܬܐ zakouta ܣܪܛܐ serta ، بل أدرك المعنى الصحيح لكثير من الألفاظ السريانية المقتبسة في اللغة العربية العامية في سورية ولبنان ومنها شوب ܫܘܒܐ chawba وزبون ܙܒܘܢܐ zabouna .

قداسة مار أغناطيوس يعقوب الثالث
بطريرك انطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس

أمين الريحاني

وأثر القرآن الكريم في شعره المنثور

تفتّحت براعم أذهاننا يومَ كنّا ناشئين نتلمّس طريقنا إلى الحيــاة والنور ، ونتمسّح عراةً بالحرف الوضيء الطهور ، ونستسقي قطرة من حنان الندى ، ونلتمس دفقة من ضياء الهدى ، ونعلّل الآذان بصوت بشير عميق الصدى ، بعيد المدى ، وناوب وناوب وناوب ولا نجعة ولا منتدى ، حتى إذا أعيانا الأمر شرقنا بريقنــا خائبين ، فلا نأمة ولا ومضة ولا وشَل ينقع الصدا . .

نعم ، تفتّحت براعمنا يوم كنّا ناشئين نطارد الحرف الرقراق البجيل ، مطاردة الحرمان للدينــار المتجهّم البخيل ، على أذان فجرٍ فكريّ عربي أصيل ، جديدٍ رقّاف حفيل . مجوّدِ الترتيل . وكأنّ عليه مسحةً من التنزيل ، ووضاءة الحرف الربّاني النبيل ...

هذا الصوت الذي دوى من وراء البحار ، على غير استحياء واستكبار ، قوياً ندياً ذهبي الأوتار ، وكأنه هزيم الرعد في آذار ، وعزيف الزفزاف في الإعصار ، وأغاريد الربيع النشوان في أيّار ، والحُلم المكوكب الزهّار ، وما أحلاه انساني النجعة ، حضاري الشرعة عربي الهوى والشعار ، وما أشباه مصلصلا مجلجلا وكأنه البركان الثائر الهدّار ، يحطم الأصنام بداد من نار ، ويدكّ عرش الجمود بقذائف الأفكار . بلى ، وكأنه نفحات النسيم المعطار ، تطلقها أنفاس الأسحار ، في نشيدٍ مفتون للحرّية والأحرار . .

هذا الصوت هو صوت أمين الريحاني عملاق الفكر العربي في المهجر ، ورسول الحرف المتحرر الأزهر ، وخطيب الثورة الأنور ، وصقر العروبة في وطنيه الأصغر والأكبر ، وصخرة العقيدة القومية بنضاله المتسامي مظهراً في مخبر ، وعطائه الدفاق الكوثر ، وحصانة قرابينه من كل مكسب أو متجر .

هذا الصوت الذي هزّ الملايين من الناطقين بالإنكليزية والضاد ، هو صوت أمين الريحاني ، ولله درّه كم زرع من بذور المعاني ، وشيّد للفصحى من المباني ، وكم عالج الأسقام طوراً بالمباضع وتارة بالأغاني ، وكم شحذ للعزائم من سيف يماني ، وكم أتحف التراث العربي بنفائس المجاني .

* * *

قرأنا الحرية والتحرر على أمين الريحاني يوم كنّا ، ولا تسل كيف كنّا ، نتفنن خانعين بسلاسل الطغاة العابثين ، ونركع متزلّفين للأصنام المستبدّين الماكرين ، ونلثم خاشعين متمسّكين أيدي المتعجرفين الجلاّدين ونتهافت متسابقين على حرق البخور لأبناء الأفاعي ، من اقطاعيين سود وحمر وبيض يسوقنا كالمطايا بالصولجة والتيجان ، وسياط الإرهاب والعدوان وأرجوان المكر والروغان ، فنطأطىء الرؤوس ونمضي غير مأجورين ، والنصر للسلطان ، والبسمة الماكرة للثعلبان .

وتعلّمنا الصدق والجرأة من أمين الريحاني ، يوم كان الأدب العربي مومياء مكحولة الأجفان ، مطرّزة الأكفان ، تتهادى على نعشها رنّات القوافي والأوزان ، وتنهال على شفتيها وخدّيها قبلات لا حرارة فيها ولا حنان ، ويتمسّح بلمسها قلم رنّان وحرف ظمآن .

هذا أدبنا المحنّط الجامد التقليدي في عصر الانحطاط ، حيث ينساب الغزل ولا رعشة ولا حب ولا افتتان ، وحيث تسحّ الدموع ، ولا أشواق ولا تنهدات ولا أحزان ، وحيث يضطرم الصدر ولا قلب ولهان ، ولا صدّ

وهجران ، وحيث تجلجل الألفاظ الجامدة ، وبصمت الحسّ والوجدان ، فإذا هناك لسان ثرثار ، وأدب مهذار ، وفم مكثار ، وقلب متقطّع الأوتار .

عندما عمد جمال باشا السفّاح إلى سياسة التجويع في لبنان وسورية في غضون الحرب العالمية الأولى ، وذاعت أخبار هذه المأساة القومية في المهاجر الأميركية ، رأى أمين الريحاني أن يحث أغنياءنا على التبرع لمن لا يملكون ثمن الرغيف فجاعوا وتألمّوا وهاموا على وجوههم وقد انسدّت أمامهم أبواب الحياة . نعم رأى أمين الريحاني أن يصف للأغنياء المتخمين آلام الجوع وأحوال الجائع في مقال ينشره في مجلة الفنون النيويوركية التي خصصت عدداً ممتازاً لهذه المأساة ، وقد كان يصدرها الشاعر المبدع نسيب عريضة (الحمصي) .

ولكن أيعلم القراء ماذا صنع الريحاني قبل أن يكتب مقاله في الجوع ؟ إنه فرض على نفسه الجوع ، فتجوّع وصام عن الطعام عمداً ، حتى إذا سغب واشتدت به الشهوة إلى الطعام ، أخذ يطوف بين المطاعم فيرتادها ، ويقف هنيهة أمام المطابخ وقد انتشرت ريح الشواء والطبيخ فيتشمّمها ويتلهّف ويتحسّر ويتصبّب جسمه عرقاً ، ثم يعود وقد أخذ منه الطوى ، ليتحسّس ألم الجائع وانفعالاته النفسية ، ولما أدرك غايته بعد هذه التجربة الطوعية القاسية التي استمرت بضعة أيّام ، وكتب مقاله الفريد في الجوع وهذا هو الصدق في الأدب والحياة .

وبهذا الصدق الصادق الجريء ، العنيف أحياناً ، امتاز أمين الريحاني في كل ما كتبه ، فما جامل ولا تجمّل ، ولا تكلّف ولا تمحّل ، ولا تلوّن ولا تصنّع أو توسّل ، ولا جاوز قط إلى غير مايحسّه ويشعر به ويؤمن به ، بل كان واحداً في مظهره ومخبره ، وسرّه وجهره .

* * *

ودرسنا الكثير من أبجدية القومية العربية على أمين الريحاني ، ولعلنا لا نغالي إذا قلنا بأنه رائدها الفكري ومنظمها العملي . لم تكن أبجديته مجرّد أشعار حماسية ومقالات وطنية ، بل خاض معركتها البيضاء البنّاءة ونذر لها دماغه وقلبه وحياته وسقى قلمه بدمه ، وأشرق بثقافته واخلاصه وتضحيته الصوفية ، ولم يكن تطوافه في بلاد العرب بين البدو والصحاري على ظهور النياق ، سوى مغامرة فذّة محفوفة بالأخطار والمهالك ، ولكنه لم يعبأ بالمتاعب والمشقات ، وأبى الا" أن يحقق حلمه العربي الأكبر ، فإذا الحلم يتوثب ويتفتح عن أوراد وأزهار ، وإذا السديم يجمد ويصلب وينقلب إلى حقول خصبة تشتاق الحراث والبذور ، وإذا الضباب يهطل غيثاً وفيضاً ويتفجّر فراتاً سلسبيلا ..

وكان الريحاني في ماكتبه ونشره حول البلاد العربية وملوكها وأمرائها ومشايخها وقضاياها وأوضاعها ، ذلك الرائد الأمين الصادق ، وذلك المؤمن الواثق ، وذلك الأريحي العاشق .

نعم ، كان الريحاني المسيحي المعتزّ بالعرب وصوفيّة الإسلام ، وهو ابن الجبل وأميركة لا السهل ولا البادية ، أوّل من فتح الجزيرة العربية المستغلقة بعد الانهيار العثماني ، وأوّل من راد البلدان العربية في المشرق والمغرب ، مستطلعاً مستقصياً ، دارساً متحرّياً ، واعظاً مصلحاً مداوياً ، وأول من ركب المجاهل والبوادي مستهدفاً للأخطار وشظف العيش وشراسة الصحراء مضحّياً بكل ثمين ونفيس ، ممتطياً كل شموس وضروس ، باحثاً منقّباً ، حاسراً بنظراته العميقة النقّادة ، عن وجوه الملوك والأمراء والشيوخ ، وعن قلوبهم وسرائرهم تلك الأقنعة الأسطورية التي حجبتهم عن العيون ، وحجبت العالم عن هذه العيون ..

وليست مؤلفاته كتب سياحية وجغرافية وانطباعات وارتسامات في رحلات ، وإنما هي خطوات عملية في بناء القومية العربيّة التي كانت حلماً ذهبياً يرتعش بين الشفاه المحمومة الهامسة الهاجسة ، وفكرة مترنحة بكماء ، أسُسها من زبد البحر ، وجدرانها من خيوط العنكبوت .

وكان الريحاني أوّل من عُني بالكشف عن كنوز الفكر العربي في العالم الجديد ، فاختار ناسك المعرة وفيلسوفها أبا العلاء ، وعكف على لزوميّاته ، وصاغها بلغة انكليزية متينة السبك ناصعة الديباجة مذيّلة بالحواشي الايضاحيّة ، ومتى علمنا أن لزوميات المعري يعسر فهمها على قراء العربية ، أدركنا عظمة العمل الأدبي الذي تطوّع له الريحاني ، وكان نجاحه الباهر في هذه الترجمة في طليعة أسباب شهرته بين الناطقين بالإنكليزية ، ولا شك ان غيرته على الفكر العربي هي التي دفعته إلى ترجمة اللزوميات متحدياً بها رباعيات الخيام التي نالت رواجاً عظيماً .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

وأخذنا القوّة والمضاء والانطلاق يوم كنا ناشئين عن أمين الريحاني ، كان مفكراً عميقاً عقلانياً بعيد المدى ، واسع الثقافة والمعارف ، حازماً عزوماً ، صريحاً جريئاً . وكأننا بعقله النيّر ، كان يفيء إلى قلبه الخيّر ، وهو مرهف حسّاس يفيض حباً وسماحة ، ويتدفق نبلا وصباحة ، ولكن الدموع المتميّعة لم تجد سبيلها إلى أدبه ، ولا امتزجت بمداده ، فما بكى ولا تباكى ، وما شكى ولا تشاكى ، ولا بلّل القراء بوابل عبراته ، ولا ألهب قلوبهم بزفرات شجونه ونشيج تأوّهاته .

بلى ، ثار على الأدب الباكي المريض الذي يتناغم فيه صرير الأقلام بنشيج الصدور ، في كبوات عاطفية تستأثر بأحلام المراهقين ، فإذا هم في خبال العقد النفسية يعمهون ..

وكان سيفاً في مضائه لا يحجم ولا يتردّد ولا يجمجم أمام فكرة اصلاحية جريئة أو رأي غريب شديد يري فيه الخير أو نصيحة مرّة قاسية يسديها إلى بني قومه ، ولا يخشى الأعاصير تهبّ عليه أمام اصلاح قومي اجتماعي يدعو إليه ، بل يمضي في سبيله حاملاً تبعته الثقيلة ، مؤدّياً ما تفرضه عليه رسالته الأدبية الإصلاحية بنبالة وإخلاص غير مرتقب شكراناً ، وغير مغازل ديناراً رنّاناً ونيشاناً .

ولقد أحسن ظنه بالانتداب الفرنسي في بادىء الأمر ، متأثراً بأدب الثورة الفرنسية من نحو ، وبالوعود (الصادقة ؟) المقطوعة للعرب من نحو آخر ، ولكنه لم يلبث بعد عودته إلى لبنان في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وقد رأى ما رأى ، وسمع ما سمع ، ولمس ما لمس ، حتى أصلى الانتداب الفرنسي ناراً حامية ، ووقف على المنابر في بيروت ، منذّداً بحفداء الثورة الفرنسية ، مطالباً بالحرية والاستقلال ، حتى إذا أعيا أمره السلطة الفرنسية المنتدبة حكمت بنفيه من لبنان ، فغادره إلى العراق حيث قوبل بالترحاب وآيات الإعجاب .

وآية أمين الريحاني وهو العملاق المعطاء في خدمته للقضايا العربية قولاً وعملاً ، أنه لم يمنّ ولا تبجّح ولا تمدّح ، ولا لقي الغرور إلى نفسه سبيلاً بعد ما شهد من حفلات الحب والإكرام ، ومظاهر الإجلال والاحترام ، أفي المغرب الأقصى والجزيرة العربية أم في العراق وسفوح الأهرام والشام ، ما لم ينله رجال عظام ، لا قبله ولا بعده ، ولولا أصالة في شمائله المشرقة لازدهاه الغرور وكان ذلك الزهزاه ، المختال التيّاه ، والعياذ بالله . .

* * *

والانطلاق توأم المضاء ، وكلاهما وليد أمّ واحدة هي القوّة .

بهذين الجناحين طار النسر وحلّق في الآفاق ، حتى إذا هوى مثخناً بالجراح ، نثر علينا من تراثه الفكري أنفس الأعلاق .

فلقد كان مولده بشرى بزوغ فجر جـديد ، في الأدب العربي ، والانطلاق العربي ، والنبل العربي . ولبنان الفتّان حمل الى العالم هذه البشرى المخيّة التي تردّد صداها في العالمين القديم والجديد .

وسيعيش ضيوفاً على ذكرى الريحاني الكبير طائفة من الملوك والأمراء ، والمشايخ والوزراء .

أمّا كرَمه الخصيب ، كرَمه الجواد المطار المدرار ، حيث العناقيد الجنيّة الشهيّة وحيث الدنان والنغم النشوان ، والحرف الريّان ، وحيث الظلّ والانس والضيافة وحُسن الوفادة ، أمّا هذا الكرْم فهو يرحب دائماً كل رائد وزائر وضيف وطالب زاد ومعرفة .

* * *

هذه خطوط عريضة سطحية من صورٍ لأمين الريحاني الكاتب المجدّد والمفكّر والقومي والاصلاحي والمؤرخ الرحّالة والشاعر ، رسمتها قصيرة مريعة من باب إيجاز الموجز تمهيداً للموضوع الرئيسي وهو « أمين الريحاني وأثر القرآن الكريم في شعره المنثور » ، ولا يخفى على أحد براعة الريحاني في هذا الفن وإجادته في هذا المضار حتى قال فيه بعض النقّاد إنه أمير الشعر المنثور بالعربية .

والمقصود بالشعر المنثور ، ذلك القريض الحر الطليق من الأوزان والقوافي ، وقد وصفه الريحـاني نفسه في مجموعته « هتاف الأودية » بأنه « آخر ما اتصل إليه الارتقـاء الشعري عند الافرنج وبالأخص عند الانكليز والأميركيين » .

وبعد ما يحدثنا عن الشاعر الأميركاني ولت ويتمان مبتكر هذا الفن يقول : « أما مزايا شعر ويتمن فلا تنحصر بقالبه الغريب الجديد فقط ، بل بما فيه من الفلسفة والخيال ممّا هو أغرب وأجدّ » وويتمن هـذا هو الذي أوحى إلى الأمين بالشعر المنثور ، كما قال الريحاني نفسه .

أما القالب الغريب الجديد الذي ابتدعه ويتمن ، فهو مما يستعصي نقله إلى العربية ، كما يستعصي علينا نقل الأوزان العربية إلى الفرنجية ، فتبقى إذن من مزايا شعر ويتمن الفلسفة والخيال « وهما أغرب وأجدّ من القالب » كما قال الريحاني .

وغريب أن نسمع هذا القول من الأمين ، فهل خلا الشعر العربي ، قديمه وحديثه ، من فلسفة وخيال حتى نستوردهما من الخارج ؟ ولكن يبدو لنا أن الريحاني ما آثر هذا الطراز من الشعر ، على القريض الموزون المقفى إلا لأنه أخفق في تجربته الشخصية ، ولم يلبث بعدئذ أن أصدر حكماً عاماً نعى فيه على الشعر العربي إذ قال : « إنني لا أزال أعجب من بعض شعرائنا كيف يتعمّلون المعاني تعمّلاً . إن القافية والوزن اللذين يعبدهما العرب عبادتهم المشهورة ، قيد ثقيل على الشعر . إنهما منافيان لروحه . سرّ الشعر أن يكون طبيعياً متدفقاً من النفس ، والوزن يقول له : لاتستطيع أن تخرج إلاّ بهذا الطريق ، كما يقول الأنبوب للماء » . (الشعر العربي في المهجر الأميركي لوديع ديب) .

ولا بدّ لنا من كلمة في هـذا الموضوع ، فنحن لا ننكر أن الوزن والقافية قيد ثقيل ، ولكن الشعر لايستقيم أمره ، أي أن الكلام لاينتظم شعراً بدونهما ، ذلك بأن الجرس الموسيقي هو الذي يميّز الشعر من النثر ثم يجب علينا أن نميّز بين الشاعر المطبوع ، والمتشاعر الذي يستعصي عليه النظم المضبوط ، وهذا لا شأن له في حديثنا ، أما إذا كان الناظم مطبوعاً بملكته وسجيّته وذوقه ورهافة الأذن الموسيقية ، فليس للوزن وتوابعه أن تعامره وتضايقه وتسدّ عليه المنافذ والأبواب ، بل تنقاد له عفواً وتفتح له الطريق مرحّبة باشّة ، وهذا ما نلقاه في قصائد الشعراء المطبوعين قديماً وحديثاً .

أما أن نظم الشعر طبعٌ وملكة قبل أن يكون علماً وجهداً وإعناتاً ، فدليلنا أولئك الشعراء الذين أجادوا كل الإجادة ، وأبدعوا كل الإبداع دون أن يدرسوا أو يعرفوا أسماء البحور وأوزانها على الأقل ، ودليلنا أيضاً أولئك الشعراء الذين نظموا قصائدهم قبل أن ينظّم الخليل أوزان الشعر ويضبط علم العروض . فالشعر نشأ إذن قبل كتاب الخليل ، وهو إذن ليس علماً ، وإنما هو موهبة طبيعية كسائر المواهب الذهنية والروحانية والجسدية وسواها من القوى المحسوسة وغير المحسوسة ، إذا استعصى أمرها على رجل فهي لاتستعصي على آخر .

فعلى الناظم أن يكون ذا موهبة شعريّة أولاً ، وإذا لم ينجح فالذنب ذنبه لا ذنب الشعر . إنه لم يخلق بحكم طبيعته شاعراً .

هذه واحدة ، وأخرى يا ويل الشعر إذا كسرنا أوزانه وحطّمناها وأخرسنا قوافيه ، الويل له إذا طرحنا قوالبه وموسيقاه ، فسلس قياده لكل راكب ، واستكان لكل طالب ، اذاً لتوبأ بحمى العجائب وفوضى الغرائب ، وتهافت الملكات والمواهب ، وأين منها برج بابل والنوائب ، والعياذ بالله والأدب والفن من شرّ هذه المصائب ، وما تجرّه من سوء العواقب .

* * *

ولننتقل الى الشعر المنثور أو الشعر المرسّل ، ولندرسه على ضوء زعمائه ودعاته ، فما هي ميزاته ، وما هو طابعه ومادّته ؟

ان الشعر المرسّل لا يختلف عن الشعر الموزون المقفّى إلاّ من حيث « الهندسة » أو الهيكل ، غير أننا إذا أطلقنا الشعر من قيود القوافي والأوزان ، وخلعنا عنه حلله وكسرنا قوالبه وصيغته ، وطردناه من « وطنه الأصيل وجوّه » تحتّم علينا أن نعوّض عن الأوزان والقوافي ونأخذ بشيء من الجرس الموسيقي ، وأن نكسوه ونلبسه ثوباً جديداً ،

وأن نقطعه «وطناً جديداً» نلمح فيه الالتماعات الفنية والومضات الشعرية. أمّا طرافة هذا الشعر فهي أنه لا يجري على قياس مطّرد أو قاعدة ثابتة أو نظام مقرّر مدروس، بل يُترك الأمر لقوّة التوليد والإبداع في المخيّلة. ولا بأس بعد هذا أن نُلمّ ببعض الأسس التي يجب أن يرتكز عليها الشعر المرسّل حتى يتميّز عن النثر، وحتى يكتسب جوّه الشعري ولونه وريحه.

١) الجرس الموسيقي القائم على التواؤم في اللفظة والعبارة ليستقيم التناغم والإيقاع الى حدٍّ ما. والألفاظ تشبه المعادن فبينها الكريمة وغير الكريمة والنفيسة والرخيصة، وبينها الصامتة الخرساء، والرنّانة المصفّقة واللمّاعة البسّامة وذات الإشعاع.

٢) الجوّ الشعري الذي ينقل القارىء من جوّ النثر العادي المألوف الى الجوّ الشعري الملوّن الفسيح حيث يتسع مدى الخيال وخصب الخيال وصور الخيال وحقيقة الخيال. فالخيال الذي لا يستمدّ وحيه من الحقيقة، إنما هو هذر صفيل شفّاف..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣) الاستعارات والمجازات والتشابيه والكنايات العميقة التي تولّد التعابير المجنّحة والصوّر المستحدثة والألوان البيانيّة دون أن يكون للإغراق والإغراب أشباح الغموض والإبهام أو الرمزية المغلّقة التي يغمض معناها على صاحبها نفسه لأنها تنطوي على «لا شيء».

٤) الأسلوب الشعري الذي يقوم على الأصالة والفن والانطلاق، كا يقوم على سلامة اللغة وفصاحة اللفظ، ويتميّز بالعبارات المجوّدة الرشيقة والنبرات المصلصلة تارة، والموسوسة الهامسة أخرى، وبالإطار النغوم الذي يمتزج بالفكرة امتزاجاً منسجماً ملوّناً فلا يطغى عليها، بل يبدو، وكأنه فلذة منها وجارحة من جوارحها.

٥) وحدة الموضوع وروعته وجلاء الهدف ، فالسرّ لا يكمن في الصيغة الفنية الموسيقية مقدار ما يكمن في جماليّة الموضوع .

فهذه الخطوط الخمسة يصحّ أن نتخذها أسساً أوّلية لما نسمّيه الشعر المرسَل أو المنثور ، ولكن ما أصعب ممارسة كتابة هذا الفنّ ضمن هذه الشروط ، إنها ولا شك أصعب من قيود الأوزان والقوافي ، ولذلك يندر الوقوع على الجيد الرائع المكتوب باللغة العربية على كثرة من يمارسون هذا الفن . وقد تكون خطوط ويتمن وأساليبه وقوالبه وآراؤه وفلسفته على جانب خطير من جلال الشأن في اللغة الانكليزية ، أمّا في العربية فاننا لا نستسيغ التهجين ، ولا نهضم التنخيل ، ما دمنا نملك الأصيل الأثيل ، وما دام الإبداع نفسه يفرض علينا التأصيل ، فلكل لغة أريجها ومذاقها وألوانها البيانية وأساليبها التعبيرية ، ونحن يشوقنا أن نرى البدوية بخمارها وحلاها على رأسها ، ولا يشوقنا أبداً أن نراها بقبّعة افرنجية ذات ألوان وأرياش منتصبة أو مستلقية ، هذا المظهر هو من مظاهر « الكرنفال » والمساخر . .

* * *

والصحيح أني وقفت وأطلت التفكير في حديث الريحاني عن الشعر المنثور و « ولت ويتمن » وعدت الى قصائده المرسلة لعلّني أرى فيها لوناً لهذا الشاعر الأميركاني . فكرةً وأسلوباً وتعبيراً ، فبحثت وبحثت ونقّبت ونقّبت ، ولكني أخفقت . وحمدت الله إذ خاب أملي ، لأني أضنّ بالريحاني العملاق أن يكون مقلداً في أدبه ، وهو المتفنّن المجدِّد ، طابعاً على غرار شاعر أجنبي .

ثمّ حمدت الله مرة ثانية ، إذ رأيت الريحاني مقتبساً من صميم الأدب العربي في الدرجة الأولى ، منتهلاً من ينبوع سليقته وفطرته في الدرجة

الثانية ، وعندئذ لم أملك إلاّ أن أتساءل مستغرباً مدهوشاً : كيف أضاع هذا الجبّار نفسه في قضيّة الشعر المنثور ؟

وكيف نبحث عن الشعر المنثور في « ويتمن » وغيره ، وعندنا القرآن الكريم الذي شقّ لنا طريق الشعر المرسَل بألوانه البيانية الفنّانة ، وجوانبه المتألّقة ، وصوَره المرصعة بلاغةً ومجازاً وكنايةً ، وتعابيره المبتكرة المجنّحة ، ومعانيه العميقة المعجزة ، وانطلاقاته العبقرية البعيدة ، وفصاحة ألفاظه ونضارتها وعذوبة وقعها ، أضف الى هذه كلها جرسه الموسيقي في آياته البيّنات الموصول بين تناغم وإيقاع ؟

اذا كان القرآن الكريم كتاباً دينياً يعلّمنا ثورة الحق على الباطل والنور على الظلام ، فلا جدال أيضاً في انه أعظم فتح عبقري جديد في الأدب العربي ، وثورة رائعة على الجمود والمحاكاة أو التمثّل ، وينبوع فيّاض لمن شاء أن يبتكر ويستحدث ويستولد .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولنأخذ بعد هذا قصيدة الريحاني الأولى التي استهلّ بهـا مجموعته (هتاف الأودية) وعنوانها (ريح سموم) ، لنأخذها ولنتأمّلها فكرة وأسلوباً ونغماً ، نلقَ فيها لفتة قرآنية جليّة ، أمّا الشاعر الاميركاني « ويتمن » فلا نلقى له فيها أيّ ظلّ أو أثر .

١) فقد تخيّل الريحاني في المقطع الأول ـ هلاك الأرض ـ بريح سموم ـ وهذه الريح تذكّرنا « بريح صرصر » أهلكت عاداً .

٢) ويستحلف الريحاني قارئه قائلاً ـ بربّك القيّوم ـ والقيّوم من أسمائه الحسنى التي وردت في القرآن الكريم .

٣) ويلتزم الريحاني السجع فيقول : بربّك القيّوم ، ما الذي تظنه يدوم . صوت سمعته في الكروم . وقد مرّت عليها ريح سموم الخ . . وهذا مقتبس من السجع القرآني .

٤) ثم يصف ما تقع عليه العيون من مظاهر العمران بين أبراج ومعامل وأنفاق وقباب وجسور وأسداد وأبنية العشرين طبقة ومعابد وقصور وصروح وبوارج وأساطيل ، ويلتفت الى الرياض والجزُر والجبال ، حتى اذا انتهى انتقل الى الشرائع والعادات والدول والحكومات والطوائف والجماعات ، فيتساءل : ما الذي تظنّه يدوم ؟

وكل ما يستعرضه الريحاني في هذا الموضوع يشبه معالم الحضارات الغابرة التي وصفها القرآن العزيز بعد ما أباد الله أصحابها : (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكّرون) مثل إرم ذات العماد ، وثمود وفرعون الخ .

٥) وفي المقطع التاسع يردّ على السؤال ويقول : « لا يدوم إلاّ السجايا الروحية الفريدة ، سجايا النفس البشرية الجيدة » . وهذه الديمومة أو الخلود نراها في قوله تعالى : « وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار الخ » أي ان العمل الصالح هو الذي يدوم ، ومبعث العمل الصالح هو السجايا الروحية ، سجايا النفس البشرية المتسامية ، فرمزَ الريحاني الى الله تعالى بشيء من نوره أي النفس والروح ، والاشتقاق واضح .

٦) ثم لا يلبث الريحاني أن يصوّر الحشر أو القيامة أو الحاقّة أو البعث بمعانيه الواسعة فيقول : « يومئذ يبطل الجدال ، وتنكسر شوكة المال ، وتحشر الرجال ، وتكبر الآمال » . وفي سورة المجادلة : « لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من دون الله شيئاً » . وفي الحاقّة : « وأما من أوتيَ كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوتَ كتابية . ولم أدرِ ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه » . وليتأمل القارىء جمال هذا الشعر المنثور الرفيع بصوره الرائعة وإيقاعه الموسيقي الساحر .

فالكتاب العزيز صوّر ندامة (الضالّين) وأسفهم وحسرتهم ، والريحاني فاتته صورة هذه الانفعالات النفسية في مواقف الهلاك واقتصر على المظاهر المادية فقال : « يومئذٍ تنكسر شوكة المال ، وتُحشر الرجال » . وهذا الوصف مأخوذ من قوله تعالى : « ما أغنى عنّي ماليه . هلك عني سلطانيه » . وفي سورة الليل : « وأمّا من بخل واستغنى . وكذّب بالحسنى . فسنيسّره للعسرى . وما يُغني عنه ماله إذا تردّى » .

أمّا عبارة الريحاني « وتكبر الآمال » ففيها نظر . إن الآمال في موقف الدينونة لا تتخذ شكلاً واحداً ، إنها تكبر حقاً في قلوب الصالحين ، ولكنها تتمحّق وتضمحلّ في قلوب الضالّين . وما أجمل ما جاء في القرآن الكريم في هذا الصدد : « يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليُرَوا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

٧) ويتابع الريحاني وصف (القيامة) أو الحشر فيقول : « يومئذٍ تنقلب المجتمعات ، وترتعد فرائص الطغاة ، وتهبّ على الأرض الذاريات السافيات » . وهذا الوصف خطٌّ من صورة مصغّرة لما ورد في القرآن الكريم في هذا المعنى أو هذا الموضوع ، كما أن « الطغاة والعتاة والذاريات والسافيات » ألفاظ كثر ورودها فيه ، فما أتانا الأمين بجديد ، لفظاً أو معنى أو أسلوباً .

٨) وتنتهي قصيدة الريحاني بالدعوة إلى الجدّ والعرفان والمعروف والإحسان فيقول : « يومئذ وربّ الأكوان . لا بقاء لسوى الجدّ والعرفان ، والمعروف والإحسان » . وهذه فضائل أو مكارم خلقية ونفسية وفكرية ، وهي مما دعا اليه القرآن الكريم والحديث الشريف كقوله تعالى : « وبشّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار » . وقد استشهدنا بهذه الآية سابقاً . والإيمان بالله يعني ضمناً الإيمان بمكارم الأخلاق ونور العلم . ودعوة الريحاني المذكورة تذكّرنا أيضاً بالحديث

الشريف : « لك ما لبست فأبليت وما أكلت فأفنيت وما تصدّقت فأبقيت » ، أي لا بقاء لسوى الصدقات ـ المعروف والإحسان . ولا ينحصر جمال هذا الحديث في الدعوة الى الخير فقط ، بل يتعدّاها أيضاً الى الروعة البيانية في الإيجاز المعجز ، وإلى الجرس الموسيقي الهادىء الناعم ، والوعظ والإرشاد لا يصلح لهما سوى النغم الرقيق المعبّر ، وهذا هو الشعر المرسل العبقري .

وتذكرنا أيضاً بالحديث النبوي المشهور : « اطلب العلم ولو بالصين » وفيه أشدّ الحث على طلب المعرفة .

٩) ألا يحقّ لنا بعد هذا أن نتساءل ونتساءل مدهوشين مشدوهين : أين هو أثر « ويتمن » الذي كان يجب أن يبرز جلياً قوياً ، وخصوصاً في القصيدة الأولى وهي فريدة العقد في مجموعة شعره المنثور (هتاف الأودية) ؟

أو لا يحقّ لنا أن نجزم ، في أن الأمين استقى أوّل ما استقى من كوثر القرآن ، واستهدى أول ما استهدى بنور القرآن ، فرسخت في ذهنه صوره وألفاظه وتعابيره ، كما علقت أذنه بجرسه الموسيقي وايقاعه ، فكان له عمدةً في شعره المنثور فكرةً وأسلوباً وإطاراً ولفظاً ؟ إن الريحاني استوحى شعره المرسل من صميم القرآن ، أي من صميم الأدب العربي ، ولذلك نحار أشدّ الحيرة عندما نراه يشير الى « ويتمن » الأميركاني ويتغنى به ، ويغفل القرآن معلّمه الأوّل ، ولا ندري كيف نعلّل هذه الظاهرة الغريبة ، مع أن الريحاني عملاق في أدبه وفكره وأصالته .

* * *

أما وقد تحدّثنا عن الشعر المنثور فلنتابع جولتنا في مجموعة (هتاف الأودية) ودراستنا لأمين الريحاني في هذا الفن ، ففي القصيدة الثانية ـ رماد ونجوم ـ صورة لنفاق المجتمع ، وهي صورة ملوّنة حسّاسة

لها جرسها الموسيقي وإن خلا بعض مصاريعها من السجع ، وأجمل ما فيها هاتان الفقرتان الحكيمتان : « في الصعلوك نفس تكبر إذا انطلقت من القيود ، وفي الملك نفس تصغر إذا جرّدت من ترّهات الأبّهة والإجلال » .
ثم تنتهي القصيدة بالوعظ والتأنيب والإنذار ، يقول الريحاني : « إلى مَ تميل وجهنا عن الفقراء الأذلاّء ، ونعفّره أمام الأغنياء والأمراء ؟ احذروا مَن تكرهون ومن تحبّون ، مَن تحتقرون ومن تجلّون . لعلّ علية القوم أدناهم » . وهو وعظ مطروق نثراً وشعراً وكان على الأمين أن « يلقّحه » بشيء من عبقريته ليرتفع عن المستوى العادي .

وعندما نطلّ على (الثورة) نوقع تارةً في جوّ موسيقي هادىء أنيس ، وطوراً في جو إرهابي مزمجر محموم لما يتخلّل القصيدة من ألفاظ صاخبة حامية وصوَر حمر دامية ، مثل القطوب والعصيب والرهيب والنحيب والزئير والنعيب ، والنار والسيف والأغلال والسعير والقنابل وقطع الرؤوس وحزّ الرقاب والمشنقة ولهيب الأتون والبراكين ، وويل للظالمين الخ . وقد التزم السجع في كل مقاطعها فكان الإيقاع جميلاً ، وكان لفقراتها المدجّجة العنيفة النبرات ، صداها البعيد في الجوّ الشعري الثائر ، غير أن الريحاني وهو الذي يعدّ الأوزان والقوافي قيوداً تحمل الشاعر على « التعمّل » في المعاني والمباني ، اضطر في سبيل السجعة أو القافية أن يرتكب خطأً لغويّاً فاضحاً إذ قال في آخر المقطع الثاني :

. . . ونساؤها (أي الثورة) المتنمّرات
وخطباؤهـــا وخطيباتها الفصيحـــات
وزعماؤهـــا وزعيماتهـــا المتمرّدات

والصواب : وخطباؤها وخطيباتها الفصحاء ، وزعماؤها وزعيماتها المتمردون أي بتغليب الذكور على الإناث لا بتغليب التأنيث على التذكير ، ولا يدفع هذا التغليب قولنا إن الفصاحة صفة للخطيبات وحدهنّ وإن

التمرّد صفة أيضاً للزعيات دون الزعماء ، فالفصاحة والتمرد تغلبان على الذكور ، وخصوصاً في المواقف الثورية .

وارتكب هفوة لغويّة أخرى في سبيل التسجيع إذ قال : ألم نقصّ عليك قصص باريس ، يوم دُكّ البستيل وزفّت المحابيس ، ولا يُجمع محبوس على محابيس كما تقول العامّة ، على أنه تفشّى خطأ جمع مفعول على مفاعيل وهو انما يجمع جمعاً مؤنثاً سالماً ، وجرى على ألسنة الخطباء وأقلام الكتّاب والأدباء فقالوا : مفاهيم ومشاريع ومواضيع ومراسيم ومضامين الخ وصوابها مفهومات وموضوعات ومرسومات ومضمونات ، وأحصى علماء اللغة ست لفظات جُمعت على مفاعيل لوقوعها صفة لازمة مثـــل مجانين ومناكيد وملاعين .

والإيحاء القرآني واضح وخصوصاً في لازمة القصيدة « وويل للظالمين الخ » وبعض التعابير الأخرى . فاللازمة تنطوي على الوعيد والتهديد طبقاً لما جاء في كتابه العزيز إذ ينذر الكافرين والمفسدين بالعقاب والعذاب الأليم : « ان لدينا أنكالاً (أغلالاً) وجحيما ، وطعاماً ذا غصّة وعذاباً أليما » ، ولنلاحظ السجع وحُسن الإيقاع . و « إنا أعددنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيرا » ؛ و « .. والظالمين أعددنا لهم عذاباً أليما » ؛ و « .. ويل يومئذٍ للمكذّبين . وما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفسٍ شيئاً والأمر يومئـــذٍ لله » و « ويل للمطفّفين . ويل لكل همزة لمزة » ؛ و « فويل للمصلّين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » ، أي الزكاة والطاعة والإغاثة .

ويقول الريحاني : « ويل يومئذ للظالمين . وبل يومئذ للمفسدين . هو يوم من السنين . بل ساعة من يوم الدين . أنذرهم بأغلال وسعير .. ويوم عسير » ، والشبه واضح .

ويستعمل الريحاني التعبير القرآني في الحث على الاعتبار بالآخرين فيقول : ألم نقص عليهم .. ألم يأتهم .. ألم يروا .. الخ

وقد اقتصر الريحاني في قصيدته هذه (الثورة) على تصوير أربع ثورات تاريخية وهي مصرع يوليوس قيصر ، وسقوط الباستيل أو الثورة الفرنسية ، وثورة كرومويل على شارل الأول الانكليزي ، والحرب الأهلية لتحرير الزنوج العبيد ، وهي كلها ثورات سياسية إصلاحية محلية وبالتالي ليست لها صفة عالمية أو امتداد عالمي كالثورات الروحية الكبرى التي هزّت شعوب الأرض وأيقظتها واتخذت منها مذاهبها وعقائدها كالمسيحية والإسلامية اللتين قادتا أمم العالم ولا تزالان تقودانها ، ولا شك أنها أجدر بالتنويه من الثورات السياسيّة الإصلاحية ذات الطابع المحلي ، ولولاهما ما عرف العالم معنى الثورة والتحرر والانتفاض ، ولكن يشفع بهذه القصيدة أنها نُظمت في عصر السلطان عبد الحميد (١٩٠٧ م) وكأنها نذير لسلطانه الأسود الأحمر .

* * *

أمّا في قصيدته « غريبان » فقد أبدع فكرةً وأسلوباً وفناً وإيقاعاً . الريحاني عميق الإيمان بالله وجماله ومحبّته وحكمته ، ولكنه لا يأخذ بالطقوس والمراسم ، ولا يجري وراء المظاهر والتقاليد ، بل يحرص أشدّ الحرص على الجوهر واللباب والأعمال ، العمل الصالح هو الدين وهو العبادة ، أما الاقتراب الى الله بالشفاه وحدها فتقليد لا طائل وراءه .

كان الريحاني ، رحمه الله ، يزور الكنيسة مرّة واحدة في السنة ، وذلك يوم الجمعة العظيم حين يحتفلون بذكرى آلام المسيح وجنّازه ، وقد أوحى له هذا الاحتفال الديني الكنسي بقصيدته الجميلة (غريبان) . ولنسمع الآن هذا المقطع أو هذا المشهد الرائع لجنّاز المسيح في الكنيسة ،

كما تخيّله وكما ترجه ، ولا حرج علينا لأن الدراسة تقتضي أحياناً خوض ما لا يُستحسن الخوض فيه قال الأمين :

« ما قد مشى في الجنازة المدمدمون . وهم في الكنيسة يطوفون . هو ذا الصليب ، وقد تصاعد وراءه النحيب ، وأمامه البخور والطيب ، وصل الموكب إليّ . فما جثوتُ على ركبتيّ . سرّحت في الناس نظري فرأيتهم ساجدين . ورأيت بقربة مني رجلا واحداً من الواقفين . رأيت في وجه هذا الغريب . ما خالج قلبي الكئيب . فصرخت ساكتاً : إلهي إنّا غريبان ههنا . أسمعت خدّامك ينعبون . ألمثالك الناس يسجدون ، وهم عنك بعيدون . نفحة من جنانك . كلمة لإخوانك » .

أمّا الغريبان اللذان عناهما الشاعر في قصيدته فهما المسيح والريحاني نفسه ، وغفر الله للأمين ، وتغمّده بالرفق واللين ، وأثاب إيمانه العربي في يوم الدين .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

ورثى الريحاني ابن اخته فؤاداً بقصيدة وارفة الظلال ، شجيّة الخيال ، خاشعة الألوان ، متجاوبة الألحان ، عبقرية الأشجان ، سمعنا فيها الشاعر النظّام الى جانب الشاعر الناثر ، قال الأول :

بهـاء جمالك في تربة عجبت لترب جمالاً يعاد
ونور عيونك في ظلمة عجبت لنور شديد السواد

وهناك أبيات أخرى مطلعها :

فجبنا نجوم الحياة عراةً وفينا الخجول وفينا الخليع

ولا ندري هل نظم هذه الأبيات — على ركاكتها — منساقاً بسليقة شعريّة أم أنه تحامل على نفسه ، فجذبه الوزن والقافية الى حيث لا يشاء . نعم أصاب العروض وأرضى الخليل ، ولكنه لم يُصب البيان وجمال الأداء

والتمثيل . فالشاعر خُيّل اليه أن بهاء جمال الميت المرثي حوّل تراب القبر الى جمال ، وهنا العجب ! كما أن نور عينيه انحجب في ظلمة القبر ولكن هذه الظلمة غلبت على النور وأصبح النور شديد السواد ! وهذا يعني أن « بهاء الجمال » استطاع أن يصنع أعجوبته في التراب ولم يفقد عنصره وخصائصه ، ولكن نور العينين عجز عن الإتيان بمثل هذه المعجزة ، فاستحال الى سواد شديد !

وقد يكون في قوله : « عجبت لنور شديد السواد » مجاز عميق أو رمز وفكرة باطنية ولكنه لم يمهّد له بما يهيىء الذهن لاستيعاب هذا المجاز وهذه الفكرة . ثم إن الشاعر جارى العامّة في استعمال « خجول » بدلاً من خَجِيل بالفتح فالكسر .

ولقد صدق الريحاني إذ قال إنه « يعجب من بعض شعرائنا يتعملون المعاني تعمّلا بسبب الوزن والقافية اللذين يقيّدان الشعر » ، ولا شك أن حكمه هذا ناتج عن تجربة شخصية كما قلنا سابقاً . وقد انتهت هذه التجربة بالإخفاق فحكم على الوزن والقافية بأنهما قيد يشلّ حركة الشاعر . ولكن تجربته الشخصية الخائبة لا تصلح حكماً على الكل ، فالصحيح أن الريحاني وإن يكن شاعراً بروحه وذوقه ، لا يملك الموهبة الشعرية المتدفقة التي تصوغ الأوزان والقوافي بطواعية الشمع بين أصابع رجل صناع اليدين . ولا شكّ أنّ ملكته الاستقصائية الدراسيّة ، وعقلانيّته في معالجة الموضوعات ، واعتماده في تفكيره على الحقائق المجرّدة ، وأسلوبه في سبك الجدّ في قالب السخرية ، وهذه في قالب الجدّ ، ونزعته الثوريّة الإصلاحيّة بين هدم وبناء . لا شكّ أن هذه كلها ملكت عليه أمره ، حتى إذا طارد الشعر الموزون المقفّى ، أفلت منه وطار . . ثم إن في الشعر شيئاً من الوحي .

نعود إلى مرثاته لابن شقيقته فؤاد ، فالقارىء يقع فيها على تفجّع وأي تفجّع ، وعلى أسى وأي أسى ، وعلى وجد وأيّ وجد ، ولكن

القارىء لا يغرق بالدموع ، ولا تصطك أذناه بالزفرات والآهات والنشيج . في هذه القصيدة نلقى قلباً حساساً يحزّ فيه الألم ، قلباً مثخناً بالجراح ، ولكنه قلب شجاع حكيم لا يبكي ولا يستبكي ولا يتهافت هلعاً وجزعاً ويغمى عليه ثم يشدّ القارىء بإغماءاته ، بل كأن الألم يشقّ لهذا القلب آفاقاً جديدة تتكشّف عن خيال وحقيقة ، وأشباح وأحلام ، ورؤى وفلسفة ، فإذا الحزن والألم تجربة وقوّة وانتفاضة وانطلاقة روحانية بعيدة المدى ، فلا عبرات وتشنّجات وشقّ جيوب ولطم خدود وانهيار في الجسم وخؤور في الروح ، وهو المنهج الذي نهجه شعراؤنا الأقدمون والمحدثون في الرثاء ، وما أعظم المعري إذ قال :

« غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نوح باكٍ ولا ترنّم شادي »

لولا إفراطه في السلبية .

ورثى الريحاني في مجموعته « هتاف الأودية » صديقه ورفيقه جبران خليل جبران بقصيدة منثورة لمت فيها جروح قلبه شعراً وبياناً وخيالاً وفلسفة ، ولكن لم نلمع في مرثاته دمعة . ولقد سمعنا فيها الترنيم والترتيل ، ولكننا لم نسمع النحيب والعويل . وهنا يبرز طابع الريحـاني النفساني وشخصانيته وسر قوّته في تفكيره وصوَره وأهدافه .

☆ ☆ ☆

ولأدب الطبيعة في شعر الريحاني المنثور طابع جليّ بارز ؛ إنه ذلك الهائم المشغوف الذي انسبكت روحه وقلبه وذهنه وعينه وكل قواه في الطبيعة ، هذه « الأم الأزلية الأبدية » التي يفيض صدرها حناناً وعطاء ، ورواءً وثراء ، وأملا وعزاء وحباً وابجاء ، وصلاحاً وصفاء ، وتعاوناً واخاء ، وصوراً أخاذة تلتمع فيها الإنسانية الزهراء ، والكلمة العذراء ، كلمة الله باسط الأرض والسماء ، وخالق الجماد والأحياء .

أخبرنا السيد ألبرت الريحاني أن شقيقه الأمين لم ينقطع قط عن الهبوط إلى وادي الفريكة ، يتردّد اليه في كل الفصول ، وما كانت الأمطار والثلوج في الشتاء لتصدّه عن زيارة الوادي والاستمتاع بخرير المياه وهدير الشلالات وهطول الأمطار التي هي سيل مرّة وبحيرة أخرى ، وكان للعواصف والرياح وقعها الطروب في أذنه ونفسه ، كما كان يقف خاشعاً أمام شجرة اقتلعها السيل الجارف أو أخرى سلخت عنها العاصفة بعض أغصانها ، حتى إذا أعيا عاد إلى المنزل تقطر ثيابه ماء ، وتفيض البهجة في صدره ، وبعد أن يستبدل ثيابه ويشرب الشاي ينصرف إلى غرفته ليترجم كل ما رأى في ذلك الوادي .

ونحن لا نستغرب بعد هذا أن يبني الريحاني الكبير معبده في أحضان وادي الفريكة حيث تجلّى له « الإيمان والدين والله » كما يقول . وهذا يعني ان حب الطبيعة كان أصيلاً كل الأصالة في أدب الريحاني ، وليس كما زعم بعضهم أنه تأثر بالأدب الغربي واقتبس منه في شعره المنثور وسائر ما كتبه . والصحيح أن شعراء المهجر عموماً من الكبار إلى الصغار ، شمالاً وجنوباً ، برعوا كل البراعة في أدب الطبيعة مدفوعين إلى الإجادة بذلك الحنين المشبوب إلى الوطن النائي ، إلى سورية ولبنان ، عروسي الجمال الطبيعي في العالم .

ويشوقنا بعد هذا أن نلقي نظرة خاطفة على قصيدته المنثورة « معبدي في الوادي » وقد ترجم فيها ما ارتسم في عقله وقلبه من آثار وادي الفريكة ، وكان طبيعياً ان يلتزم التسجيع كعادته في معظم شعره المنثور مدفوعاً بالتناغم وحسن الإيقاع ، فانساقت له القوافي إلاّ في فقرتين حيث يقول : « وقفت على ضريح الشتاء ليلاً . فشاهدت هناك مشهداً جليلاً » ، وياء (الليل) ساكنة تتقدمها فتحة أمّا ياء (الجليل) فليّنة ممدودة .

وأيضاً حيث يقول : « شاهدت ربّة الوادي تقبّل جبين أبيها .

فينورّ الأقحوان تحت شفتيها » ، وياء (أبيها) ممدودة لينة ، أما ياء (شفتيها) فساكنة تتقدمها فتحة .

ولنسمع هذا المقطع الجميل الذي ترجم فيه شيئاً من صور الوادي : « إن في قلبي اليوم شيئاً مما في قلب جاري . وفي قلب الغاب أثراً من آثاري . إن قلبي في عقل هذا القروي ، وعقله في قلبي الخفي . فما يراه في الأرض من نور العالمين ، أراه في أكمام الورد وبراعم الياسمين . إن في ورقة التوت ، سراً لا يكشفه اللاهوت » . ولورقة التوت كما يعلم الجميع ميزة على كل أوراق الأشجار ، فهي غذاء دودة القز دون سائر النباتات ، ودودة القز ترمز إلى الموت والبعث ، فبعدما تنسج كفنها الحريري بلعابها وتستقر في ضريحها الصغير وكأنها ماتت إلى الأبد ، لا تلبث أن تستحيل إلى فراشة تمزّق الكفن وتخرج من مدفنها حاملةً بيوض الحياة إلى مئات من دود القز .

ثم ينطلق الريحاني ، وكأنه كشف عن السر العميق الدفين : « هناك بين أشجار البطم والزمزريق وتحت أدواح الصنوبر والسنديان ، هناك في بيتي ، في بيت الطبيعة ، في بيت الله ، هناك محراب الإنشاد والتغريد ، لا منصّة التحذير والوعيد ، أبني لك أيتها النفس هيكلاً من الإيمان . أقيم فيه تمثالاً للوداد والإخاء . وأدعو اليه كل بشر تحت السماء » . ولا يسعنا إلا أن نقف أمام لفظة (تمثال) لنتدبر وقعها في النفس ، بعدما ارتفعت النفس إلى المحل الأرفع . إن هيكل الإيمان يضم أسمى ما في الكائنات ، يضم عجائب الله ، ومحبة الله ونور الله ، فأيّ شأن لهذا (التمثال) الذي يهبط بنا إلى الوثنية المادية في حب الطبيعة وعبادة الله ؟

ويختم الريحاني قصيدته بهذا المقطع وقد تغنّى فيه بالشوك ، وبابتسامة الشوك ، وبشعاع ابتسامة الشوك ، ذلك بأن الريحاني المتحرر لم يستطع إلا أن يجاري العقيدة المسيحية القائلة بصلب السيد المسيح واستشهاده على

الصليب ، وعلى رأسه إكليل من شوك كما جاء في الأناجيل ، قال الريحاني :
« إن الأريج المنتشر في هذه الأدغال ، هو البخور الذي يحرقه الربيع على مذبح الحياة والإيمان . بين هذه الأدغال الندية وتحت شعاع ابتسامة الأشواك ، يلذ لي التأمل في مَن مات ليحيي الحب والوداعة في الناس ، بين هذه الأشواك يحملني الخيال ، إلى حيث وضع الإكليل على رأس الشهداء » .
والريحاني في هذا المقطع صرف نظره عن الصليب ، وله من القداسة ما له في العقيدة المسيحية ، وتراءى له جمال يسوع في إكليل الشوك الذي ضفره رؤساء اليهود ووضعوه على رأسه قبل الصلب استهزاء به وازدراء ، فلقي الريحاني في الشوك شيئاً من وداعة يسوع ، وابتسامة يسوع ، وشعاع يسوع ، ولعله أول من رفع الشوك إلى هذه المرتبة القدسية بعد ما صار إكليلاً ليسوع ، على حين أن الكنيسة المسيحية لم تُعنَ قط بهذا الإكليل الشوكي الدامي .

* * *

وتبرز لنا مذاهب الريحاني الدينية في قصيدته « إلى الله » حيث نرى قبساً صوفياً إسلامياً يواكبه قبس علمي . أما القبس الصوفي فيذكرنا بمحيي الدين بن عربي في أبياته المشهورة التي يختمها بقوله :

أدين بدين الحبّ أنّى توجّهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

وهي حالة من الإشراق الروحي المتسامي تتجلّى فيه وحدة الحقيقة الدينية في الحب المطلق ، ولكن الريحاني الذي انساق بقلبه وحدسه وحسّه الباطني فكان صوفياً في نظرته الدينية ، لا يلبث أن ينساق بعقله العلمي المفكّر مدمجاً في الدين خطوطاً علمية ، ولنسمع قوله مخاطباً « الله » في القصيدة المذكورة : « فلقد توضّح لي حرف ساكن من اسمك في (الفيدا) (كتاب الهندوس) ، وحرف في الزندآفستا (كتاب زردشت) ، وحرف

في الإنجيل ، وحرف في القرآن . أجل – وفي كتاب الجمعية العلمية الملكية (البريطانية) وسجلات جمعية المباحث النفسية » .

أمّا ان الريحاني يؤمن بالله إيماناً كلياً ، فهذا أمر لا شك فيه مطلقاً ، ولكنه ينظر إلى الله جل جلاله من وراء أديان إلهيّة وأديان غير إلهيّة ، ومن وراء المباحث العلمية والنفسية ، أي انه يجب حذف الشيء الكثير من الكتب الدينية لترتبط بالمباحث العلمية والنفسية ارتباطاً وثيقاً يؤلف ديناً جديداً ، وهذه بدعة البدع ، بل هذا هو الهدم عينه ، دون أن يكون لنا من وراء هذا الهدم ما نبني وما ننشيء ، مع أن الريحاني في كل مطالبه الإصلاحية كان يهدم ويبني الأفضل والأصلح والأكمل .

ولكن هـذه الأحرف التي توضّحت للأمين في أربعة كتب دينية ، ولا ندري لماذا أهمل الموسوية وهي إحدى الديانات السماوية الثلاث ، نقول هذه الأحرف التي توضحت له أيضاً في كتابين علميين ، هي في نظره أحرف ساكنة تحتاج إلى حركات للدلالة وهمزات وصل ، حتى يستطيع البشر أن يحسنوا النطق باسم الله .. ، ولنتأمل هذه الانطلاقة التائهة في الفضاء اللانهائي : « كل أمة من الأمم أدركت حرفاً من هذا الطلسم العظيم . لكن الحركات وهمزات الوصل لا بدّ أن يأتي بها علماء المستقبل لتحيي جموداً في أحرف الكتب المقدسة الساكنة . وتبعث فيها سلالة الماء والهواء ، وتزيل اللكنة من لسان هذا البشري الطفل ومن قلبه » .

فالريحاني مقتنع إذن كل الاقتناع بأن علماء المستقبل هم المعوّل عليهم في تدريب شعوب العالم على النطق باسم الله كاملا ، ولكن متى كان للعقل المحدود أن يكشف عن غير المحدود ، ومتى كان النطق باسم الله يفتقر إلى معامل ومخابر ومعادن وغازات وصواريخ ومراصد وتراكيب كيماويّة وآلات الكترونيّة وسواها ؟

* * *

ويضيق بنا المجال عن متابعة النظر في القصائد الأخرى ونقدها ، وهي لا تقل شأناً عن شقيقاتها ، فنكتفي بهذا القدر لنرسم ما يأتي :

(١) ان الريحاني استقى أوّل ما استقى في شعره المنثور من القرآن الكريم ، فالفقرات المجوّدة المجمّلة ، المصلصلة النبرات ، الجديدة الاستعارات ، البارعة الكنايات ، إنما هي في قوالبها وأساليبها من صور القرآن الكريم .

(٢) تعكّز الريحاني على تعابير وألفاظ قرآنيـة ظهرت جليّة في منظوماته الرئيسيّة كما ومضت الصوفية الإسلامية في تفكيره وخياله الباطني ، واستقى أشياء من نشيد الأناشيد وسفر الجامعة لسليمان الحكيم والمزامير لداود ، وسفر أيوب الصدّيق ، وقد اشتهرت هذه الأسفار المدوّنة في التوراة ، بفقراتها الشعريّة النثريّة العاطلة من السجع ، وفيها فلسفة وخيـال وصوفية عميقة .

(٣) جاء في مقدمة (هتاف الأودية) أن الريحاني هو أول مَن عني بالشعر المنثور في الأدب العربي ، والصحيح أنه جدّد وردّد ، فالشعر المنثور المطلق ، عرفناه مترجماً إلى العربية في أسفار التوراة المذكورة آنفاً ، وعرفنا الشعر المنثور الساجع في القرآن الكريم ، وعرفناه أيضاً في أطواق الذهب للزمخشري ، كما عرفناه في مواعظ قس بن ساعدة وسواه في العصر الجاهلي ، واستساغ أدباء الأندلس هذا الفن فألّفوا فيه ، وكانت مجلة (الفنون) النيويوركية التي هي صحيفة الرابطة القلمية في الشمال قد نشرت نماذج من الشعر الأندلسي المرسل .

(٤) نلقى في شعر الريحاني خصب الفكرة وقوتها وانطلاقها ، ولكن « الفكرة » كثيراً ما يتضاءل نورها أو يخبو لسوء الأداء وجود الصيغة الفنيّة ، هذا مع اعترافنا بأن الريحاني كاتب عربي بليغ متين العبارة متصرف في ضروب الإنشاء ، وقد اشتهر أسلوبه الإنشائي بطلاوته وسلاسته وتدفق الحيويّة في معانيه .

ومصيبة الريحاني في الشعر المنثور نفسه أنه تقيّد بالجرس الموسيقي والتسجيع والفقرات المحدودة الألفاظ ، المحصاة الأنفاس ، فكان شبه متعمّل متكلف ، إذ دفع نفسه إلى غير سجيّتها وسليقتها ، فكان في شعره ينحت من صخر ، وفي نثره المرسل يغرف من بحر ، ويقطف من زهر ، ويستطرف من فجر .

(٥) لا يعتمد الريحاني في شعره المنثور على حواسّه الخارجية فقط ، بل يتخطّاها إلى الفطرة والحسّ الباطني والحدس والإشراق الروحي أحياناً وجاله أنه صهر في ثقافته العربية ثقافات متعددة المصادر .

(٦) ان الفلك الذي يدور فيه هتاف الأودية ، هو البعث الفكري والروحي والثورة على الجمود والجهل . وقد عالج فيه قضايا المجتمع العربي من الناحية السياسيّة القوميّة ، ولكنه ما تطرّق إلى التيارات الاجتماعية الاشتراكية التي كانت شائعة في عصره ، ولعله معذور إذ أخذ بالتكوين السيامي الاستقلالي أولاً أي بأبجديّة النشوء .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٧) لا يدين الريحاني بمذهب معيّن من المذاهب الدينية المشهورة ، فقد نشأ مسيحياً مارونياً بحكم ولادته ، ولكن عندما بلغ أشدّه ونضج تفكيره أخذ من كل دين بنصيب أو بالقدر الذي صبا اليه قلبه وفكره . وقد دشّن حياته الأدبيه بقذيفة رماها في أحضان رجال الدين (المسيحي) قالوا وقتئذ إنه مهّد بها للشهرة في دنيا العرب ، ولكن قذيفته كانت «بيضاء» لم تجرح أحداً ، ولا كسرت زجاجاً ..

(٨) آية الريحاني المثلى أنه هجر وطنه في الثانية عشرة من عمره وفي صدره الخوف ممّن يتكلّم لغتهم والبغض لمن في عروقه شيء من دمهم ، والبغض والخوف هما توأما الجهل ، كما قال في مقدمة كتابه « ملوك العرب » ثم يتابع فيقول : « جمعني الله سبحانه وتعالى بأبي العلاء المعري بعد أن

هداني بواسطة الفيلسوف الانكليزي (كارليل) إلى الرسول العربي . قرأت اللزوميات معجباً بها ، ثم قرأتها مترنحاً ورحت أفاخر بأني من الأمة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحرّ الجسور الحكيم » . وبعد ما وصف زيارته للأندلس يمضي ويقول : « فوقفت في (الحمراء) ، وسمعت أصواتاً تناديني باسم القومية ومن أجل الوطن ، وتدعوني إلى مهبط الوحي والنبوءة » . ثم أتاح له القدر الزهّار أن يزور الجزيرة العربية ويرتادها من أقصاها إلى أقصاها ، ويحادث ملوكها وأمراءها وشيوخها ، ويطلع على العالم العربي بكتابه النفيس « ملوك العرب » الذي كان باكورة رحلاته العربية . ووجه الغرابة أن يهتدي عربي إلى الرسول العربي عن طريق مؤلف أجنبي ، وهذا ما أصاب الريحاني العملاق .

ولكنّ ابن خالة الشاعر الياس طعمة وهو الذي تكنى بعدئذ باسم أبي الفضل الوليد بن عبد الله بن طعمة إمعاناً في العروبة ، كان أحسن حظاً إذ اهتدى إلى الرسول العربي بنور الحرف العربي ، فمدحه بقصائد رنّانة نشرها في البرازيل حيث كان يصدر جريدته (الحمراء) متغنياً بالعرب ومجد العرب ، كما نشر سواها في الوطن بعد عودته .

(٩) وانا أن نتساءل بعد هذا ، ما هو الأثر الذي تركه « ويتمن » الأميركاني في ذهن الريحاني ونفسه ؟ أكونه أول من أطلق الشعر الانكليزي من قيود العروض مجاراةً لشكسبير في اطلاق الشعر الانكليزي من قيود القافية ؟ قد يكون هذا صحيحاً من ناحية الأدب الإنكليزي ، أما من ناحية الأدب العربي فلا . ذلك بأن القرآن الكريم هو الذي أطلق الشعر العربي وأرسله من قيوده ، مع الحفاظ على الجرس الموسيقي تناغماً وايقاعاً وسجعاً مطرداً .

⋆ ⋆ ⋆

وبعد فإن الصوت الذي أيقظنا وأهاب بنا ، وأثارنا واهتاجنا ونكاد نقول مهّد لنا وقادنا يوم كنا ناشئين نتلمس طريقنا إلى النور والحياة ، لم يكن صوت الريحاني في « هتاف الأودية » وإنما كان صوته في مجموعة مقالاته الريحانيات ، والتطرف والإصلاح ، والقوميات ، ومجموعة كتب الرحلات العربية مثل ملوك العرب وتاريخ نجد الحديث ، وقلب العراق وقلب لبنان ، والمغرب الأقصى ، وفيصل الأول . فهنا سمعناه وطربنا له واشتقناه ، وهنا رأيناه ، عملاقاً عبقرياً ، وعربياً مؤمناً وفياً ، ومفكراً جريئاً نهياً ، وحرفاً حرّاً أبياً ، وأديباً بارعاً ألمعياً ، هنا رأينا النسر يشق عنان السماء ، ويرتاد الفضاء ، ويناجي النجمة الزهراء ، ويعود مثقلاً بالعطاء ، والديمة الهطلاء ، والكلمة الظليلة الهدباء .

أمّا في « هتاف الأودية » فما أشبهه بنسر مربوط الساق ، ينشد الانطلاق ، وارتياد الآفاق ، حتى إذا بسط جناحيه وتحفز للسباق ، شدّه الوثاق ، وأعجزه الإخفاق ، عن اللحاق ..

واعجب بعد هذا للعملاق ، يضيع نفسه في عتمة المحاق ..

نظير زيتون

ابن هشام أنحى من سيبويه

١ — تمهيد

في طليعة العلماء العرب الأفذاذ الذين منحوا تراثنا النحوي خلوده يجيء اسم عبد الله بن يوسف الأنصاري المصري المعروف بـ (ابن هشام) صاحب الكتاب الفريد في بابه (مغني اللبيب) . ولهذا الكتاب في العالم العربي اليوم شهرة كبيرة ، فهو يُدرّس في أكثر الجامعات العربية لمزايا ينفرد بها من كتب النحو الجامعة الأخرى ، وبه وبمثله من مصنفات ابن هشام النحوية فاز المؤلف بإعجاب علاّمة عصره ابن خلدون ودفعه إلى أن يعلن في (مقدمته) العبقرية دون تحفظ : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام ، أنحى من سيبويه ! » وسنحاول في هذا البحث أن نعرّف بهذا العالم النحوي الكبير ومصنفاته وكتابه الجامع (المغني) وخصائصه .

٢ — العصر

عاش ابن هشام في القرن الثامن الهجري (٧٠٨ – ٧٦١ هـ) في مصر ، وقد كانت يومذاك تحت حكم المماليك الذين انتزعوا السلطة من أيدي سادتهم الأيوبيين منذ منتصف القرن الماضي (سنة ٦٤٨ هـ) ، وكانت القاهرة قد بدأت تنهض بالدور الحضاري الكبير الذي كانت بغداد مسرحاً له قبل نكبتها بالغزو المغولي ، واستيلاء هولاكو عليها (سنة ٦٥٦ هـ) ، وقضائه على خلافة العباسيين فيها ، وتدميره مكتباتها العامرة ، وإهماله

السيف في أهلها ، وبينهم صفوة من كبار العلماء وأعلام الأدب . وكذلك تحوّل مركز الإشعاع الحضاري الإسلامي إلى القاهرة ، بانتقال ذوي المواهب إليها ، فتعددت فيها المدارس ، ونشطت حركة التأليف في مختلف العلوم والفنون . وكان لتشجيع السلاطين المماليك للعلماء وتقريبهم إياهم وحرصهم على نشر العلم وازدهار التأليف أثرٌ ملحوظ ، وأصبحت القاهرة تستقبل وفود المهاجرين إليها من علماء المسلمين ، من الشرق والغرب : فهم يفرون من جور المغول في الشرق كما يفرون من بطش الاسبان المتغلبين على الأندلس في الغرب ، وهم جميعاً يلقون في مصر - وفي سورية التي كانت يومذاك تابعة لها - مقاماً آمناً وعيشاً مستقراً يمين على التأليف والإنتاج ، وإن تكن الكثرة من مؤلفات هذا العصر - شأن غيره من عصور الانحطاط والظلام - قد ماتت فيها روح الابتكار وانعدمت الأصالة ، فهي جمع وتصنيف واجترار وتقليد يابس لا أثر للاجتهاد فيه !

http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ — الرجل

في هذا العصر ، وفي مدينة القاهرة ولد ابن هشام سنة ٧٠٨ هـ ونشأ فيها ، ودرس على كثير من شيوخها ، فلازم الشيخ شهاب الدين عبد اللطيف ابن المرحّل ، وقرأ على ابن السرّاج ، وحضر دروس الشيخ تاج الدين التبريزي والشيخ تاج الدين الفاكهاني ، وحدّث عن ابن جماعة بالشاطبية ، ودرس الفقه على مذهب الشافعي ، وقد أتيح له أن يلقى النحويّ الأندلسي المشهور أبا حيان أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطي أثناء رحلته إلى مصر ، وسمع منه ديوان زهير بن أبي سلمى ، ولكنه لم يلازمه ولم يقرأ عليه ، وكان شديد المخالفة له ، كثير الانحراف عنه ، على الرغم من أنه تولى شرح بعض كتبه : (اللمحة البدرية لأبي حيان ، وشرحه الكواكب الدرية لابن هشام ، وقد ذكره السيوطي) .

وهكذا نجد أن ثقافة ابن هشام جامعة للنحو واللغة والأدب والفقه والحديث ، وقد كان ابن هشام على همة طيبة في الجد والطلب والتحصيل والصبر على الدرس ، وهو القائل :

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل

وقد ظفر ابن هشام بنيل درجة رفيعة من العلوم التي حصّلها ، وأتيح له أن يتقن العربية اتقاناً كاملاً ، حتى فاق الأقران ، بل الشيوخ – كما يقول بحق ابن حجر – وتصدّر من بعد للتدريس ، فأخذ عنه جماعة من أهل مصر وغيرهم ، ويشهد بعض تلامذته أنه كان مدرساً محبباً لدروسه طلاوة ، كما نستخلص ذلك من مرثية ابن الصاحب بدر الدين له بعد وفاته :

فما لدروس غبتَ عنها طلاوة ولا لزمانٍ لستَ فيه جمالُ

ويصوّر لنا ابن حجر مدى ثقافة ابن هشام وما امتاز به صاحبها من ذلاقة لسان وطلاقة تعبير إلى الأخلاق المتواضعة الفاضلة التي كان يتحلى بها فتعصمه من الافتتان بنفسه والغرور بعلمه ، فيقول : « وتصدّر ابن هشام لنفع الطالبين ، وانفرد بالفوائد الغريبة ، والمباحث الدقيقة ، والاستدراكات العجيبة ، والتحقيق البالغ ، والاطلاع المفرط ، والاقتدار على التصرف في الكلام ، والملكة التي كان يتمكن بها من التعبير عن مقصوده بما يريد ، مسهباً وموجزاً ، مع التواضع والبرّ والشفقة ودماثة الخلق ورقة القلب » فلا عجب بعد ذلك أن تطير شهرة الرجل في أقطار العالم الإسلامي ، فتبلغ المغرب وتفوز من علاّمتها ابن خلدون بتلك (الشهادة) الرفيعة : « ابن هشام أنحى من سيبويه ! ».

تحدثنا كتب التراجم أن ابن هشام ، العالم الشافعي ، تولى تدريس التفسير بالقبة المنصورية بالقاهرة ، وأنه تحنبل في السنوات الأخيرة من حياته (سنة ٧٥٦ هـ ، أي قبل خمس سنوات من وفاته) ، وتولى التدريس بالمدرسة الحنبلية بالقاهرة ، وحفظ لذلك عن ظهر قلب كتاب (المختصر

للخيرَقي) في أقل من أربعة أشهر ، وفي ذلك دليل ذكائه وشباب حافظته ، ولا ريب في أن انتقال ابن هشام إلى المذهب الحنبلي في أواخر سني حياته دليل حيٌّ على نشاط الرجل وحرية فكره ومرونته ، وعلامة لا تخطيء على شباب نهمه العلمي ورغبته ــ وهو في الخمسين ــ أن يطل على آفاق جديدة تزيد حدود ثقافته واطلاعه بعداً واتساعاً .

قام ابن هشام بعدد من الرحلات في العالم الإسلامي ، ولكننا لا نعلم اليوم عن أسفاره تلك غير ما حدثنا هو به في مقدمة كتابه (المغني) فقد قام برحلتين إلى مكة ، أولاها سنة ٧٤٩ هـ ، وقد بقي في البلد الحرام مدة استطاع خلالها أن يؤلف كتاباً في الإعراب ، ولكنه فقده في طريق عودته إلى مصر ، والرحلة الثانية كانت سنة ٧٥٦ هـ ، وقد أتيح له خلال مجاورته للحرم في أثنائها أن يصنف كتابه الجامع الكبير (المغني) الذي يشهد له بالنبوغ والتفوق .

عاش ابن هشام بعد تأليف المغني نحو أربع سنوات ، وقد وافته منيته سنة ٧٦١ هـ في الخامس من ذي القعدة ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر بمصر ، وخلّف ولدين هما محب الدين وعبد الرحمن ، وترك ثروة علمية كبيرة تشهد أنه أنفق عمره كله في تأليفها وتحبيرها وكان مثلاً رائعاً للعالم المجد ، رحمه الله وأجزل مثوبته .

٤ ــ التصانيف

ألف ابن هشام وصنّف عدداً كبيراً من المؤلفات والرسائل ، يزيد على الثلاثين ، ولكن ما وصل إلينا منها لا يجاوز النصف بكثير ، وهو بين مطبوع أو مخطوط محفوظ في مكتبات الشرق والغرب ! أما باقي مصنفاته فلسنا نعرف عنها غير أسمائها الواردة في كتب التراجم : وعند السيوطي نجد أسماء الكتب التالية :

- عمدة الطالب في تحقيق تصريف ابن الحاجب (في مجلدين) .
- رفع الخصاصة عن قراء الخلاصة (في أربع مجلدات) .
- الجامع الكبير .
- التذكرة (في خمس عشرة مجلدة) .
- التحصيل والتفصيل لكتاب التذييل والتكميل (في عدة مجلدات) .
- شرح الشواهد الصغرى .
- شرح الشواهد الكبرى .
- شرح البردة (ولعله شرح قصيدة كعب بن زهير المطبوع مراراً) .
- الكواكب الدرية في شرح (اللمحة البدرية لأبي حيان) .
- القواعد الصغرى .
- القواعد الكبرى .
- المسائل السفرية في النحو .
- شرح التسهيل (مسودة) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وذكر الزركلي في قاموس (الأعلام) اسم كتاب : نزهة الطرف في علم الصرف .

وأما ما نجد اليوم نسخاً مخطوطة منها فهي المصنفات التالية :

- الروضة الأدبية في شواهد علوم العربية : وهو شرح للشواهد الشعرية التي أوردها ابن جني في كتابه (اللمع) - برلين رقم ٧٦٥٢ .
- الجامع الصغير - المكتبة الأهلية بباريس رقم ٤١٥٩ .
- رسالة في استعمال المنادى في تسع آيات من القرآن - برلين رقم ٦٨٨٤ ويحتمل أن تكون هي الرسالة التي ذكرها ديرنبورغ في فهرس المخطوطات العربية المحفوظة بالاسكوريال - رقم ٦،٨٦ .
- شوارد المُلَح وموارد المنح : رسالة في سعادة النفس برلين - ٢٠٩٧ .

- مختصر الانتصاف من الكشّاف : اختصر فيـه كتاب ابن المنيّر (الانتصاف من الكشاف) في الرد على آراء المعتزلة التي وردت في (الكشاف) للزمخشري . برلين رقم ٧٩١ .
- مُوقد الأذهان وموقظ الوسنان : في الألغاز النحوية ، ومنه نسخ مخطوطة في برلين (رقم ٦٧٤٨ ، ٦٧٤٩) والمكتبة الأهليـة بباريس (رقم ٤١١٥ ، ٢ - ٤١٦٣ ، ١) ودار الكتب المصرية بالقاهرة (فهرس الكتبخانة الخديوية : ٦٩/٧ ، ١٠٤ ، ١٧٢ ، ٥٩٨) ، ويذكر « الأعلام » أن الكتاب مطبوع ، ولعله كتاب (الألغاز) الذي سيجيء ذكره في جملة المطبوعات من مصنفات ابن هشام .

ونذكر أخيراً المصنفات المطبوعة وهي :

- قطر الندى وبل الصدى : وهو رسالة صغيرة تيسّر النحو ودراسته للمبتدئين ، نشرت مرات كثيرة ، ولمحمد محيي الدين عبد الحميد شرح عليها .
- شرح على القطر : طبع مرات كثيرة في مصر وتونس وليدن ، وترجمه المستشرق غوغيّة Goguyer إلى الفرنسية .
- شذور الذهب في معرفة كلام العرب : رسالة متوسطة في النحو طبعت مراراً .
- شرح شذور الذهب : طبع مراراً .
- الإعراب عن قواعد الإعراب : رسالة مختصرة طبعت في القسطنطينية ، ونشرها المستشرق دو سامي de sacy مع ترجمة فرنسية ، وشرحها الشيخ خالد الأزهري .
- الألغاز : كتاب في مسائل نحوية ، ألفه ابن هشام لخزانة السلطان الملك الكامل (٧٤٦ - ٧٤٧ هـ) وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ .
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك : وقد يعرف باسم (التوضيح) وطبع مرات كثيرة في الهند ومصر ، ولمحمد محيي الدين عبد الحميد شروح عليه .

- شرح (بانت سعاد) : شرح القصيدة اللامية التي مدح بها كعب بن زهير النبي ﷺ ، وتاج العروس يسميه (شرح الكعبية) ـ مادة غزل ـ طبعة المستشرق غويدي Guidi في ليبسك ١٨٧١ م وطبع بالقاهرة : ١٣٠٤ ﻫ ، ١٣٠٧ ﻫ .
- رسالة في انتصاب « لغةً » وفضلا » وإعراب « خلافاً وأيضاً » والكلام على « هلمّ جرا » وهي رسالة في إعراب هذه الكلمات ، وهي برمتها في كتاب (الأشباه والنظائر) للسيوطي : الطبعة الثانية بحيدر آباد : ٣/١٨٧ – ٢٠٥ ؛ ومن الرسالة نسخ مخطوطة في ليدن ودار الكتب المصرية .
- فوح الشذا في مسألة (كذا) وهو شرح لرسالة (الشذا في مسألة كذا) لأبي حيان ، ونجده في (الأشباه والنظائر : ٤/١١١ – ١٢٢) .
- شرح القصيدة اللغزية في المسائل النحوية : نجده في (الأشباه والنظائر : ٢/ ٣٠٢ – ٣٢٣) ومنه نسخة مخطوطة في ليدن .
- وفي كتـاب الأشباه والنظائر عدد كبير من رسائل ابن هشام : ٢/ ٢٩٢ ، ٢٩٩ – ٤ / ٢ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ١٠٠ الخ ..
- وأهم ما وصل إلينا من مصنفات ابن هشام كتابه الكبير الجامع في النحو (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) وسنفصّل الكلام عليه .

٥ — كتاب المغني

يعده صاحب « مفتاح السعادة » من الكتب المبسوطة في النحو ، وقد استوفى فيه ابن هشام أحكام الإعراب مجملةً ومفصلّة ، وتكلم فيه على الحروف والمفردات والجمل ، فجاء نمطاً وحده في الدقة والاستقصاء والمنهج والإيجاز الجامع الوافي .

والذي شجّع ابن هشام على تأليف كتابه هذا أنه شاهد انتفاع الطلاب

بكتابه «الإعراب عن قواعد الإعراب» الذي نهج فيه نهج المغني، ورأى إقبال العلماء عليه، على الرغم من أنه مختصر، فعمد الى تصنيف (المغني) مطوّلاً، وقد صنّفه أول مرة في مكة سنة ٧٤٩ هـ ثم فقده في طريق عودته إلى مصر، وهو يحدثنا في مقدمة (المغني) أنه انكب ثانية على تصنيفه في رحلة ثانية إلى مكة سنة ٧٥٦ هـ فيقول:

«وقد كنتُ في عام ٧٤٩ أنشأتُ بمكة كتاباً في الإعراب، ثم إنني أصبت به وبغيره في مُنصرفي إلى مصر، ولما منّ الله عليّ في عام ٧٥٦ بمعاودة حرم الله والمجاورة في خير بلاد الله شمّرت عن ساعد الاجتهاد ثانياً، واستأنفت العمل لا كسلاً ولا متوانياً، ووضعتُ هذا التصنيف، وتتبّعت فيه مُقفلات مسائل الإعراب فافتتحتها، ومعضلات يستشكلها الطلاب فأوضحتُها ونقّحتُها، وأغلاطاً وقعت لجماعة من المعربين وغيرهم فنبّهتُ عليها وأصلحتُها الخ...».

يقع المغني في جزأين يبحثان في الموضوعات التالية التي تشير إليها أبواب الكتاب الثمانية:

الأول: في تفسير المفردات وذكر أحكامها.

الثاني: في تفسير الجمل وذكر أقسامها وأحكامها.

الثالث: في شبه الجمل (الظرف والجار والمجرور) وذكر أحكامها.

الرابع: في ذكر أحكام كثيرة الورود ويقبح بالمُعرب جهلها.

الخامس: في ذكر الأوجه التي يدخل على المُعرب الخلل من جهتها.

السادس: في التحذير من أمور مغلوطة اشتهرت بين المعربين.

السابع: في كيفية الإعراب.

الثامن: في ذكر أمور كلية تتخرّج عليها الجزئيات.

فالكتاب إذاً بحث منهجي مفصّل في معاني الحروف (الأدوات) وأحوال الجمل وشبه الجمل وتبيين لأحكام الإعراب وتصحيح لما شاع من

أغلاط المعربين ؟ وقد امتاز (المغني) بجملة من الخصائص نحاول ايجازها في النقط التالية :

١ ـ منهج المغني في تبويبه وترتيبه يدل على استقلال شخصية ابن هشام عن غيرها من النحاة المتقدمين ؟ وطريقته في تأليف المغني محاولة موفقة لتجنّب مساوىء من سبقه من المصنفين وعيوب طرائقهم ، ولتلافي تطويلاتهم في كتبهم ، يقول في مقدمة المغني : « واعلم أنني تأمّلت كتب الإعراب فإذا السبب الذي اقتضى طولها ثلاثة أمور أحدها كثرة التكرار ... والثاني إيراد ما لا يتعلق بالإعراب ... والثالث إعراب الواضحات كالمبتدأ وخبره » . وقد استطاع ابن هشام أن يتخلص في المغني من هذه العيوب ، فجمع المسائل المتكررة الجزئية وصنّفها وأفرد لهـا باباً ، وحذف من الكلام على الإعراب الشوائب التي لا علاقة لها به (كالكلام في اشتقاق اسم : أهو من السّمة أم السمو الخ ...) وأهمل إعراب الواضحات من المسائل ، واستعاض عن كل ذلك « بما يتبصّر به الناظر ، ويتمرّن به الخاطر من إيراد النظائر القرآنية والشواهد الشعرية وبعض ما اتفق في المجالس النحوية » ، كما يقول هو نفسه في المقدمة ؟ وبذلك نجد طريقة ابن هشام في المغني تتلخص في جمـع الأحرف (الأدوات) وضرب الأمثلة والشواهد عليها ثم تنسيق المعاني واستنباط القواعد منها ، وعلى الرغم من التزام ابن هشام حدود منهجه الدقيق فإنه لم ينج من آفة الاستطراد ، وأمثلته كثيرة في كتابه .

٢ ـ أكثر ابن هشام من ايراد الشواهد : من القرآن حتى كاد لا يترك من آياته شيئاً ، ومن الحديث النبوي ، حتى حق للمؤلف أن يعلق في مقدمة المغني أن غايته منه أن « يتيسّر به فهم كتاب الله المنزل ، ويتضح به معنى حديث نبيّه المرسل » ، كما أكثر ابن هشام من ايراد الشواهد الشعرية فيه ،

وقد أفرد السيوطي (ـ ٩١١ هـ) لها شرحاً خاصاً (شرح شواهد المغني) وهو مطبوع ومشهور .

هذه الكثرة من الشواهد ، من أبلغ النصوص القرآنية والأدبية ، منحت كتاب المغني ميزة كبرى وهي التخفيف من جفاف النحو وقواعده بالجمع بين ذلك والأدب ، فأصبح (المغني) كتاباً في النصوص الأدبية الرفيعة والكشف عما فيها من نكات إعرابية ، ولعلَّ واحداً ممن اختصروا كتاب المغني ـ واسمه أحمد المشتهر بالنائب كما يذكر صاحب كشف الظنون ـ قد أدرك صلة المغني بالأدب حين سمى مختصره « قراضة الذهب في علمي النحو والأدب » ، ولا ريب في أن هذه الميزة من مزايا كتاب المغني تشف عن سر من أسرار خلود الكتاب وحرص الأوساط التعليمية العليا في أقطار العالم العربي على تقريره والعناية بتدريسه منـــذ عصر المؤلف إلى يومنا هذا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ ـ أسلوب ابن هشام في المغني أسلوب بالغ المتانة ، وعبارته فيه موجزة محكمة شديدة الإيجاز والإحكام ، حتى إن القارىء ليحتاج إلى كثير من النظر والتدقيق فيها قبل أن يصل إلى الفوائد الكثيرة ، ولهذا ـ ولأسباب أخرى ـ كثرت شروح المغني واستفاضت تعليقات المعلقين عليه ، وتعددت الحواشي والتقارير منذ القرن الثامن حتى اليوم ، وليس من المبالغة في شيء أن نقرر أن (المغني) وشروحه وحواشيه وتقاريره أصبح مدرسة خاصة ، أو أصبحت له مكتبة خاصة به ، وسنتحدث عن بعض تلك الثروة النحوية التي كسبها المغني للعربية بعد قليل .

والكلام على كثرة شروح المغني يسوقنا إلى الكلام على الشهرة المستفيضة التي نالها الكتاب ، فمنذ ظهوره أقبل الناس عليه إقبالاً شديداً ، وابن هشام كان ما يزال حياً ـ كما يذكر ابن حجر ـ . ووصل الكتاب إلى المغرب

وقرأه ابن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ) فأكبره وأثنى على مؤلفه في مقدمته ثناءً كله إعجاب وتقدير : « ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى ابن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الإعراب مجملةً ومفصلةً ، وتكلّم على الحروف والمفردات والجمل ، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها ، وسمّاه بـ « المغني في الإعراب » ، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها ، وضبَّطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم سائرها ، فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلوّ قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها ، وكأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني واتبعوا مصطلح تعليمه ، فأتى من ذلك بشيء عجيب دالٍ على قوة ملكته واطلاعه ، والله يزيد في الخلق ما يشاء ! » .

وابن خلدون يفضل ابن هشام على سيبويه ، كما قدّمنا ، ويعده أنحى منه ، ويحدثنا الدماميني بما يؤكد إعجاب ابن خلدون بصاحب المغني فيقول : « حضرتُ يوماً مجلس شيخنا قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون – رحمه الله – وكان شديد التغالي في الثناء على مصنف هذا الكتاب (المغني) ذاهباً في تفضيله وتفضيل كتابه هذا كل مذهب ، فقال للشيخ محب الدين ولد المصنف – وقد كان حاضراً في ذلك المجلس – : لو عاش سيبويه لم يمكنه إلا التلمذة لوالدك والقراءة عليه ! فقال الشيخ محب الدين : يا سيدي إذا فهم الوالد كتاب سيبويه كفاه هذا شرفاً ! أو كلاماً هذا معناه » (انظر شرح الأمير : ٢ / ٢٦) .

وليس عجيباً بعد هذا أن يعنى العلماء بالمغني فتكثر شروحه كثرة عجيبة ، وعدد كبير من هذه الشروح مطبوع ومتداول ، ونذكر منها :

– تنزيه السلف عن تمويه الخلف : وهو حاشية للشيخ شمس الدين محمد ابن عبد الرحمن ابن الصائغ الزمردي (المتوفى سنه ٧٧٦ هـ) ، ولم تصل

إلينا ، ولكن الشمنّي حدثنا عنها في مقدمة شرحه للمغني وقال إنها إلى أثناء الباء الموحدة ، وانظر كشف الظنون : ١٧٥٣/٢ .

- تحفة الغريب بشرح مغني اللبيب : وهي حاشية لمحمد بن أبي بكر الدماميني (المتوفى سنة ٨٢٨ أو ٨٣٣ ؟) ، ألفها بمصر ثم شرح المغني شرحاً أطول منها في رحلته إلى الهند ، ثم شرحه شرحاً ثالثاً حتى وصل إلى حرف الفاء ، ومات عنه قبل إكماله ، ويقول صاحب كشف الظنون : « ولو كمل لكان أحسن الشروح كلها » . وقد استفاد من شرح الدماميني من جاء بعده ، والأمير يسميه (الشارح) وينقل عنه كثيراً ؛ وشرح الدماميني الذي لم يتم مطبوع بهامش الجزء الأول من حاشية الشمنّي على المغني ، وهناك نسخ مخطوطة من شروحه في مكتبات ليدن والإسكوريال ودار الكتب المصرية .
- كافي المغني لشمس الدين محمد بن عماد المالكي النحوي (المتوفى سنة ٨٤٤) وفي كشف الظنون أنه في ثلاث مجلدات .
- نظم المغني للشيخ أبي النجا بن خلف المصري (المتوفى سنة ٨٤٩) ، فقد نظم المغني ثم شرحه ، كما في كشف الظنون نقلاً عن (الضوء اللامع) للسخاوي .
- اختصار المغني ، للشيخ شمس الدين محمد بن ابراهيم البيجوري (المتوفى سنة ٨٦٣ هـ) كما في كشف الظنون .
- المنصف من الكلام على مغني ابن هشام : وهو حاشية لتقي الدين احمد ابن محمد الشُّمُنّي (المتوفى سنة ٨٧٢ هـ) ، وتقع في جزأين مطبوعين ، وقد استفاد الشمني مما كتبه ابن الصائغ ولخّص حاشية الدماميني ، وزاد إلى ذلك أشياء أخرى نفيسة (وانظر مقدمته لحاشيته ١/٢-٣) .
- شرح مغني اللبيب للشيخ نور الدين علي العُسَيْلي المقري ، وهو - كما يقول صاحب كشف الظنون - من رجال القرن العاشر .

ــ الفتح القريب في حواشي مغني اللبيب لجلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) وهي حاشية غير تامة وصل المؤلف فيها إلى الأداة (حتى) وهي بخطه في دار الكتب المصرية ، وللسيوطي شروح أخرى يذكرها صاحب كشف الظنون ، وله شرح شواهد المغني كما قدّمنا .

ــ ديوان الأريب في مختصر مغني اللبيب ، وهو مختصر المغني للشيخ محمد ابن عبد المجيد السامولي الشافعي ، مرتباً على ترتيب المغني ، مهملاً أكثر الأمثلة والإعراب ، مضيفاً إلى ذلك نزراً يسيراً يناسبه من كلام غيره ، ثم تتبع ما لخصه بحواشٍ فرغ منها سنة ٩٦١ هـ .

ــ مغني الحبيب على مغني اللبيب : للشيخ محمد بن ابراهيم الحنبلي الحلبي (المتوفى سنة ٩٧١ هـ) .

ــ شرح ابن الملا وهو أحمد بن محمد الحلبي المعروف بابن الملا (المتوفى في حدود سنة ٩٩٠ هـ) ومنه نسخة في مكتبة الأوقاف ـ الأحمدية ـ بحلب .

ــ مواهب الأديب : وهو شرح مفيد جامع في ست مجلدات للشيخ محمد ابن محمد المعروف بوحي زاده الرومي (المتوفى سنة ١٠١٨ هـ) وقد أحسن فيه وأجاد ، كما يقول حاجي خليفة .

ــ شرح شواهد المغني لعبد القادر البغدادي (المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ) صاحب خزانة الأدب ، ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

ــ شرح المولى القاضي مصطفى بن الحاج حسن الانطاكي (المتوفى سنة ١١٠٠ هـ) وهو شرح مفيد كما يقول حاجي خليفة .

ــ حاشية الأمير على مغني اللبيب : للشيخ محمد الأمير (المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ) وقد انتهى من كتابتها سنة ١١٨٨ هـ كما يذكر فيها ، وهي مطبوعة ومشهورة .

ــ حاشية الدسوقي على مغني اللبيب : لمحمد بن أحمد بن عرفة الدُّسوقي

(المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ) وقد استفاد فيها من تعليقات والده على متن المغني ، كما يصرح هو بذلك في مقدمة حاشيته المطبوعة .

- فتح الصمد : وهو شرح على السبك العجيب لمعاني حروف مغني اللبيب ، لعلي المبارك (انظر : الأدب العربي لمحمود مصطفى : ٣/١٩٨) .
- الأرجوزة لمولاي عبد الحفيظ باي تونس (المصدر السابق) .
- القصر المبني على حواشي المغني : وهو تقرير على حاشـية الأمير لعبد الهادي نجا الأبياري (المتوفى سنة ١٣٠٥ هـ) ويقع في جزأين ينتهيان بأول الباب الثاني من المغني ، وهو يعترف بأنه استفاد فيهما من حاشية الدسوقي ، والكتاب مطبوع ومتداول .

وهكذا تتوالى الشروح خلال القرون ، وما يزال المغني إلى اليوم موضع عناية الشراح والنحاة ، وللمحمد محيي الدين عبد الحميد شرح على المغني لم يطبعه بعد ، وللأستاذ سعيد الأفغاني عملٌ كبير فيه ما يزال مخطوطاً ، ونحاول اليوم أن نحصي طبعات المغني التي بين أيدينا فلا نجد السبيل إلى ذلك ، ويكفي أن نذكر أنه طبع في طهران (١٢٧٤ هـ) وتبريز (١٢٧٦ هـ) وطبع في مصر مراراً ، وهو الآن يطبع طبعة جديدة منقحة في دار الفكر بدمشق ، بعناية بعض أساتذة العربية في جامعة دمشق . ومثل هذه العناية الفائقة بالمغني خلال القرون ، من حياة المؤلف إلى اليوم ، دليلٌ قاطع على نبوغ مؤلفه وخلود كتابه .

ورحم الله ابن هشام ، فإنه رغم تواضعه ، أدرك أنه صنع بكتابه المغني للنحو ما لم يصنعه أحد ممن تقدّموه ، وأن الأجيال من بعده ستكون حريصة عليه ، فقال في مقدمة المغني :

« فدونك كتاباً تُشد الرحال فيما دونه ، وتقف عنده فحول الرجال

ولا يعدونه ، إذ كان الوضع في هذا الغرض لم تسمح قريحةٌ بمثاله ولم ينسج ناسجٌ على منواله » .

وليس وراء هذا الكلام غرورٌ أو تبجّح ، وحسب صاحبه أن يكون في رأي ابن خلدون ، وهو من هو ، أنحى من سيبويه !

الدكتور صالح الأشتر

مصادر البحث

١ – مقدمة ابن خلدون .

٢ – الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ج ٢ .

٣ – بغية الوعاة للسيوطي .

٤ – حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي

٥ – مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ج ١ .

٦ – كشف الظنون لحاجي خليفة ج ٢ .

٧ – شذرات الذهب لابن العماد ج ٦ .

٨ – النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج ١٠ .

٩ – تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٣ .

١٠ – معجم المطبوعات العربية والمعرّبة ليوسف سركيس ج ١ .

١١ – الأدب العربي وتاريخه لمحمود مصطفى ج ٣ .

١٢ – الأعلام للزركلي ج ٤ .

١٣ – دائرة المعارف الاسلامية .

١٤ – تاريخ الأدب العربي لبروكلمان .

وكتب ابن هشام المطبوعة والحواشي والشروح عليها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

المعاجم اللغوية

بين ماضيها وحاضرها

منذ كانت اللغة العربية ، كان معجمها الجامع لمفرداتها بحقيقتها ومجازها وتراكيبها بصفاتها النحوية والبيانية ، لا يغيب من ذلك كله شيء ، معجم غير مدوّن ولكنه يجري على الألسنة ، وتتلقنه الأسماع ، وتعيه الحوافظ .

شأن اللغة العربية في ذلك شأن جميع اللغات ، وهكذا كانت صور المعاجم قبل أن يكون تدوين ، وقبل أن يكون جمع ، وقبل أن يكون تبويب .

وما كان الناس في حاجة إلى غير تلك الصور غير المدونة من المعاجم يوم أن عاشوا جماعات متفرقة لم تعرف الوحدة ، تعيش كل جماعة صغيرة على ما لها ... في بيئة محدودة وبين آفاق لا تعدوها ، لا يخالف يومها أمسها ، ولا يبعد غدها كثيراً عن يومها ، يكاد يكون ما على ألسنتهم هو ما يضمه معجمهم ذلك غير المدون ، ويكاد يكون ما في معجمهم ذلك غير المدون هو ما على ألسنتهم .

وما ان اتصلت الجماعات ، حتى دخل على هؤلاء ما لا عهد لهم به ، وحتى أخذ هؤلاء يستقبلون مدداً جديداً متصلا يفوت الوعي ، ويفوت الحفظ .

وإذا تلك الجماعات التي لم يكن يفوتها شيء ، وإذا هـذا المعجم غير المدون الذي كان صورة مما يجري على الألسنة ، والذي كان ما يجري على الألسنة صورة منه ، يضم أكثر مما تضمه الحوافظ .

وتدخل على الناس ثقافات وحضارات تعبر عنهـا ألفاظ وعبارات ،

وتشير إليها دلالات ، فيعرفها قوم ويجهلها آخرون ، فإذا هـذا المعجم الواحد يعود معاجم مختلفة ، يخص العامة والخاصة .

وما حرص الإنسان منذ كتب له وجوده المشترك على شيء ، حرصه على أن يفهم عن أخيه ، ولن يكون له هذا إلا إذا كان معجمه ذلك غير المدون صورة مما يجري على لسانه ، وما يجري على لسانه صورة منه . من أجل ذلك كانت الندوات ، وكانت الأسواق : على الإنسان أن يحقق بها ما فاته ، ويستدرك ما أعجلته دورة الزمن عن أن يستدركه .

غير أن الناس على هذا لم يكونوا بعيدين أول الأمر عن معجمهم غير المدون بعداً واسعاً ، إذ لم تكن الحياة قد غلبتهم على كل شيء مما تقوى له الذاكرة ، بل كان ثمة شيء في ملكهم ، وثمة شيء يعز عليهم ...

من أجل هذا لم يتجه التدوين اللغة في عمومها ، بل اتجه أول ما اتجه إلى هذا الشيء الذي يعز على الذاكرة ، ويند عن الحفظ . وما كان هذا التدوين حين بدأ ، يراد به العامة ، ولكن يراد به الخاصة ، إذ العامة لا يعنيهم من اللغة إلا القدر الضئيل الذي عليه يعيشون ، وبه يتفاهمون .

ولكن الخاصة يعنون بالحذق الشامل ، والإدراك بمختلف صوره ، فمنهم الكاتب والقارىء ، والشاعر والناثر ، والمؤلف والمنشىء ، وتلك كلهـا أمور لا تقوم إلا على دراية واسعة ، تستوعب الخاص والعام .

وهكذا بدأ التدوين المعجمي بصورته الأولى الخاصة ، يلتفت إلى الشأن الخاص السامي الدقيق ، قبل أن يلتفت إلى الشأن العام البيّن الواضح .

وما من شك في أن كثيراً مما ألف في هـذا الميدان وذاك ـ أعني الميدانين الخاص والعام ـ لم يصل إلينا ، وكان أكثر ما فقد هو ما ألف في الميدان الخاص ، لأنه كان كغيره مما جاء سابقاً لم تتهيأ له البيئة بالرعاية ، ولأنه كان شيئاً خاصاً لا يعني إلا قلة ، ولأنه لم يدخل إلى الميـدان العام فيرعاه الناس .

أوقن بهذا ؛ وأوقن أن هذا التأليف الخاص ،كان الخطوة الأولى إلى التأليف العام . فالأجزاء أولاً ، ثم من الأجزاء يكون الكل ، ثم هو كان نظاماً بدائياً عليه طبيعة العرب الأولى البدائية .

ثم لا يعنينا نحن ، حين نؤرخ لذلك العمل ، ما اجتمع بين أيدينا من كتب فيه ولكن الذي يعنينا أن نستملي العقل فيا يجب أن يكون عليه عمل كهذا ..

على أن الذي وصل إلينا في ذلك الميدان الخاص ، يختلف باختلاف الغرض الذي ألف له ، ولكنه على هذا كان يحمل الطابع الجزئي الذي هو صورة من تدرج المعاجم وترتيبها .

فما من شك أن الناس التفتوا أول ما التفتوا إلى تلك المسائل الجزئية ، أو إلى تلك المسائل الخاصة التي تعني الطبقة المثقفة ، وتدق عليها وتشغلها ، وهكذا كانت تلك المسائل الخاصة ، هي التي أملت تلك التآليف الخاصة التي كانت أشبه شيء بمعاجم لألوان مستقلة ولأغراض متنوعة لكل لون معجمه ، ولكل غرض معجمه ، ثم كان من هذه المعاجم ذات الألوان المستقلة والأغراض المتنوعة ، المعاجم العامة التي انتظمت كل هذه الألوان وكل هذه الأغراض .

والأمثلة على ذلك كثيرة :

فمنذ القدم والقبائل العربية ، تختلف اختلافاً كبيراً في حرف من حروف الهجاء وهو الهمزة ، ينطقه بعضهم مخففاً ، وينطقه بعضهم سهلاً ، وينطقه بعضهم بين التخفيف والتسهيل . ولقد ظل هذا الحرف إلى اليوم مشكلة من المشكلات ، وكان هذا الاختلاف فيا مضى ، جديراً بأن يلفت النظر ، وتوجه اليه عناية الخاصة الذين شغلوا به وألفوا فيه .

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

فنجد لأبي بحر عبد الله بن زيد (١٢٧ هـ) فيها كتاباً ، لا ندري أكان أسبق من ألف في الهمزة أم سبقه غيره . ومن بعد أبي بحر ألف قطرب (٢٠٦ هـ) ومن بعد قطرب ألف أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري (٢١٥ هـ) ثم جاء بعدهم غيرهم يؤلفون في هذا الباب . فكان الحيوان في تفصيله ودقائقه غرضاً خاصاً ، يفوت العقل العام ، وكان لا بدَّ من تدوينه حتى لا يفوت العقل الخاص مع العقل العام ، فأفردوا للخيل كتباً ، وللإبل كتباً ، ذكروا فيها كل ما يتصل بها .

فمن شغلوا بالتأليف في « الخيل » جملة كبيرة منهم : النضر بن شميل (٢٠٤ هـ) وابن السكلبي : هشام بن محمد (٢٠٦ هـ) وأبو عمرو الشيباني (٢٠٦ هـ) وقطرب (٢٠٦ هـ) وأبو عبيدة (٢١٠ هـ) والأصمعي : عبد الملك ابن قريب (٢١٣ هـ) وابن الأعرابي (٢٣١ هـ) .

كما أفردوا للطير والحشرات والزواحف والهوام كتباً تعرض لصفاتها وخصائصها ، وأسماء أجناسها وأسماء أجزائها .

ARCHIVE
http://Archive.org

ألف علي بن عبيدة الريحاني (٢١٨ هـ) كتاب : « النحلة والبعوضة » وألف ابن الأعرابي (٢٣١ هـ) كتاب : « الذباب » وألف أبو نصر أحمد ابن حاتم (٢٣١ هـ) كتاب : « الجراد » وغير هؤلاء ممن ألفوا في هذا اللون كثيرون . .

ثم عدوا الحيوان إلى الإنسان ، فألفوا كتباً في خلق الإنسان في أعضائه وفي صفاته . ألف في هذا الغرض الخاص : النضر بن شميل (٢٠٤ هـ) وأبو عمرو الشيباني (٢٠٦ هـ) والمفضل بن مسلمة (٢٠٨ هـ) والأصمعي (٢١٣ هـ) وكثير غيرهم .

وأفردوا السلاح بكتب ، وأفردوا الملابس بكتب ، كما أفردوا النبات بكتب ، وكذلك أفردوا بعض المطعومات بكتب ، وخصوا الصفات بكتب ، والأبنية والمصادر بكتب ، والأفعال بكتب .

وهم حين تناولوا هذه الموضوعات الخاصة الجزئية، تناولوا منها خصائصها التي تدق، وأوصافها التي تغمض، يجمعون ما يجمعون بحاجة الاحساس، مخافة تشتته وتوزعه، ومخافة أن يضل مع هذا التوزع وذاك التشتت . .

وكانوا كلما تقدمت بهم الحياة إلى الحضارة، أحسُّوا الضرورة إلى تدوين تلك الأغراض الخاصة والمناحي الجزئية، تملي عليهم تلك الضرورة، فيستجيبون لها، حريصين على أن تبقى لهم لغتهم طيّعة موائمة لبيئتهم وحاجاتهم . فلقد كان العصر عصر حياة لا تكاد تدب الحياة في شيء إلا دبت في غيره . واللغة نصف الحياة المؤثر والمتأثر، وهي أداة التعبير، إن جمدت في بيئة، جمدت معها الحضارة في تلك البيئة من علم وفن وأدب .

ولقد كان ثمة للقرآن معجم، يجمع غريبه . ويقال إن أول من يُعْزَى اليه كتاب يضم فيه غريب القرآن هو : عبد الله بن عباس (٦٨ ﻫ) ومن بعده كان أبو سعيد بن تغلب بن رباح البكري (١٤١ ﻫ) وجاء بعدهما غيرهما يؤلفون في هذا الغرض الخاص، أو في هذا الضرب من المعاجم الخاصة . نذكر منهم مؤرجا السدوسي (١٩٠ ﻫ) واليزيدي : محمد بن يحيى (٢٠٢ ﻫ) والنضر بن شميل (٢٠٣ ﻫ) وأبا عبيدة معمر بن المثنى (٢١٠ ﻫ) . .

ومن بعد القرآن الكريم بفترة طويلة، شغل الناس بغريب الحديث، كما شغلوا بغريب القرآن . ويقال إن أول كتاب وضع في غريب الحديث، كان لأبي عدنان عبد الرحمن بن عبد الأعلى : راوية أبي البيداء الرياحي، ثم كان من بعده أبو عبيدة : معمر بن المثنى (٢١٠ ﻫ)، ثم النضر بن شميل (٢١٣ ﻫ) وتبعهم كثير غيرهم .

ومما يذكر، أن العرب حين استقبلوا في ظل دينهم الجديد، القرآن والحديث، استقبلوا في ظلها علوماً جديدة اقتضى بعضها معاجم خاصة : من هذه العلوم : علم الفقه : إذ كان له معاجم خاصة به تتناول اصطلاحاته

التي جرت على ألسنة الفقهاء ، وحملت الألفاظ اللغوية معاني لم تكن لها . ومن ألّفوا في هذا الغرض الخاص ، الأزهري : أبو منصور محمد بن أحمد (٢٨٢ ـ ٣٧٠ هـ) وله كتاب « الزاهر » في غرائب ألفاظ الإمام الشافعي ، ثم المطرزي : أبو الفتح ناصر بن عبد السيد (٥٣٨ ـ ٦١٦ هـ) وله كتاب المغرب في ترتيب المعرب ، ثم النووي : أبو زكريا : محيي الدين بن شرف (٦٣١ ـ ٦٧٦ هـ) وكانت هذه المعاجم هي الأخرى ، ذات طابع معجمي خاص شأن معاجم غريب القرآن وغريب الحديث .

ولقد أحسّ الناس وهم يجمعون هذه المعاجم الخاصة ، أنهم يصطدمون بلهجات القبائل وما فيها من خلاف ، وما يليه هذا الخلاف اللفظي من خلاف معنوي . وهكذا انبرى لهذا الغرض الخاص تحت إملاء هذه الظروف قوم يؤلفون في لغات القبائل . وكان أول من ألف في ذلك الغرض الخاص : يونس بن حبيب (١٨٢ هـ) ثم أبو عمرو : إسحاق بن مرار الشيباني (٢٠٦ هـ) والفراء (٢٠٧ هـ) وتوالى بعدهم غيرهم يؤلفون في هذا الغرض الخاص بعد جمع مستوعب ، ودراسة مستفيضة .

وتبع هذا الجهد جهود قريبة منه ، تفرعت عنه . فلقد رأى الجامعون للغات القبائل ، أن منها ما يجري على ميزان الفصيح ، ومنها ما تأثر بالأجنبي الطارىء ، فكان لا بدّ من تأليف خاص يتناول هذا الغرض الخاص ، يميز الصحيح من الدخيل ، أو المعرب كما كانوا يسمونه . وممن ألف في ذلك : الجواليقي والخفاجي وغيرهما من بعدهما كثيرون .

فهذه أمثلة من تلك الأغراض الخاصة التي ترى أنها كانت الخطوة الأولى في عمل المعاجم العامة . وما من شك في أن التدوين المعجمي خطا من هذا الخاص إلى ذلك العام ، غير أن التأليف في القطاع العام ، أخذ ينمو ويزيد ، على حين أخذ التأليف في القطاع الخاص ، يجمد لم يتناول جديداً ، غير أن يصور ويشكل ويبوب على أنماط جديدة وذلك :

١ - لأن جانباً من تلك المعاجم الخاصة لم يجد عند المؤلفين اللاحقين مزيداً يزيدونه وذلك : مثـل الكتب الخاصة بالإبل . فما نظن بعد الأصمعي (٢١٣ هـ) مؤلفاً عنّى نفسه بشيء من هذا . وكذلك كانت الحال في الكتب الخاصة بالخيل ، فما نظن بعد النمري (٦٥٧ هـ) مؤلفاً شغل بهذا الموضوع . هذا إذا استثنينا محاولات هينة لا يعتدّ بها .

٢ - ثم من هذا الجانب الخاص ، بدأ يأخذ مكانه في الجانب العام ، ويكون جزءاً منه ففقد استقلاله .

وما ندعي أن التأليف العام ، لم يبدأ إلا حين انتهى التأليف الخاص ، بل ما ندعيه هو : أن تلك المرحلة الخاصة سبقت المرحلة العامة في التفكير أولاً ، ثم في التأليف ثانياً لا يصرفنا عن هذا الرأي : أن التدوين الخاص كان يعاصر التدوين العام ، وكأنهما نشآ معاً ، ومردُّ هذا إلى ما وصلنا من المؤلفات في هذا أو ذاك ونحن نعلم ضياع الكثير من هـذا التراث ، ثم لا ننسى أن التأليف الخاص كان حين بدأ شيئاً يروى حتى إذا ما جاء عصر التدوين الحق ، وأخذ التأليف المعجمي العام طريقه ابتلع من هذا التأليف الخاص ما ابتلع ، وعوق أكثره عن أن يأخذ وجوده المستقل .

وحين نشأ هذا التأليف العام ، نشأ هو الآخر متأثراً بهذه الخصوصية . فلم تخضع تلك المعاجم العامة للمنهج اللفظي : أعني الترتيب الأبجدي الذي هو المفتاح الطبيعي لتلك المعاجم ، ثم هو من الناحية العامة التي يجب أن يتصف به كل ما هو عام يفيد منه العامة في يسر ، بل خضعت تلك المعاجم لمناهج خاصة ذات أسلوب عقلي يستلزم جهداً خاصاً هو للخاصة .

وكان أول معجم وصل إلينا من هذه المعاجم العامة ، هو معجم العين للخليل بن أحمد (١٧٥ هـ) .

فحين أراد الخليل أن يبوب معجمه هـذا ، لم يخضعه للمنهج اللفظي الميسور الذي هو المنهج العام ، بل كان لا يزال متأثراً بالناحية الخاصة .

فإذا هو يفلسف الترتيب فلسفة خاصة ، تلزم الناس بعلم خاص قبل أن ينتفعوا بهذا المعجم . فقد رتب الخليل معجمه وفق مخارج الحروف ، كما تصور الخليل تلك المخارج ، لم يجر على الترتيب الهجائي الشائع ، وإذا ترتيب الحروف عنده يجيء على هذا النحو : ع . ح . هـ . خ . غ . ق . ك . ج . ش . ض . ص . س . ز . ط . ت . د . ظ . ذ . ث . ر . ل . ن . ف . ب . م . و . ي . أ ..

وسمى الخليل معجمه بالعين لأنه يبدأ بحرف العين ...

وما أريد أن أذكر ، أن العلم الحديث ، اعترف للخليل بشيء ، وأنكر عليه شيئاً آخر ، فقد شقّ الخليل على الناس في معجمه وألزمهم أن يكونوا على علم قبل أن يفلحوا ، وهو بهذا قد جرد معجمه من صفات المعاجم العامة .

وما أفلت من هذا المنهج العقلي من لحقوا بالخليل ، فقد ألف عليه : القالي : إسماعيل بن القاسم معجمه « البارع » فقد وضع هو الآخر معجمه على مخارج الحروف ، كما رآها سيبويه لا كما رآها الخليل ، فأدخل على العقول بلبلة جديدة ، وإذا هذا الترتيب يكون على النحو التالي :

هـ . ع . غ . ق . ك . ص . ج . ش . ل . ر . ن . ظ . د . ت . ص . ز . س . ظ . ذ . ث . ف . ب . م . و . أ . ي ..

وألف بعدهما الأزهري : أبو منصور محمد بن أحمد (٢٨٢ — ٣٧٠ هـ) معجمه : التهذيب ، ملتزماً الترتيب الذي التزمه الخليل ، فجاء على ذلك النمط الخليلي .

وعلى نمط الخليل والأزهري ، ألف الصاحب بن عباد (٣٤٣—٣٨٥ هـ) معجمه المحيط ، وكان آخر من ألفوا على هـــذا المنهج : ابن سيده : أبو الحسن علي بن اسماعيل (٣٩٨ — ٤٥٨ هـ) فوضع كتابه : « المحكم » يحكي فيه منهج الخليل مع تعديل طفيف فيه .

على أن هناك مدرسة عامة عاشت إلى جانب المدرسة الخاصة بدأت متأخرة شيئاً ما . كان على رأس هذه المدرسة الثانية ـ أعني المدرسة التي التزمت الترتيب الحرفي إلى حد ما : ابن دريد : محمد بن الحسن (٢٢٣ ـ ٣٢١ هـ) فقد عدلت هذه المدرسة عن المنهج الذي وضع أساسه الخليل إلى منهج آخر أقرب إلى وظيفة المعجم وإلى طبيعته اليسيرة التناول ، القريبة المأخذ ، فوضع كتابه : « الجمهرة » مرتباً على حروف الألف باء . وقد أغنانا ابن دريد عن تناول عمل تلك المدرسة الأولى بالتنقص حيث يقول في مقدمة معجمه « الجمهرة » : « وقد رتبته على هذا النحو إذا كانت الحروف المرتبة على الألف باء بالقلوب أعلق وأزم ، وفي الأسماع أنفذ وكان علم العامة بها كعلم الخاصة ، كان طالبها من هذه الجهة بعيداً من الحيرة مشفياً على المراد » .

ولقد صدق ابن دريد وصدق ظنه ، فما خلقت المعاجم لتكون على هذا العسر العسير الذي التزمه الخليل ومن تبعه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعلى نمط ابن دريد ، ألف ابن فارس أحمد : المقاييس ثم المجمل . غير أن هذه المدرسة الثانية على ما كان معها من تيسير وتقريب ، كان فيها إيجاز مضيع كالذي وقع فيه ابن فارس ، وتعقيد مفوت كالذي وقع فيه ابن دريد ، فقد قسم مادته أولاً وفق الأبنية : الثنائي ثم الثلاثي ثم الخماسي ثم السداسي ، ثم رتب تلك الأبنية على الحروف .

وغير بعيد من هاتين المدرستين ، كانت مدرسة ثالثة ، بدأت متأخرة شيئاً ، وكان لهذه المدرسة نهج جديد يجمع بين النهجين السابقين : يجمع بين الصفة الخاصة والصفة العامة ، غير أن الصفة الخاصة كانت أكثر ملاحظة . فقد عدت هذه المدرسة أواخر الكلمات لا أوائلها أساساً في الترتيب ، ثم مضت ترتب الكلمات بعد هذا على حروف الألف باء ، ذاهبة إلى أن آخر

الكلمة هو الحرف الثابت ، وأن أولها تلحقه الزيادات التي تشكل صورته ، من أجل ذلك رأوا ألا يعتدوا بالأول ، كما أخرجت هذه المدرسة الباحث بأن يكون على علم بالاشتقاق ، وأن يعرف أصل كل كلمة مجرد الكلمة من الزوائد أولاً ليعرف أين مكانها من المعجم .

وهذه نظرة كما أرى ، فيها شيء من العقل ، وفيها فكر . على الباحث في المعجم أن يتدبر ويفكر قبل أن يبحث . والمستفيد من المعجم يجب أن يلقاه في أيسر صورة .

كان على رأس هذه المدرسة ، الجوهري : أبو نصر إسماعيل بن حماد (٣٠٠ هـ) فقد ألف كتابه : « الصحاح » وكما تأثر بالمدرستين الأوليين ناس ، تأثر بهذه المدرسة ناس كان منهم : الصغاني (٥٧٧ - ٦٥٠ هـ) فوضع كتابه : « العباب » و « التكملة » و « الذيل » ثم « مجمع البحرين » وبعد الصغاني كان ابن منظور الافريقي المصري (٦٣٠ - ٧١١ هـ) فوضع كتابه : « لسان العرب » ثم الفيروزابادي : محمد بن يعقوب (٧٢٩ - ٨١٦ هـ) صاحب القاموس المحيط .

وكان فيما بين هذه المدارس الثلاث المعجمية ، مدارس متفرقة ليست ذات منهج جزئي أشبه في طريقتها بتلك المدارس الخاصة الأولى ، أعني تلك المدارس الخاصة ، إن صح لها أن نسميها مدارس ، وهي التي سبقت التأليف العام وكانت مشغولة بأغراض بعينها .

وهكذا كان شأن تلك المدرسة الأخيرة المتفرقة مع خلاف في الغرض بينها وبين أصحاب المناهج الأولى . فأولئك الأوائل قصدوا باباً معيناً ، وهؤلاء قصدوا مع العموم شيئاً من الخصوص ، فوضعوا معاجم عامة ، لكنها كانت حول غرض خاص ، كما فعل مع العموم شيئاً من الخصوص ، فوضعوا معاجم عامة ، لكنها كانت حول غرض خاص ، كما فعل ابن الأثير

في كتابه : «النهاية» الخاص بغريب الحديث ، وكما فعل الزمخشري : محمود بن عمر في كتابه : «الفائق» ، وكما فعل الراغب الأصفهاني في كتابه : «المفردات» وهو خاص بغريب القرآن. فهم قد ألفوا في أغراض أقرب إلى الخصوص ولكنها خالفت ذلك الخصوص في تشكلها على أسلوب معجمي تخضع في طريقته لأسلوب المدرسة الثانية ، ويخضع لها أيضاً في أنه خروج عن الموضوعية ـ أعني معالجة الموضوع المستقل ـ إلى اللغة كلمات ، ثم شرح هذه الكلمات . وما كانت هذه وظيفة المعاجم الخاصة التي كانت تجمع أسماء الموضوع وأجناسه وصفاته دون ترتيب معجمي .

وليس بعيداً عن هذا أيضاً ـ أعني عن تلك المدارس الأخيرة المتفرقة ـ ما فعله الزمخشري في كتابه «أساس البلاغة» ، فهو وإن كان حول موضوع عام ، وهو اللغة ، من حيث هي لغة ، إلا أنه كان ذا منهج خاص ، فكانت عنايته بالمجاز ، لا بقصد إلى الجمع الشامل ولا إلى التفصيل الذي هو من حق المعجم العام .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولقد دخلت على الشعب العربي ، حضارات أجنبية كثيرة ، كان هذا والشعب العربي على حال من التخلف مُني بها ، فاستكانت لغته شيئاً ، فكانت تملي عليه الحضارات فلا يستجيب ، ويبلبل الدخيل لسانه فلا يفار ، وإذا هو بعد غفوة طال أمدها يجد نفسه بعيداً عن لغته ، ويجد لغته بعيدة عنه ، ويجد لغته قاصرة عن استيعاب تلك الحضارات ، وإذا هو يكاد يتنكر لهذه اللغة ، مما جعله يفكر في أن يستبدل بها غيرها ، لولا بقية من غيرة وحمية وإيمان .

وما ذابت الشعوب في غيرها ، إلا حين تنسى لغتها أولاً ، وحين تحس أن لغتها عاجزة عن أن تساير الحياة ، عندئذ تتوزع أشتاتاً وتتخطفها حضارات مختلفة ، وتفقد طابعها الجامع حين تفقد لغتها الجامعة .

غير أن اللغة العربية ، قد ثبتت لهذه العانية وحدها بتليدها وموروثها ، لا تجد إلا العون الضعيف ، والحضارات في زحفها الغازي ، واللغة في سكونها الهامد ، لا تملك معجماً عربياً سلياً يساير تلك الحضارات ، وييسر الحاجات ، ويفي بالرغبات .

ومن الحق ، أننا لا نتهم تلك الفترة الغافية بالمحل ، ولا نصمها بالجدب . فلقد جاءت بشيء من المعاجم مكن للناس كل التمكين حين عزّ عليهم الانتفاع بالمعاجم الأولى كلها : صعبها وسهلها .

في ظل تلك الأزمنة ، كانت المدرسة الرابعة للمعاجم ، قد أحست أن المدرسة الأولى ، لم تصل إلى المعجم الحق ، الذي يخضع في ترتيبه للحرفية المطلقة لا يكلف الباحث عناء التلبث ، ليتعقل ويفكر . .

وكان على رأس تلك المدرسة : بطرس البستاني الذي ألف كتابه : « محيط المحيط » في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ثم سعيد الخوري الشرتوني في ١٨٨٩ م الذي ألف معجمه : « أقرب الموارد في فصيح اللغة والشوارد » وفي سنة ١٩٠٧ م أخرج جرجس همام الشويري معجمه : « الطالب » وفي سنة ١٩٠٨ م أخرج الأب لويس المعلوف معجمه : « المنجد » وفي سنة ١٩٣٠ م وضع عبد الله البستاني معجمه : « البستان » مُعْتمداً على محيط المحيط لبطرس البستاني .

وكان ثمة معاجم أخرى ألفت في ظل هـذه المعاجم ، تقرب منها شيئاً ، وتبعد عنها شيئاً ، ولكنها كانت كلها على هـذا المنهج الحرفي ، يستقي بعضها من بعض ، وتستقي كلها من المعاجم القديمة .

ولكن اللغة العربية بعد تلك الأزمان القاصمة ، وبعد ذلك التخلف الطويل ، كانت في حاجة إلى وثبة جريئة شريفة متصلة ، في حاجة إلى أن تقرب نفسها من الناس ، وتقرب الناس إليهـا على صفحات معاجم ميسّرة مذللة ، في حاجة إلى معاجم ، تضم إلى القديم الحديث ، وتضم

إلى اللغة ما يتصل بحياة الإنسان في غير اللغة من أشياء حول العلوم والفنون والصناعات والزراعات ، بل شئون الحياة كلها تتناوله بالقدر المعروف الموجز ، وتترك تفصيله لمراجعه الخاصة .

وهكذا أصبحنا في حاجة مع هذا العصر الزاخر بحضارته الصاخبة إلى تمهيد اللغة بين يدي الناس ، لتمضي وتساير تلك الحضارات بعلمها وفنها ، وفي حاجة إلى أن تصل الناس باللغة ، لتشيع على ألسنتهم ، فتصقلها وتقومها ، فما ولدت اللغة إلا على الألسنة ، ولا استقامت ولا نمت إلا على هذه الألسنة .

ولا ريب في أن بعض هذه المعجميات التي تشغل بعض الناس ، إنما تبشر بخير كثير ، لو أتيح لها أن تظهر إلى الوجود دون ما تعثر أو التواء ، أو ابتغاء المنفعة أو التجارة في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى بذل الجهود ، وتضافر الهمم ، لإخراج معاجم ، تساير الحضارة ، وتضع للأجيال اللاحقة ما تبني عليه المجد والعز والجاه في ظل لغة العرب ، وبطولات الأقدمين .

(القاهرة) أبو طالب زيان

http://Archivebeta.Sakhrit.com

أبو حيان التوحيدي (١)

ربما كان هذا الأديب الفيلسوف أقل الأدباء حظاً وأكثرهم بؤساً ، ولعله ، من جهة أخرى ، كان من أقوى أهل عصره بديهةً وأشدهم ذكاءً وأسطعهم فكراً ، وكان لا يقف في صفــه منافساً ولا يتعلق به مماثلا إلا الجاحظ . وأنت تدري من هو الجاحظ عظمةً وعبقرية تنقطع دونها الآمال وتكبو وراءها الأماني . ولست أعلم من الأدباء الذين قرأت سيرهم رجلا تعرض لمصاعب الحياة وشقاء الوجود كأبي حيان التوحيدي ، فقد كان فقيراً إلى أبعد حدود الفقر ، وكان لا يكاد يمسك أوده أو يتبلغ بطعامه ، لشدة إعراض الأيام عنه ، وانصراف الزمن إلى غير جهته ، وكان ابن الرومي قد عناه في قوله :

أذاقتني الأسفار ما كرّه الغنى إليّ وأغراني برفض المطالب
فأصبحت في الإثراء أزهد زاهد وإن كنت في الإثراء أرغب راغب
حريصاً جباناً ، اشتهي ثم انتهي بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب
ومن كان ذا حرص وجبن فانه فقير أتاه الفقر من كل جانب

وكاتبنا هذا ، هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، وقد اختلف في أصل كنيته والرأي الأرجح أنه انتسب للمعتزلة لأنهم يسمون أنفسهم أهلَ العدل والتوحيد ومن هنا جاءته هذه الكنية . وهو عربي أصيل ،

---

(١) بمناسبة قرب صدور كتاب « أخلاق الوزيرين » أو « مثالب الوزيرين » ، من مطبوعات المجمع .

عاش عمراً مديداً إذ ولد في أوائل القرن الرابع للهجرة ومات في نهاية هذا القرن . ودفن في بلدة شيراز عام ٤١٤ للهجرة .

ومن ظلم الزمن لأبي حيان أنه ولد في العصر العباسي الثالث ، وهو العصر الذي ارتبكت فيه الأمور ، وأعضلت المشاكل ، وفسدت أمور الخلافة ، وتدخل في الدولة العربية الإسلامية من ليس منها ولا يمت إليها بصلة من جنس أو دين أو رأي أو ثقافة ، وتغلغل الأعاجم في جسم الأمة وكلهم يروم منها مكسباً أو يسعى ليقتطع مغنماً ، وقام الثائرون من كل جانب يريدون أن يتقسموا هذا الملك الباذخ والرقعة المتسعة ، فابن رائق يستولي على البصرة ، والبريدي يستأثر بالأهواز ، وأبناء بويه يحتلون فارس وما يتبعها من كور ومقاطعات ، وقامت الدولة السامانية في خراسان ، وتملك بنو حمدان في الموصل وديار بكر وربيعة ومضر ، وانتقلت مصر والشام إلى الاخشيدية ؛ والبحرين واليمامة في يد القرمطي ، والمغرب في حكم القائم العلوي ، والأندلس تحت سيطرة عبد الرحمن الناصر الأموي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما الخليفة في بغداد فقد اضطرب حبله ، وارتبك أمره ، وقام عليه من أعوانه الأتراك والفرس والديلم والأكراد من يريد الاستئثار بالملك دونه ، حتى لم يبق للخليفة المغبون الا الصورة ، بل اشتط هؤلاء الأعوان حتى أقدموا على قتل الخلفاء وخلعهم من مثل المقتدر والقاهر والراضي والمتقي والمستكفي ، وهم من الخلفاء الذين ذهبوا مثلما جاءوا لم يشعر بهم أحد ولم يخلفوا في هذه الدنيا من أثر إلا الحسرة على ملكهم العربي والعبرة فيما أصابهم من ريب الزمان وغير الدهر ، وهم الذين جنوا على أنفسهم أو جنى عليهم آباؤهم في التفاتهم إلى غير العنصر العربي ، واعتمادهم على من لا يحس كما يحسون ولا يشعر كما يشعرون ، ذلك أن القومية رابطة دونها كل رابطة وآصرة أضعف منها كل آصرة ، ولو اعتمد أولئك الخلفاء على العنصر العربي وحده ، لقوي الملك ورسخت أركانه وبذخ بنيانه .

في هذا العصر عاش أبو حيان التوحيدي ، وكان أشد الناس تأثراً بهذه الأحداث التي تتقطع لها الكبد وتسيل الدموع ؛ ولقد نزل بغداد وهو شاب صغير ، وأقدم على الدراسة ، فالتفت إلى النحو ثم الفقه والمنطق وعلم الكلام ، فلحظ عليه أساتذته وهم من جلة العلماء وأعيان الفكر أنه حكيم عظيم صافي الذهن يعتمد على عقله ولا يأخذ الأمور على ظواهرها ، ولا يتحيز لفئة ولا يتعصب لرأي .

وكان إجماع الأدباء على أنه أكثر الأدباء شبهاً بالجاحظ ، فقد التزم طريقته في التصنيف والتأليف ، ونبغ في مناحي شتى من أبواب المعرفة ، فهو شيخ في الصوفية ، وفيلسوف متأدب ، وأديب متفلسف ، وبليغ لا يدانيه بليغ . جمع في فكره من العلم ما لا يستطيع احتجانه عشرة رجال من الأذكياء ، ولكن الحظ ، والحظ وحده ، هو الذي حال دون ذيوع اسم هذا النابغة ، ومنع عليه أن يعرفه الأدباء والمؤرخون معرفة صحيحة حتى قال فيه ياقوت متعجباً : ولم أر واحداً من أهل العلم ذكره في كتاب ، ولا أدمجه في ضمن خطاب وهذا من العجب العجاب .

ولقد أخلص هذا الرجل الكبير للعلم اخلاصاً لا يكون إلا عند أولئك الذين تجعلهم الطبيعة وقفاً على التأليف واخراج الكتب ؛ وأكثر أبو حيان من تأليف المؤلفات ومن أشهرها : كتاب المقابسات ، وكتاب الاشارات الإلهية ، والرد على ابن جني في شعر المتنبي ، وكتاب الإمتاع والمؤانسة ، وكتاب رياض العارفين ، وكتاب تقريظ الجاحظ ، وكتاب مثالب الوزيرين وهما ابن العميد والصاحب ابن عباد ، وكتاب الحج العقلي ، وغير ذلك كثير ، ويتبين من هذا التنويع والتشكيل المدى الواسع الذي كان يشرف عليه عقل هذا الرجل ، فهو كما ترى يتنقل بين الفلسفة والأدب والفن والتاريخ مما يؤكد لنا أنه كان كنزاً لكل دراسة وأهلاً لكل تمحيص .

أما طريقته الفكرية فتتلخص في أنه كان يميل إلى أهل التصوف من أصحاب الباطن كما كان أحياناً من أهل الظاهر فقد جمع النقيضين لقوة ذهنه ورجاحة فكره ، فهو لم يكن ناسكاً متطرفاً في الإعراض عن الدنيا وان كان يشارك هؤلاء في التفكير ولا يماثلهم في السلوك وطريقة العيش حتى عرف فيه هذان اللونان ، وقلده في ذلك جماعة جاءوا من بعده ، أما هو فلم يتقيد في حياته كلها بمذهب أو نظرية ،ولكنه عاش مع هذه المذاهب وتنقل فيا بينها وساوى أصحابها أو بز أهلها حتى صار أعجوبة الزمن ومعجزة الدهر .

كان أبو حيان ، في جلالة قدره وعلو منزلته ، فقيراً معدماً مقتراً عليه في رزقه ، لم يُستعمل في الدولة لأن العمل في الدولة يناقض ما كان عليه من حب للقراءة وادمان للمطالعة وانصراف تام للاطلاع ؟ ولم يلتفت إليه أصحاب الجاه والسلطان الالتفات الذي يليق به أو يتناسب مع مقامه العالي ، وكان للتوحيدي زميل في الفقر والعلم ، فكانا يتناجيان فيا آل اليه أمرهما من فاقة وعوز ، كما كانا ينعيان على الحظ هذا الظلم الفادح والغبن الظاهر ،كان هذا الزميل هو الفيلسوف الكبير أبو بكر القومسي ، وقد قال للتوحيدي في يوم من الأيام : ما ظننت أن الدنيا ونكدَها تبلغ من إنسان ما بلغت مني: إن قصدت إلى دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها ، وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلداً أملس . وهذا الوصف ذاته ينطبق على أبي حيان ، ولكن أبا حيان لم يكن صاحب شكوى إذ كان له من نفسه ما يمنعه من اظهار حاله وشرح ما يخصه .

كان ابن العميد والصاحب بن عباد وزيرين جليلين ، وكانا يتفضلان على أهل الأدب والعلم من اولئك الذين يخفضون لهم جناح الذل ، أما الذين يعرفون أقدار أنفسهم من مثل المتنبي وأبي حيان التوحيدي فلم تكن لهم

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حظوة عند الوزيرين الجليلين ، والذي يبدو أن الوزيرين كانا يحبان المدح ، وكانا يريدان أن يجمعا اليهما دنيا السياسة والأدب ، فإذا عرفا أن من يقصد اليهما من الأدباء ، أديب له منزلته العالية خافا منه وتنكرا له ، وقلبا له ظهر المجن وتمحلا الأعذار في البخل ، وعمـدا الى الإساءة اليه ليتخلصا منه حتى لا تكون هنالك فرصة للمقارنة بينه وبينهما فيغلبهما في مجال التنافس والمقارنة . وهكذا اختلف ابن العميد والصاحب مع المتنبي ، حين حسداه وحاولا الإساءة اليه ولا سيما الصاحب ، وكذلك فعلا مع أبي حيان التوحيدي بعد أن انقطع اليهما فلم ينل منهما رغيبتـه ، وعاد بعد ثلاث سنين قضاها عند الصاحب دون أن ينال منه دانقاً أو درهماً . ولكن التوحيدي ليس من العلماء الذين يسكتون على الضيم ويتحملون الإساءة . وقد رزق من قوة الشكيمة والاعتداد بالنفس بحيث كان يرى الوزيرين بعين فكره . وهما صغيران هينان لا يستأهلان اهتماماً ولا يستحقان النفاقا . ولقد كلف الصاحب ابن عباد أبا حيان بنسخ رسالة من رسائله تقع في ثلاثين مجلدة ؛ فقال له : نسخ مثل هذه يأتي على العمر والبصر . فحقد الصاحب عليه ذلك ؛ وكانت النتيجة أن كتب التوحيدي كتابه « مثالب الوزيرين » فاستفاد الأدب كتاباً جديداً على حساب هذا الخلاف المحصب . وكان لهذا الخلاف أثر مادي في أبي حيان فقد أعرض عنه الناس ارضاء للوزيرين وتقرباً اليهما ، وأحدقت التهم بعد ذلك بأبي حيان وكانت هذه التهم في أكثرها دينية على عادة ذلك العصر ، وكانت الزندقة هي السبة التي يمكن أن توجه إلى الأظناء ، وقد لقي العلماء وأصحاب الفن والأشخاص البارزون عناء كبيراً من هذه التهمة ، وهكذا فقد اتهم الصاحب ابن عباد ، وهو الوزير القوي ، ابا حيان بالزندقة مما اضطره إلى الاختفاء ، وتعرض للقتل ، ولجأ إلى ديار بكر حيث لقي إكراماً بالغاً من الوزير صمصام الدولة بن سعدان وله ألف كتاب « الصديق والصداقة » و كتاب « الإمتاع والمؤانسة » وهما من أشهر كتبه .

ARCHIVE http://archive.sakhrit.com

أما فنّ أبي حيان فينحصر في هذه الكتب التي ألفها ، وكانت تمتاز بأسلوب قوي أقرب الى أسلوب الجاحظ من حيث تقطيع العبارة وتقصير الجملة والإحساس الرقيق بالموسيقى اللفظية ، وسلامة الإنشاء ، إذا كتب لم تشرد عنه لفظة ولم تندّ عنه كلمة ، وهو يؤثر في ذلك بأذن سامعه وإحساسه حتى يجتذبه اجتذاباً ، واللغة عند التوحيدي وسيلة للتعبير ، لا طريقة للتظرف والتكلف ، فاذا وضع الكلمة فهي لا بد أن تقع في محلها الذي خلقت له بحيث لا يمكن إبدال غيرها منها ، لأن هذه اللفظة ذات علاقة وشيجة بالصورة التي تتكون من اجتماع الكلمات بعضها إلى بعض في عقد واحد . وقد قال أبو حيان في هذا المعنى : « والكلام إذا خرج في غير تكلف وكدّ وشدة تفكر وتعمل كان سلساً سهلاً ، وكان له ماء ورواء ورقراق ، وعليه فرند لا يكون على غيره مما عسر بروزه واستكره خروجه » .

ولعل هذه العبارة تعطيك صورة واضحة عن طريقة أبي حيان في الكتابة ، وبعده عن التكلف والتعمل ، وهي صنعة الأديب الموهوب المطبوع ، ولعل من أهم أسباب الخلاف الذي نشب بين أبي حيان والوزيرين ، أن الوزيرين كانا متكلفي الأسلوب متصنعين في إخراج أدبهما وهذا ما جعل أبا حيان يستثقل ظلهما وينظر اليهما نظرة لا يخالطها إعجاب وربما صرح بذلك ، وهذا ما أحنق الوزيرين عليه ، إذ من العسير أن يصحب الأديب من لا يجود عليه بالإعجاب ، وهذه الصفة من مستلزمات الأدباء في كل الأمم والعصور .

واقرأ هذه العبارة من كتابه (ثمرات العلوم) : « أطال الله بقاءكم ، وأدام كرامتكم ، وحرس نعمه عليكم ، وحفظ مواهبه لديكم ، ولا أخلاكم من عوائده الجسيمة ، وفوائده الكريمة ، وقد كان يقال من لم

يغضب لنفسه ناصراً ، لم يغضب لبني جذمه منتصراً ، ومن لم يقف عند العظيمة منتصفاً ، لم يرج عند النوائب مسعفاً ، ومن لم يأنف من القذع في عرضه آبياً ، لم يبت على الخسف إلا راضياً ، والغضب وإن كان مذموماً عند بعض الخلال ، فإنه محمود في بعض الأحوال ، وكما أن استمرار الغضب في جميع الأحوال ، نوع من فساد الأخلاق ، كذلك أيضاً الرضا في جميع الأمور ضرب من ضروب النفاق ، ولا بد من التقلب بين الرضا والغضب ، كما أنه لا بد من التردد بين الراحة والتعب » .

ولقد سقت لك هذه العبارة لتتبين قوة الفكر وصفائه وسلاسة الإنشاء عند هذا العبقري .

أما في الشعر فإن الزمن لم يحفظ لأبي حيان إلا بعض أبيات قالها مصادفة ، فإن نسكه كان يمنعه من ذلك ، لأن للشعر دوافع ودواعي لم تكن متوفرة له ، أما هذه الأبيات فقد جمعت في قطعة واحدة مشهورة مطلعهـــا :

يا صاحبيّ دعا الملامة واقصرا ترك الهوى يا صاحبي خسارة

الى أن يقول هذا البيت المشهور :

يا من أحب ولا أسمي باسمها إياك أعني واسمعي يا جارة

وإني لأشك شكاً كبيراً في نسبة هذه الأبيات إلى أبي حيان فهي لا تنسجم مع تاريخه وحياته وأسلوبه الكتابي ؛ أو ربما كانت من شعر الصبا الذي يبدأ الأديب به حياته الأدبية حتى إذا وجد التقصير حليفه أقلع عنه كما فعل الكثيرون من الأدباء في مطلع حياتهم .

ومما يؤسف له أسفاً شديداً أن التشاؤم قد امتد بأبي حيان بعد ما أصابه من أحداث الزمان فعمد الى إحراق كتبه ؛ ولولا أن سبق للناس تلقفُ ما كتبه وحفظه لخسرت اللغة العربية كل آثار هذا الكاتب

العبقري . وأبو حيان يعتذر عن إحراق كتبه بأعذار واهية إن قبل بعضها بعض أهل عصره فنحن في زمننا نردها إليه جملة ولا نقبل منها شيئاً ، لأن النتاج العقلي ملك للناس جميعاً لا للشخص الذي خرجت على يديه ، والمنتحر لا يعذره الدين كما لا يعذره القانون ، لأن نفسه ليست له وإنما هي أمانة وضعت في جسمه .

ذلك هو الرجل الكبير الذي أوردت لك شيئاً من سيرته في هـذا المقال لتقف على صورة من أزهى صور التاريخ الأدبي عند العرب في عصر من أزهى عصورهم الفكرية .

أحمد الجندي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

التعريف والنقد

(مكتب عنبر)

بقلم الأستاذ النقيب السيد ظافر القاسمي

عدد صفحاته ١٤٠ من القطع الوسط ، طبع في المطبعة الكاثوليكية

في بيروت سنة ١٩٦٤

مَن تصفح هذا الكتاب للكاتب المؤرخ الأديب السيد ظافر القاسمي ، رأى فيه العجب العجاب ، من سيرة أئمة العربية والدين ، الذين كانوا مجدّين في تعليم الطلاّب ، مختلف العلوم والآداب ، فقد كانوا قدوةً صالحةً في تربيتهم وتعليمهم ، وصدق وطنيتهم ، ودفاعهم عن بلادهم بما أوتوا من قوة ، وكان لطلابهم فيهم أسوة حسنة . رحم الله من مضى منهم ، وحفظ من بقي ذخراً لأمتنا وفخراً .

(مكتب عنبر ، وما أدراك ما مكتب عنبر !)

لقد كان معقلاً للوطنية ، ومرجعاً للغة العربية بأدبها وأخلاق أهلها ، فمن أساتذة اللغة والدين ، هؤلاء العلماء الأجلاّء : الشيخ عبد الرحمن سلام ، والشيخ محمد الداوودي ، والشيخ عبد القادر المبارك ، والشيخ سليم الجندي ، ومن كبار أساتذتها محمد البزم . ومن الأبطال الذين أقاموا صرح العلم والوطنية والأخلاق ـ كما قال المؤلف ـ : جودة الهاشمي ، ومحمد علي الجزائري ، وجميل صليبا ، وجودة الكيال ، ويحيى الشماع ، وحسن يحيى الصبان ، وغيرهم من هذه الطبقة العالية الغالية . فقد تخرج على

أيديهم ألوف كثيرة من الطلاب . أما هذا الضعيف فقد جمعتني ببعضهم مهمة التعليم في المدارس الرسمية كتجهيزي الذكور والإناث . ومنهم مَن تولّى الإدارة مع التعليم . والرعيـل الأول ، الذي تخرج على أيديهم لا نظير لهم في مَن جاءوا بعدهم .

ثم ذكر المؤلف المحسن والمسيء من أساتذته الفرنسيين ، مقيماً ميزان النصفة والعدل بينهم ، ونوّه بالمودة الثابتة الدائمة ، على القرب والبعد ، بينه وبين أستاذ له وصديق في مكتب عنبر من الفرنسيين (١) وبينه وبين طالب مسلم تركي ، فأما الأستاذ فيكاتبه بالفرنسية ، وأما الطالب فيكتب بالعربية بعد سنين طويلة ، إذ يرى أنها لغة كل مسلم ، ويجب المحافظة عليها .

وفي طليعة الكتاب مقدمة حافلة بقلم الأستاذ الكبير الشيخ علي الطنطاوي وهو من طلاب مكتب عنبر أيضاً وزميل المؤلف في حياته العلمية والأدبية ، فكانت مواردهما ومصادرهما متشابهة ، وقلمها يجري في هذا السبيل جريان الماء العذب السلسبيل .

(اللغة العربية والإسلام)

إن أفضل وسيلة لتعود اللغة العربية لنا ، لغة محادثة وكتابة وخطابة ، ويكون الإسلام لناشئتنا ديناً ، علماً وعملاً واعتقاداً ، هو قيام أساتذة اللغة والدين ، بواجبهم العربي والإسلامي على الوجه المطلوب ، فإنا نرى الأجانب في بلادنا يكلمون أولادنا بلغتهم الأعجمية ليسهل عليهم تعلمهـا والنطق بها ، فهل يكون أساتذتنا أقل حظاً ونصيباً في تعليم اللغة العربية والدين من الأجانب في ديارنا . وهذه كلمة لأحد حكماء الإسلام ، في هذا الموضوع العام ، قال : أما سير الإسلام مع اللغة فقد كان من العجائب التي لم يعهد لها نظير في التاريخ :

(١) الأستاذ غوليه Gaulmier .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم يمض على انتشار الإسلام في بلاد الروم والفرس ، وبلاد افريقية وغربي أوربا إلا زمن يسير ، حتى علت اللغة العربية على لغات هذه الأمم ، بل نسختها كما تنسخ آية النهار آية الليل ، من غير مدارس ولا معلمين ينصرفون إلى تعليم اللغة . فهذا دليل على أن الصحابة الكرام ، ومن اهتدى بهديهم من الفاتحين كانوا يلقنون الناس الدين على وجه يبعثهم على تعلم العربية من أنفسهم ، وما كان ذلك الانتشار إلا بهذا الوازع النفسي الذي يفعل ما لا تفعل السياسة ولا المدارس ، وما أوقف هذا السير إلا ضعف الدول العربية ، ووثوب الأعاجم على عروشها ، وإفتاء علماء الأعاجم بجواز العبادة وقراءة القرآن والذكر في الصلاة باللغات الأعجمية .

ويلاحظ أن اللوحة (بعد ص ١١٢) وفيها صورة زيارة الملك فيصل لمكتب عنبر (عام ١٩٢٠) أنها كانت أخذت في دار المعلمين الأولية في كرخ بغداد .

وأختم كلمتي بإسداء الشكر للأستاذ المؤلف السيد ظافر الذي نالني شرف تدريسه الحديث والتوحيد ، فقد نوّه بي في هذا الكتاب الوحيد من نوعه ، بوصفي بما أملاه عليه فضله ونبله ، على أني أحمده سبحانه وأشكره على أن كنت تلميذ علاّمة الشام في المعقول والمنقول : والده أستاذنا الشيخ محمد جمال الدين القاسمي ، فإليه يعود الفضل كله ، رحمه الله تعالى ورضي عنه ، وحفظ لنا نجله الذي يعيد لنا مجد أبيه ، جداً واجتهاداً ، وهمة ونشاطاً ، بمنه وكرمه .

محمد بهجة البيطار

ARCHIVE

ملاحظات وتعليقات [1]

على (دِعبل بن علي الخزاعي ـ دراسة تحليلية لحياته وشعره)

تأليف الدكتور : عبد الكريم الأشتر

نشر الدكتور عبد الكريم الأشتر الأستاذ بجامعة دمشق : دراسته التحليلية لحياة دعبل بن علي الخزاعي وشعره سنة ١٩٦٤ بدمشق ، وانتهت اليَّ نسخة منها ، في وقت تعوقني فيه عدةُ عوائق "قُدِّرَ" لها أن تتزاحم وتتفاقم في وقت واحد ! فرأيت أن أؤجل النظر فيها إلى فرصة سانحة ، ثم إلى أن يصل إلي ما جمعه الدكتور وصنفه من شعر دِعبل ، ولكن الكتاب كان "نُصبَ" عيني من جهة ، وموضع اهتمامي من جهة أخرى ، فتركتُ ما يجب أن يكون إلى ما هو كائن ، وبدأتُ أقرأ .. في ضوء فكرةٍ قديمة عن الدكتور في معاناته الطويلة ، وأتعابه الكثيرة ، لدراسة حياةِ دعبل وشعرِه ، وكانت هذه الفكرة مشبعةً بالشعور بصبر الدكتور وجلده على مواصلة التتبع والتحري والاستقصاء فيما يخص هذا الشاعر الكبير والوقوف على منازعه واتجاهاته ...

وقد أفلح الدكتور الأشتر إلى حدٍ بعيد في وقفاته على مختلف الأبحاث والدراسات والكتب والمقالات ـ على اختلاف مذاهب ومشارب ذويهـا ومؤلفيها ـ في هذا الشأن ... ولا أراني بعيداً عن الصواب إذا ما قلتُ انه قد ألمَّ بأكثرها الماماً محموداً ، وكانت الفِكَرُ والإشاراتُ التي قدَّمها إلى القراء عما كُتبَ عن الشاعر في الغابر والحاضر ، شيئاً مهماً ! .

(١) أثبتنا أهم الملاحظات والتعليقات الواردة في مقال الأستاذ الدجيلي ، ونعتذر عن نشر البحث كاملاً لطوله . (لجنة المجلة)

أما الدراسة التحليلية هذه فقد كان الدكتور موفقاً في أكثر مواردها كما وُفّقت هي الأخرى فكانت كتاباً مستقلاً عن حياة دعبل وسيرته مع لمحاتٍ عن شعره ، وقد دلّت على مدى الجهود التي بذلها الدكتور فيها ، لولا ما شابَها من تطويل في التعبير ، وتكرار في المعاني وتناقض في بعض الأفكار أو تفسير لبعض المواقف لا يتفق والواقع . ولولا عدم تبويبها ..

وقد عنّت لي في أثناء قراءتي «ملاحظات» وتعليقات» هامة رأيت أن ادوّنها استجابةً للأخ الدكتور ، وخدمةً لهذا التراث الجليل ، وها أنا الآن اقدّمها للقراء منبّهاً إلى أنها بعض ما لاحظته على كتاب الدراسة ، ولعلي أعود مرةً أخرى عند سنوح الفرصة ، راجياً منه تعالى أن يمدّنا بالصحة والأمان ..

* * *

١ ـ لفتَ نظري عدم افتتاح الكتاب بالبسملة ! وهذه عادة درج عليها بعض كتابنا ، لم اهتدِ إلى تفسيرها !

٢ ـ في ص ٨ قال عن دعبل : « ولكنه في السنوات الأخيرة منها (من حياته) ، وقد استكان قليلاً ، كأنما خمدت الجذوة ، يلجأ إلى إلى النثر فيكتب كتابين في طبقات الشعراء ومثالب العرب ومناقبها .. »

آ ـ كيف نوفق بين هذه الاستكانة وهجائه للمتوكل في أيامه الأخيرة ، بالبداهة ؟ بل وهجائه لمالك بن طوق الذي دبّر لاغتيال دعبل؟ ثم أليس هذا يناقض قول الدكتور ص ١٩٤ « وكان دعبل بعد أن ولي المتوكل قد طعن في السنّ ولكنه لم يتعب من المغالبة » ! وقوله ص ١٩٧ : « فأي رجل في مثل السنّ التي بلغها دعبل تبقى له مثل هذه الأنياب الحادّة ؟ وأي أتون ٍ لا يبرد في أعماقه .. »

ب ـ وما هو الدليل على أنه ألف كتابيه في أيامه الأخيرة ؟ أما ما ذهب اليه الدكتور من أنه ترجم لأحمد بن أبي دواد المتوفى ٢٤٠ هـ ـ كما في ص ٢٧٩ ـ فهو غير مقبول ، ولا يصح الاستدلال به على ذلك إذ قد يكون ترجم للمذكور في حياته ـ وقد كان شائعاً ، حتى اليوم تدوين (التراجم) في حياة ذويها ، وهو كثير في الكتب .

٣ ـ في ص ١٨ قال : « فلا يبعد كثيراً اذن أن تكون النسبة الى بديل من عمل رجال من الشيعة ظنوا انهم يكسبونه به شرفاً يمحو ما علق به من قالة السوء » .

هذا غير صحيح ، ان الشيعة لا تزوّر أبداً ، لأن قالة السوء هي من تقوّلات المؤرخين ، وذوي النيات غير الحسنة ، مع علمنا بأن إضفاء النسب أو عمله لا يدرأ عن صاحبه قالة السوء أو يمحو ما علق منها .

٤ ـ في ص ٢٣ قال « وقد كان دعبل يجهل معنى اسمه حتى فسّره له أبو عمرو الشيباني يوماً . » نقلا عن الأغاني .

وأبو عمرو الشيباني هذا معاصر دعبل وقد توفي ٢٠٦ هـ وأعتقد ان الدكتور لو تأمل هذا الخبر لما كتبه ازدراءً به ، الا ّ أن يكون قد نألّى يميناً على كتابة كل شيء ! . كيف يُعقل أن يجهل معنى اسمه (أو لقبه) رجل من صميم العروبة ، وشاعر مثقف مثل دعبل بشهادات الدكتور ، مع أنّ هناك أخباراً يرويها دعبل أو يذكرها عن اسمه وما حدث له ، لم يذكرها الدكتور ! وكان تعقيبه على خبر الأغاني بقوله : « ونعتقد أنه لو كان لقباً لُقب به لما جهل معناه بعد أن تقدمت به السن » وهذا أعجب من الخبر ! ..

٥ ـ وفي ص ٢٧ ـ ٢٩ قال : « وليس في الوسع أن نقبل ما روي في مصدر من مصادر الشيعة من عدّه في المقتصدين .. » نقلا عن معالم العلماء

لابن شهراشوب ص ١٣٩ ثم أخذ الدكتور يفنّد ذلك ، يفند كون دعبل مقتصداً بما عرف عنه من إكرام الضيف ، وذمه البخل والمطل ، ويورد الشواهد من شعره على ذلك .. وغيرها .

ثم قال في ص ٢٩ « ونعتقد ان الأصل في رواية ابن شهراشوب عن عدّه في المقتصدين ما نعرف من زيارته لسهل بن هارون الذي كان يُرمى بالبخل ويحتج له ، ورواية دعبل عنه حكاية الديك .. »

آ ـ ليس في معالم العلماء لابن شهراشوب (ـ ٥٨٨) أية رواية بهذا المعنى اطلاقاً .

ب ـ وقد جاء في أواخر الكتاب ما يلي بالنص « باب في بعض شعراء أهل البيت عليهم السلام ، وهم أربع طبقات : المجاهرون والمقتصدون والمتقون والمتكلفون » ثم أخذ المؤلف ـ أعني ابن شهراشوب ـ يعدد أسماء رجال كل طبقة من هذه الطبقات بعنوان (فصل) . وكان دعبل مع جملة من مشاهير وكبار العلماء والأدباء والشعراء في فصل المقتصدين . . . أي المقتصدين في الدعوة والمجاهرة بالتشيع ، لا المقتصدين بالإنفاق والبذل ! ـ كما وهم الدكتور ـ .

وعلى هذا فلم يقصد ابن شهراشوب من عده في المقتصدين المعنى الذي فهمه الدكتور .

جـ ـ كان الأولى بالدكتور أن ينقد من اتهم دعبلا بالبخل صراحة ففي المنتخل ـ المطبوع بذيل المنتحل للثعالبي ـ لأحمد الأزهري أبي علي ص٣٢٢ قال عن دعبل : « وكان شديد البخل ونوادره في ذلك شتى » !! وكنت قد رددت ذلك في الديوان ص ٤٨ .

هـ ـ اما ما ذهب اليه الدكتور من تفسير المقتصدين بالبخلاء كما يفهم من كلامه فغير صحيح ، والذي نعرفه من اللغة ان الاقتصاد ضد الافراط أي

ضد التبذير ، وفرق بين البخـل والاقتصاد ، والاقتصاد هو الاعتدال والاستقامة « والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوَاماً - سورة الفرقان » وقيل قديماً : « لا وجود مع تبذير ولا بخل مع اقتصاد » ولا يصح تفسير (ما عالَ مَن اقتصد) - أو أعال - بمن بخل . .

٦ - وفي ص ٢٩ - ٣١ قال : « وكان يكثر من شرب الخمر على عادة أغلب شعراء العصر بدليل ما بقي من شعره ... وفي ص ٣٠ : ويغلب على الظن انه ظل يشربها حتى غلب عليه الكِبَر ... وفي ص ٣١ : على انه كان لا يشربها صرفاً بل يمزجها بالماء لأن الصرف يورث الحتف ... » ثم : « وكان أولاده يعرفون - على ما يبدو - ولعه بالخمرة حتى ان علياً وهو أكبرهم روى انه : لما حضرت أبي الوفاة تغير لونه وانعقد لسانه واسود وجهه ، فكدت الرجوع عن مذهبه فرأيته بعد ثلاثة أيام فيما يرى النائم وعليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء فقلت له يا أبت ! ما فعل الله بك ؟ فقال : يا بني ان الذي رأيته من اسوداد وجهي وانعقاد لساني كان من شربي الخمر في دار الدنيا .. » نقل الخبر عن (عيون أخبار الرضا لابن بابويه ص ٣٧٠ وعنه في منتهى المقال لأبي علي ص ١٣٢) .

وقد بتر الدكتور الخبر من أوله وآخره ! وتتمته : « في دار الدنيا ولم أزل كذلك حتى لقيت رسول الله صلى الله عليه وآله وعليه ثياب بيض وقلنسوة بيضاء ، فقال لي : انت دعبل ؟ قلت : نعم يا رسول الله ! قال فأنشدني قولك في أولادي فأنشدته قولي :

لاأضحكَ اللهُ سنَّ الدهر إن ضحكت وآل أحمد مظلومون قد قهروا
مشردون نُفوا عن عُقر دارهمُ كأنهم قد جنوا ما ليس يُغتفر

قال : فقال لي أحسنتَ ، وشفع في وأعطاني ثيابه وها هي وأشار الى ثياب بدنه » .

هـــذه بقية خبر عيون أخبار الرضا ونقل الخبر عنه أبو علي في « منتهى المقال » .

أقول : أما الاستشهاد بالشعر في ذكر الخمرة ووصفها ومعاطاتها وغير ذلك من الأخيلة فيها ، فلا يدل على شربها واحتسائها وقد وصفها كثير من الشعراء وصف عالم بفعلها ، خبير بمرارتها وحرارتها ، دون أن تمس شفاههم قطرة منها ، ومن هؤلاء من هم في عداد رجال الدين والعلم ، ولو كان في هذا المجال متسع لشفعتُ ذلك بالأمثلة الكثيرة ولأوردتُ نماذج غير قليلة في ذلك ، كما ادعى كثير من الشعراء دعاوى عريضة في الفخر والشجاعة والكرم ، والوطنية وغيرها ولم يكن واقعهم ليدل على ذلك ! ..

٧ ـ وفي ص ١٤٣ قال : « فأما الحيجاج فلم يكن دعبل يطيقه لما نعرف من حرارة مزاجه ووثوب قلبه في الشعر ، ولأن دعوى الهاشميين في الخلافة وقد كانت قوية في أيام الكميت ـ ضعفت حجتها كثيراً بعد أن تولّى العباسيون الخلافة » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والظاهر انها دعوى العلويين في أيام الكميت وبعده لا دعوى الهاشميين من العباسيين ، ولم تضعف حجة هذه الدعوى ـ أعني دعوى العلويين في كلتا الدولتين كما هو معروف ..

٨ ـ ص ١٩٤ قال : « فلما خرج المتوكل إلى تعقّب الشيعة شدد النكير عليهم وهدم قبور آل البيت في كربلاء والنجف سنة ٢٣٦ هـ » .

والمعروف عن المتوكل انه تعرض لمرقد الإمام الحسين بن علي في كربلا ومنع الناس من زيارته ، ولم يرد شيء عن تعرضه لمرقد الإمام علي في النجف . وفي طبقات الشافعية الكبرى « ٢١٦/١ » لتاج الدين السبكي (ـ ٧٧١ هـ) قال عن المتوكل « وأمر بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله من الدور وان يعمل مزارع ، ومنع الناس من زيارته ، وتألم المسلمون لذلك

وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد ، وهجاه دعبل وغيره من الشعراء وقال قائلهم :

تالله إن كانت أمية قد أتت قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله هذا لعمرك قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا في قتله ، فتتبعوه رميما

٩ - وفي ص ٣٠٣ قال - عن المقدمة التي قدمتُ بها (ديوان دعبل ابن علي الخزاعي) - « .. تجميع طويل جاد .. تحكمه فكرة مسبقة بالدفاع عن الشاعر وإعلاء شأنه ومذهبه ، ولو كلفه ذلك تكذيب الموثوق من أخبـاره ، والطعن على معاصريه ومهجويه . . وقد أكثر الكاتب من ادراج النقول الواسعة عن كتب الشيعة حتى وقع في استطرادات غريبة ، ونحسب أنه لم يصل - مع ذلك - إلى شيء كبير يوقف عنده .. »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا هو رأي الأخ الدكتور ، وفيه تحامل على الكاتب وعلى ما كتب ! فهذه المقدمة التي بلغت الثمانين بالحرف الدقيق لم تصل إلى شيء كبير يوقف عنده في رأيه ! وهذه المقدمة التي لم تكن تجميعاً لفظيا ، بل تجميعاً للمعاني المضغوطة فيها ، مرتبة ومبوّبة ، قال الدكتور عن كاتبها : تحكمه فكرة مسبقة بالدفاع عن الشاعر ! ...

هذا كلامٌ ليس فيه تَصَنّف ، ولم يكن جديداً لما يتهم به الدكتور فكثيراً ما قال مثل هذا المتنقِدون غير المنصفين في المنتقَدين !! وقلما روعيت الحقيقية ، وقد وُجِّه بالنقد إلى دعبل أكثر من مرة ولم يُحمد في بعض تصرفاته ، في هذه المقدمة التي عابها الدكتور .

أما ما قاله عن تكذيب الموثوق من أخبـاره والطعن على معاصريه ومهجويه ، فهو في رأيه ، لأني لم أكذّب الموثوق من أخباره في رأيي ، والذي لا يحتمل الشك وورود أخبار وروايات بقصد الإساءة اليه والحطّ منه ،

وقد أورد أبو الفرج أخباراً متضاربة متناقضة ، بعيدة عن الحقيقة ، دون تحقيق أو تمحيص ، وجاء الذين أخذوا عنه فزادوا وأضافوا من (عنديّاتهم) الكثير من الطعون ! . .

ألم يقل الدكتور نفسه ص ٣ « فأكثر هذه الترجمات أخبار متفرقة وروايات متضاربة ، موجهة في بعض الأحيان . »

ألم يقل ص ٢١٤ — ٢١٥ « ونخشى أن يكون لما فقدته به أكثر مصادرنا الأدبية ولما اختارت له من شعره أثر في الأحكام التي ترمي الشاعر بكل نقيصة حتى تجعله عصارة اللؤم المصفّى ، ونخشى أن يسأل أبو الفرج نفسه صاحب السلطان الواسع على معظم تراثنا الأدبي القديم عما شاع من ذلك في هذه المصادر ، كما يسأل عن كثير من مثل هذه الأحكام ! »

ليَعُدْ الدكتور الى أقواله وبتأملها ! . .

وأود — وأنا أرجو أن أعود الى تحليل « الدراسة التحليلية » أن أذكر شذرات قليلة جداً من أقوال العلماء والباحثين عن مقدمة ديوان دعبل الذي نشرته سنة ١٩٦٢ م للموازنة بينها وبين قول الدكتور الأشتر :

قال العلاّمة الأمير الرئيس مصطفى الشهابي في ١٩٦٢/١٢/٩ من رسالة : « وأثنى على التحقيقات الدقيقة وعلى إنصاف ذلك الشاعر الفذ » . وقال الأستاذ الكبير السيد جعفر الحسني في ١٩٦٤/١/١٤ من رسالة : « أهنئكم على هذا الجهد الكبير فقد أحسنتم الجمع والتحقيق والتعليق أحسن الله اليكم . . » وقال الأستاذ البحاثة كوركيس عواد في ١٩٦٢/٩/١ من رسالة « وهي تحفة أدبية رائعة قد أوفت على الغاية في بعد التحقيق والتدقيق ، وفي كل صفحة من صفحات هذا الديوان يتجلى ما بُذل من جهد وعناية بالغين في إخراجه بهذا الوجه العلمي الذي يستوجب كل مديح وثناء ، وما أثمن هذه المقدمة التحليلية التي صدرتم بها هذا الديوان للتعريف بدعبل ، وعندي أنها خير ما كتب في هذا الشاعر . . » وقال العالم المحقق توفيق

الفكيكي في بحثه الطويل المنشور في مجلة المكتبة، تشرين الثاني ١٩٦٢ :
« .. فقد كان الأستاذ الدجيلي موفقاً غاية التوفيق، بالغاً الغاية المنشودة التي كثيراً ما قصر عن بلوغها بعض أصحاب (الدكتورة) والدراسات الجامعية .... »

هذه فقرات من عشرات، وسننشرها ان شاء الله في المستدرك أو في طبعة الديوان الثانية .

* * *

ملاحظات وأخطاء :

لاحظت هذه الأخطاء في مصادر ومراجع (الدراسة التحليلية) ومنها أخطاء هامة جداً، ولم أجزم بأنها كل ما لاحظت :

١ ـ جاء في ص ٣٠٨ « الإرشاد لأبي علي الحسن بن محمد الطوسي المعروف بالشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) .

والصحيح : لأبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي . وسنة وفاته كما ذكرها .

٢ ـ وجاء في ص ٣١٠ : البداية والنهاية لابن كثير القرشي ... عشرة أجزاء والصحيح : ١٤ جزءاً .

٣ ـ وجاء في ص ٣٢١ : سنة وفاة ابن النديم صاحب الفهرست (٤٣٨ هـ) والصحيح : ٣٨٤ هـ أو ٥ .

٤ ـ وجاء في ص ٣٢٣ « المصون لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري (ت ٣٩٥ هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ..

وقد اشتبه الدكتور والتبس عليه الأمر فنسب الكتاب لأبي هلال العسكري وذكر وفاته ٣٩٥ بينما المصون لأبي أحمد العسكري المتوفى ٣٨٢ هـ وهو أستاذ أبي هلال مؤلف (ديوان المعاني) و (الصناعتين) وعلى المصون

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

اعتمد أبو هلال في النقل والنقد في كتابيه المذكورين وقد اتفقا في اسميهما واسمي أبويهما وجديهما !

٥ – وجاء في ص ٣٢٥ : تاريخ وفاة الميرزا محمد الاسترابادي صاحب منهج المقال (ت ١٣١٣) وكان الدكتور قد ذكر تاريخ وفاته في ص ٢٩٢ بالحاشية (١٣١٢) .

والصحيح أن تاريخ وفاته هو سنة (١٠٢٨ هـ) .

٦ – وجاء في ص ٣٢٧ : تاريخ وفاة المؤرخ محمد بن يوسف الكندي سنة ٣٥٥ هـ والصحيح انها سنة ٣٥٠ هـ .

* * *

ARCHIVE

أخطاء الكتاب !

وقد صححتُ الأخطاء التي نبّهَ عليها بجدول في آخر الكتاب قبل قراءته غير اني عثرتُ على الأخطاء الآتية التي لم ينتبه اليها الدكتور لينبّه عليها ، فدونتُها اثناء القراءة ، وربما فاتني غيرها لم انتبه اليه :

ص	س			
٤٩	٤	تشيعو	—	تشيعوا
٥٧	٤	الجائزة	—	الجائزة
٦٢	٢	ببلدتهَ	—	ببلدتهِ
٦٨	—	تكرر رقم ٣ مرتين في الأصل		
٧٧	٤	من وَلَدَ	—	من ولدِ
٩٢	١٣	ثلاثون حجةٍ ...		حجةً
٩٢	١	ويتراءى له آل البيت مهزوابن متعبين وخصومهم غلاظ عراض والصحيح : غلاظاً عِراضا .		
١٠٨	١	ونكن	—	ولكن

ص	س		
١٠٨	٢	قبل شر الخلق ــ	قبر شر الخلق
١١٣	١٢	سنوات قلية ــ	.. قليلة
١١٧	٣	على ضوء ــ	والصحيح في ضوء
١٢٢	٨	بأل يحيثه ــ	بأن ...
١٢٤	٧	علاقات ــ	والصحيح علائق ، تكررت
١٢٥	٩	بالمبلونَ ــ	بالمليونِ
١٤٣	١٣	الدعوة التي يدعوها ــ	يدعو اليها .
١٤٤	١١	علاقات ــ	علائق
١٤٤	١٢	فاعاد بذلك تصورُ ــ	... تصورَ
١٥٧	٤	وجيدةُ ــ	وجيدهُ
١٦٨	١٣	أنكرهُمْ	أنكرهُم
١٧٢	ــ	اختلاف أرقام الحواشي	
٢٠٩	٣	واسقيهمْ ــ	واسقيهمُ
٢٣٥	١١	سثلم ــ	سيثلم
٢٧٩	١١	بما خزائن ــ	بما في خزائن
٢٨٠	١٦	المقرطة ــ	المفرطة
٢٩٠	٥	كتبة ــ	كتبه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا آخر ما لاحظته في قراءتي للكتاب السريعة وأرجو المعذرة من الصديق الدكتور ومن القراء الكرام .

(النجف) عبد الصاحب عمران الدجيلي الخزرجي

آراء وأنباء

انتخاب نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق

عقد بتاريخ ١٩٦٤/١١/١ مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق اجتماعاً قانونياً انتخب فيه بالإجماع العضو العامل الأستاذ عز الدين التنوخي نائباً لرئيس مجمع اللغة العربية الشاغرة وصدر بذلك قرار سيادة وزير التربية والتعليم الآتي :

قرار رقم (٢٤٤٣)

وزير التربية والتعليم

بناء على القرار الجمهوري رقم ١١٤٤ لعام ١٩٦٠ ولا سيما المادة (٨) منه .

وعلى القرار رقم (٣١) عام ١٩٦١ المتضمن اللائحة الداخلية لمجمع اللغة العربية .

وعلى القرار الوزاري رقم (٤٨) تاريخ ١٩٦١/٦/١٦ الصادر تنفيذاً لحكم المادة ٢٥ من القرار ١١٤٤ المذكور .

وعلى ضبط الجلسة القانونية التي عقدها الأعضاء العاملون بمجمع اللغة العربية بدمشق في اليوم الأول من شهر تشرين الثاني ١٩٦٤ والتي تم فيها انتخاب نائب الرئيس .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقرر ما يلي :

مادة ١ ـ يعين الأستاذ عز الدين التنوخي عضو مجمع اللغة العربية العامل نائباً لرئيس مجمع اللغة العربية بدمشق لمدة أربع سنوات من تاريخ هذا القرار .

مادة ٢ ـ يتقاضى الأستاذ عز الدين التنوخي نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق تعويضاً شهرياً معادلاً لراتب الدرجة الثالثة من المرتبة الأولى ، ويصرف من الباب الأول (الرواتب) من موازنة المجمع .

مادة ٣ ـ ينشر هذا القرار ويبلغ من يلزم لتنفيذه .

دمشق في ١٣٨٤/٨/١٧ و ١٩٦٤/١٢/٢١

وزير التربية والتعليم

مصطفى حداد

تجديد انتخاب أمين مجمع اللغة العربية بدمشق

عقد بتاريخ ١٩/١٢/١٩٦٤ مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق اجتماعاً قانونياً جدد فيه انتخاب الأمين السابق الأستاذ جعفر الحسني بالإجماع وصدر بذلك قرار سيادة وزير التربية والتعليم الآتي[١] :

قرار رقم (٢٤٥٠)

وزير التربية والتعليم

بناء على القرار الجمهوري رقم ١١٤٤ لسنة ١٩٦٠ ولا سيما المادة (٨) منه .

وعلى القرار رقم (٣١) لسنة ١٩٦١ المتضمن اللائحة الداخلية لمجمع اللغة العربية ولا سيما المادة ٣٧ منه .

وعلى القرار الوزاري رقم (٤٨) تاريخ ١٦/٦/١٩٦١ الصادر تنفيذاً لحكم المادة (٣٥) من القرار ١١٤٤ المذكور .

وعلى ضبط الجلسة القانونية التي عقدها الأعضاء العاملون بمجمع اللغة العربية بدمشق في ١٩/١٢/١٩٦٤ والتي تم فيها انتخاب أمين المجمع

يقرر ما يلي :

١ ـ يجدد تعيين الأستاذ جعفر الحسني أميناً لمجمع اللغة العربية بدمشق لمدة أربع سنوات من تاريخ ١/٥/١٩٦٥ .

٢ ـ يتقاضى الأستاذ جعفر الحسني أمين المجمع تعويضاً شهرياً معادلاً لراتب موظفي الدرجة الثالثة من المرتبة الأولى . يصرف له من الباب الأول (الرواتب) من موازنة المجمع .

٣ ـ ينشر هذا القرار ويبلغ من يلزم لتنفيذ أحكامه .

دمشق في ١٨/٨/١٣٨٤ و ٢٢/١٢/١٩٦٤

وزير التربية والتعليم

مصطفى حداد

---

(١) جدد انتخاب الأستاذ الأمير أميناً للمجمع للمرة الثالثة .

بيان ما حققه

مجمع اللغة العربيـة بدمشق (المجمع العلمي العربي) (١)

في دورة (١٩٦٣ – ١٩٦٤)

ودع مجمعنا الدورة السابقة لعام ١٩٦٣ – ١٩٦٤ مرتاحاً للأعمال التي أنجزها من مشروعاته المقررة سابقاً للدورة المذكورة . وكان وافق على نشر (١٨) كتاباً ومخطوطة تم تحقيقها وأعدت للطبع بالاضافة إلى اصدار مجلته . وقد انجز المجمع طبع قسم منها على أن ينتهي من طبع البقية الباقية في الدورة اللاحقة . وهذه أسماء الكتب التي تم طبعها :

١ – أخطاء شائعة في ألفاظ العلوم الزراعية والنباتية : للأستاذ الأمير مصطفى الشهابي .

٢ – حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (الجزء الثالث والأخير) لعبد الرزاق البيطار بتحقيق الأستاذ محمد بهجة البيطار .

٣ – الحيدة لعبد العزيز الكناني : بتحقيق الدكتور جميل صليبا

٤ – خريدة القصر وجريدة العصر (الجزء الثالث – في ذكر محاسن فضلاء الحجاز واليمن للعماد الأصفهاني الكاتب) بتحقيق الدكتور شكري فيصل .

٥ – وصف المطر والسحاب لابن دريد : بتحقيق الأستاذ عز الدين التنوخي .

٦ – شعر الراعي النميري وأخباره : للدكتور ناصر الحاني .

٧ – تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (المجلدة العاشرة) بتحقيق الأستاذ محمد أحمد دهمان .

---

(١) تلاه الأستاذ أمين المجمع في اجتماع مجلس المجمع المنعقد بتاريخ ١٠ تشرين الأول سنة ١٩٦٤ .

٨ - سؤال في يزيد بن معاوية لابن تيمية بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

٩ - قرة العيون في أخبار باب جيرون لابن طولون الصالحي : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

١٠-١١ كتاب الأضداد في كلام العرب (الجزء الأول والثاني) لأبي الطيب اللغوي الحلبي : بتحقيق الدكتور عزة حسن .

١٢ - فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (الفقه الشافعي) وضعه الأستاذ عبد الغني الدقر .

١٣ - فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (قسم الشعر) وضعه الأستاذ الدكتور عزة حسن .

١٤-١٥ فهرس مجلة المجمع العلمي العربي للسنوات العشر الثالثة (الجزء الثالث - القسم الأول والثاني) وضعه الأستاذ عمر رضا كحالة .

١٦ - الألفاظ المعربة والموضوعة الواردة في السنوات العشر الثالثة في مجلة المجمع العلمي العربي جمعها الأستاذ عمر رضا كحالة .

١٧ - المقدمة في كتاب المسائل والأجوبة « مسألة ربّ » لابن السيد البطليوسي : بتحقيق الدكتور ابراهيم السامرائي .

١٨ - النصف الثاني من المجلد (٣٨) والنصف الأول من المجلد (٣٩) من مجلة المجمع العلمي العربي .

ونأمل أن يتم طبع الكتب التي تأخر طبعها بسبب تحقيقها أو لأسباب مالية ، وذلك خلال دورة عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ .

* * *

الشؤون الادارية :

١ ـ جدد السادة أعضاء المجمع بالاجماع رئاسة سيادة الرئيس الأمير مصطفى الشهابي وصدر بذلك المرسوم ذو الرقم (٢٠٤) المورخ في ١٩٦٤/١/٢٦ .

٢ ـ تقرر بمناسبة بلوغ مجلة المجمع عقدها الخامس اصدار عدد ممتاز ، ذكرى لهذه المناسبة ، يشترك بتحريره أعضاء المجمع العاملون والمراسلون وأعلام أدباء البلاد العربية .

٣ ـ وتقرر بهذه المناسبة ان يطبع بطريقة التصوير الجزء المخطوط النفيس (ديوان الفرزدق) المحفوظ بدار الكتب الظاهرية .

٤ ـ استكمل المجمع معاملة استملاك القسمين من العقارين المجاورين لدار الكتب الظاهرية بغية توسيع دار الكتب وتحسينها .

٥ ـ اهدى المجمع مجموعات من مطبوعاته الى بعض الجامعات ودور الكتب في البلاد العربية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دار الكتب الوطنية الظاهرية :

حققت دار الكتب بعض مشاريعها وادخلت تحسينات ادارية ملموسة منها :

آ ـ عدلت دوام موظفيها في شهور الشتاء والربيع والخريف من ست ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة يومياً لتفسح مجال المطالعة لجميع فئات المواطنين .

ب ـ جردت في أيام العطلة الصيفية مستودعات الكتب المخطوطة والمطبوعة وجددت ما تلف من جزازات فهارسها .

ج ـ صورت عدداً كبيراً من مخطوطاتها ، وقد تم حتى الآن تصوير نحو ثلثها ، كما انها أمنت تصوير كل ما طلب منها تصويره للبلاد الأجنبية .

د ـ عهدت إلى الأستاذ الشيخ ناصر الدين الألباني وضع فهرس لكتب الحديث المخطوطة ، وقد أنجز أكثره .

هـ ـ عهدت الى السيدة أسماء الحمصي أمينة المخطوطات وضع فهرس لكتب اللغة والأدب المخطوطة ، وقد باشرت عملها فيه .

اهداء كتب :

أهدى ورثة المرحوم عطا الأيوبي إلى دار الكتب الظاهرية كتب مورثهم ، كما أهدى ورثة المرحوم عبد الغني القـــادري كتب والدهم ، وهي كتب قيمة فاستحقوا شكر المجمع وتقديره .

الوفيات :

فقد المجمع من أعضائه المراسلين في الجمهورية العربية المتحـــدة :

١ ـ المرحوم عباس محمود العقاد .

٢ ـ المرحوم خليل ثابت .

تغمدهما الله برحمته وأجزل ثوابهما .

جعفر الحسني

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

مشروعات المجمع

لدورة ١٩٦٤ – ١٩٦٥ (١)

يستقبل مجمعنا دورته الحالية لسنة ١٩٦٤ – ١٩٦٥ بأمل أقوى وعزيمة أمضى تحقيقاً لأغراضه العلمية والإدارية ، معتمداً على جهود الأساتذة أعضاء المجمع وعلى مؤازرة أهل العلم والأدب

ان نشر التراث القديم الذي أخذ مجمعنا على عاتقه إحياء نفائسه وبعث نوادره قد حظي بتقدير أهل الفضل في سائر البلاد العربية ، وتقدير المستشرقين في البلاد الأجنبية ، وزاد الإقبال على اقتناء كل ما نشره المجمع حتى نفد أكثره ، وهذا ما يشجع المجمع على المضي في خطته ضمن حدود مخصصاته المالية . وعزم المجمع في دورته هذه على طبع الكتب التالية :

١ – الجامع في أخبار أبي العلاء المعري (الجزء الثالث والأخير) لسليم الجندي : بتحقيق الأستاذ عبد الهادي هاشم .

٢ – تراجم الأعيان من أبناء الزمان (الجزء الثاني) للبوريني : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

٣ – أخلاق الوزيرين (أو مثالب الوزيرين) لأبي حيان التوحيدي : بتحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي .

٤ – شعر دعبل بن علي الخزاعي : للدكتور عبد الكريم الأشتر .

٥ – جمهرة المغنين لخليل مردم بك : بمراجعة الأستاذين عدنان مردم بك وأحمد الجندي .

(١) تلاه الأستاذ أمين المجمع في اجتماع مجلس المجمع المنعقد بتاريخ ١٠ تشرين الأول سنة ١٩٦٤ .

٦ ـ ديوان عبد الرحمن ابن النقيب : بتحقيق الأستاذ عبد الله الجبوري ومراجعة الأستاذ أحمد الجندي .

٧ ـ ما بناه العرب على فعال للصغاني : بتحقيق الدكتور عزة حسن

٨ ـ معاني الشعر لسعيد بن هارون الأشناندانى : بتحقيق الأستاذ عز الدين التنوخي .

٩ ـ فهرس المجلدة العاشرة من تاريخ دمشق لابن عساكر : وضع الآنسة ملك هنانو .

١٠ ـ فهرس مخطوطات الظاهرية (قسم الحديث) : وضع الأستاذ الشيخ ناصر الدين الألباني .

١١ ـ ديوان الغزي : بتحقيق الدكتور شكري فيصل .

١٢ ـ كتاب المفوات النادرة لغرس النعمة الصابي بتحقيق الدكتور صالح الأشتر .

١٣ ـ منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك بن ميمون (بتحقيق الأستاذ عز الدين التنوخي) .

١٤ ـ خريدة القصر وجريدة العصر (الجزء الرابع ـ قسم شعراء بلاد العجم) بتحقيق الدكتور شكري فيصل .

١٥ ـ ديوان الفرزدق .

١٦ ـ معجم مصطلحات الآثار (فرنسي ـ عربي) وضع الأستاذ الأمير يحيى الشهابي ، بمراجعة لجنة مجمعية .

١٧ ـ مجلة المجمع العلمي ومنها العدد الممتاز .

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الشؤون الإدارية :

١ ـ انتخاب نائب رئيس المجمع العلمي العربي .

٢ ـ ملء شواغر الأعضاء العاملين .

٣ ـ انتخاب أعضاء مراسلين .

٤ ـ انتخاب عضوي اللجنة الإدارية .

الإنشاءات :

توسيع دار الكتب الظاهرية .

وتحقيق هذه المشروعات منوط بما سيرصد لها في ميزانية عام ١٩٦٥ .

جعفر الحسني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com